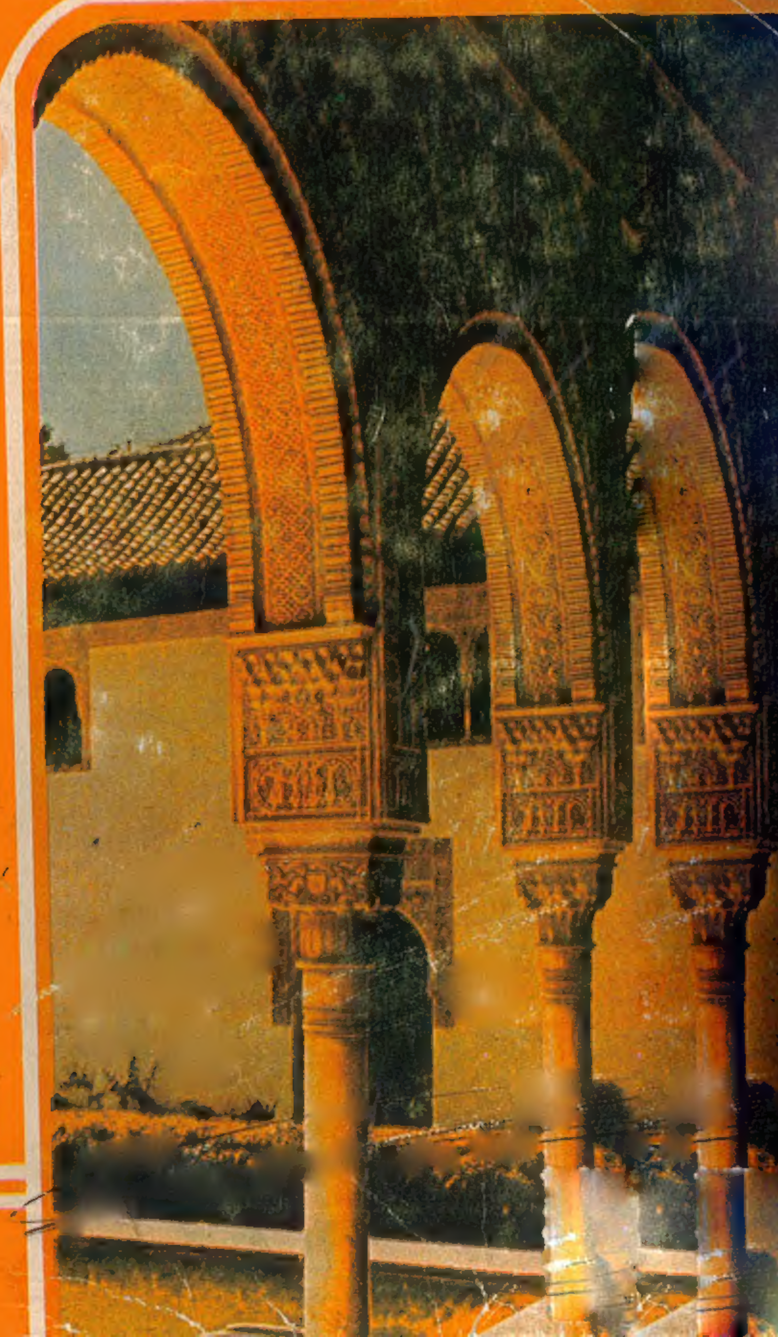
دراسات في النظم العربية الاسلامية

الدكتور توفيق اليوزبكي



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

دراسات في النظم العربية الإسلامية

تأليف

الدكتور

توفيق سلطان اليوزبكي

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

١٣٩٩هـ-١٩٧٩م

وضع

وفق المناهج الموحدة لموضوع (النظم الاسلامية)

للصفوف الثالثة بأقسام التاريخ

بكليات الآداب والتربية بجامعات القطر

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية

اقدم للقارىء الكريم الطبعة الثانية وبحلة جديدة لكتاب (دراسات في النظم العربية الاسلامية) الذي يتميز باضافة فصول جديدة وجدتها جديرة بأن تضم إلى مادة الكتاب بدت لي من خلال تدريسي لهذه المادة وقراءاتي في العديد من المصادر والمراجع التي لم أكن قد وقفت عليها. وتأتي هذه الاضافات لتنسجم مع مفردات منهج (النظم الاسلامية) التي تدرس على طلبة الصفوف الثالثة بأقسام التاريخ بكليات الآداب والتربية في جامعات القطر وحظيت هذه الطبعة بتوضيحات لبعض ما أشكل وغمض على القارىء وقد تجاوزت في الطبعة كثيراً من الهفوات والأخطاء التي وقعت في متن الكتاب وهوامشه .

وآمل أن يسد هذا الكتاب فراغاً في المكتبة العربية ، ويكون عند حسن ظن قارئيه والله من وراء القصد .

الدكتور
توفيق سلطان اليوزبكي
أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

مقدمة الطبعة الأولى

تعد دراسة النظم العربية الاسلامية من أهم الدراسات التاريخية وا صعبها لقلة من تصدى لها من المؤرخين القدامى والمحدثين والفقهاء .فقد تناول بعضهم دراسة جوانب معينة منها في حقبة تاريخية محددة بينما لاتزال بعض جوانبها غامضة ولم تبحث كل نواحيها وزوا ياها كما أن هذه النظم لم تنشأ مرة واحدة وانما نشأت خلال عصور تاريخية طويلة يصعب على الباحث احياناً تحديد اصول بعضها .

فالنظم الاسلامية ترجع بعض اصولها إلى النظم العربية قبل الاسلام والتي سادت الجزيرة العربية واطرافها في الممالك العربية كالمناذرة والغساسنة والتدمريين وغيرهم وترجع اصول بعضها الآخر الى تلك التي سادت البلاد المفتوحة ولاسيما النظم الساسانية والبيزنطية فلما جاء الاسلام اقر من هذه النظمماينسجم منها ومبادئه، وبدل بعضها واهمل مايتعارض والدين الاسلامي .

تعتبر النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمالية والادارية والعسكرية مظهراً لشخصية الامة من حيث تقدمها وعوامل تطورها ومدى تأثيرها في مجرى التاريخ الانساني للشعوب الاخرى ، وهي تكشف عن طبيعة العقلية العربية وتطورها الفكري والحضاري وحاجة الامة لمثل هذه المؤسسات من خلال تجارب العرب وتقاليدهم ونظمهم وما وجد في البلاد المفتوحة من نظم وتقاليد وما جاء به الاسلام من مبادىء ونظم استطاع العرب المسلمون صهرها وصقلها بما تنسجم وواقع العرب المسلمين انذاك . وتطورت هذه النظم خلال العصور الاسلامية مع تطور المجتمع الاسلامي والدولة العربية الاسلامية.

ان مصادر بحثنا في النظم العربية والاسلامية كثيرة ومتنوعة اذ يعتبر كتاب (الاحكام السلطانية) للماوردي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) و (الاحكام السلطانية) لابي يعلى (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) في طليعة المصادر التي تناولت النظم السياسية

والادارية والمالية والاحكام الاسلامية المتضمنة احكام الرسول والخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين واجتهادات الفقهاء ، ويتفق أبو يعلي في نظريته عن الخلافة والوزارة والدواوين مع نظرية الماوردي مما يحملنا على الاعتقاد ان نظرية ابي يعلي مقتبسة عن الماوردي نصا وروحاً لانهما عاشا في عصر واحد وتوفيا في فترة متقاربة (١) . وممن كتب ايضاً في نظم الخلافة والوزارة والدواوين ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية والدولة الاسلامية) وتناول محمد بن عبدالله بن مسلم الدينوري الملقب بابن قتيبة (٢٧٦هـ /٨٨٩م) في كتابه (الامامة والسياسية) مسألة الامامة وشروط عقدها كما تناول الاوضاع السياسية في تلك العهود .

وألف محمد بن عبدوس الجهشياري (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م) كتابه الموسوم (الوزراء والكتاب) وهو اشهر مؤلف في تاريخ الوزراء في الاسلام وقد انصب اهتمام المؤلف على وزراء المقتدر ، اما كتاب (الوزراء) والمعروف ايضاً بـ (تحفة الامراء في تاريخ الوزراء) لابي الحسن هلال الصابيء (٤٤٨هـ/١٠٥٦م) فقد تناول النظم الاسلامية في العصر العباسي بصورة خاصة من وزارة ودواوين ومراسيم ومكاتبات سلطانية وما كتبه احمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) في « صبح الاعشى في صناعة الانشا» تناول الوزارة وآدابها وحقوقها ، ولعل ابرز ماد ونهفي كتابة مراسيم الاستيزار وهي مراسيم سلطانية بالتكليف بالوزارة .

واما ما كتب في احكام الاسلام في النظم المالية من جزية وخراج وعشور وفيء وزكاة وغيرها مما يشكل موارد الدولة المالية فقد كتب فيها ابو يوسف القاضي (ت ١٩٢هـ/ ٧٩٨م) في كتابه (الخراج) ويحيى بن آدم (٢٠٣هـ / ٨١٨م) في كتابه الخراج ايضاً وابو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) في كتابه (الاموال) . وقد امتاز كتاب أبن القيم الجوزية(ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) (احكام اهل الذمة في الاسلام) بالدقة والشمول والعمق حيث تناول الاسلام

(١) انظر بهذا الصدد : كتاب الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية للمؤلف نفسه (الموصل ١٩٧٥) ص ٢٦٢ .

في المسائل المتعلقة بمعاملة اهل الذمة في الشؤون المالية والاجتماعية والاقتصادية.

وما كتبه ابو عمر الكندي (ت ٣٥٠هـ) عن الولاة والقضاة وممن كتب في الحسبة وا حكامها وصفات وا ختصاصات المحتسب — الماوردي في (الاحكام السلطانية)وابن تيمية في كتابه(الحسبة في الاسلام)والشيزري في(نهاية الرتبة في طلب الحسبة)وعبد الرزاق الحصان في كتابه (الحسبة)وماجاء في دائرة المعارف الاسلامية(مادةحسبة)فقد اشاروا إلىعوامل نشأتهاواختصاصاتها وعلاقتهابالقضاء.

وعلى الرغم من ان اغلب المؤرخين المسلمين لم يعنوا بدراسة النظم الاسلامية بصورة مفصلة الا أن هناك ما يدل على اهتمام البعض منهم بذكر بعض جوانبها وعلى شكل نتف مبعثرة في كتب التأريخ نذكر منهم ماجاء به الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢م) في (تاريخ الرسل والملوك) وابن الاثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) في (الكامل في التاريخ) والمسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) في (مروج الذهب) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥) في (مقدمته وتاريخه) (والبلاذري) ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) في (فتوح البلدان) وابن سعد (٣٢٠هـ) في (الطبقات الكبرى) وابن هشام (ت ٢١٣هـ) في (السيرة النبوية) والشهرستاني (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) في (الملل والنحل) ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) في (البداية والنهاية) وغيرهم كثيرون وقد افاد البحث ما كتبه بعض المؤرخين المحدثين من عرب ومستشرقين في (النظم الاسلامية) منهم الدكتور عبد العزيز الدوري ، والدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور صبحي الصالح والمستشرق الفرنسي ديموبين وما الف عن الخلافة وتطورها بما كتبه المستشرق توماس ارنولد في كتابيه (الخلافة) و (الدعوة إلى الاسلام) والدكتور عبد المنعم ماجد في (الحضارة الاسلامية) والمستشرق الفرنسي غوستاف لوبون في (حضارة العرب) والمستشرقة الفرنسية سورديل في (الوزارة العباسية) وولهاوزن في (الدولة العربية وسقوطها) وفان فلوتن في (السيادة العربية) وديورانت في (قصة الحضارة) وجولد تسيهر في (العقيدة والشريعة في الاسلام) .

ومن الابحاث العربية الحديثة التي عنيت بدراسة النظم السياسية والاجتماعية والدينية عند العرب في الجاهلية كتاب (محاضرات في تاريخ العرب) للدكتور صالح احمد العلي . وما كتبه احمد امين في (فجر الاسلام) عن النظم الاجتماعية والدينية عند العرب في الجاهلية والاسلام وفي (ضحى الاسلام) عن عقائد الفرق الاسلامية وآرائها في مسألة الخلافة وإلى جانب هؤلاء استفاد البحث من البحوث المتفرقة التي وردت في كتب التاريخ والفقه والنظم والحضارة والتي الفها الفقهاء والمؤرخون العرب والمستشرقون مما لامجال لذكرهم في مقدمه هذا البحث وقد القت الضوء على التغييرات السياسية وعلى تطور النظم الاسلامية خلال العصور الاسلامية وحتى بداية العصر السلجوقي .

لقد استهدفت في بحثي هذا دراسة النظم العربية والاسلامية بصورة اوسع واعمق في النواحي السياسية والادارية والمالية والاجتماعية والقضائية والعسكرية ابتداء من اواخر العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي الثاني. لاعطي صورة اكثر وضوحاً عن نشأة النظم وتطورها ودورها المهم في بناء الحضارة العربية الاسلامية وتوخيت ان ينسجم هذا البحث مع مفردات منهج النظم الاسلامية لقسم التاريخ لتحقيق الفائدة للطلبة والباحثين في هذا المجال .

والبحث يتضمن تسعة فصول تناولنا في اولها لمحة تاريخية عن النظم العربية السياسية والاجتماعية في العصر الجاهلي الذي سبق الاسلام ، والنظم الساسانية والبيزنطية فيما يخص نظم الحكم والطبقات والضرائب مبينا اثرها في النظم الاسلامية .

وتكلمنا في الفصل الثاني على النظم السياسية الاسلامية فتناولنا تنظيمات الرسول في المدينة واشرنا إلى (الوثيقة) او (الصحيفة) او (الدستور المدني) لاهل المدينة . واستعرضنا مسألة الخلافة (الامامة) من حيث نشأتها وتطورها خلال عصر الراشدين والامويين والعباسيين وعرضنا رأي الفقهاء ونظرياتهم في مسألة الخلافة واقتصرنا على دراسة النظريات الاسلامية في الخلافة (اهل السنة) (الامامية) (الخوارج) (المعتزلة) و (الاسماعيلية) .

وقد لعبت نظريات هذه الفرق دورها الفعال في الفكر السياسي عند المسلمين واتممنا في الفصل الثالث دراسة النظم السياسية بالبحث في نظام (الوزارة) من حيث نشأتها وتطورها خلال العصور الاسلامية ، واشرنا إلى عوامل تولي الفرس الوزارة والصفات الواجب توفرها في الوزير وامتيازات الوزير واختصاصاته ، واثر السيطرة الاجنبية من فرس واتراك وبويهيين على نظام الوزارة ، كما تناولنا دراسة نظرية الوزارة التي اوردها الماوردي وابو يعلى في كتابيهما (الاحكام السلطانية) والدوافع التي دفعتهما لوضع اسس هذه النظرية.

وتعرضنا في الفصل الرابع لنظام الامارة من حيث نشأتها وتطورها وصلاحيات الامير واختصاصاته باعتباره رئيس السلطة السياسية في الاقاليم الاسلامية ونائب الخليفة على الرعية وذلك ابتداء من عصر الرسول والراشدين والامويين والعباسيين .

وفي الفصل الخامس تناولنا دراسة النظم الادارية وبصورة خاصة الدواوين من حيث نشأتها وانواعها واصنافها « الدواوين المركزية والمحلية » واختصاصاتها وتطورها خلال العصور الاسلامية واشرنا إلى دوافع عمر بن الخطاب في تدوين (الديوان) كما اشرنا إلى جهود الامويين في تعريب الدواوين والسكة.

وخصصنا الفصل السادس لدراسة النظم المالية والتشريعات الاقتصادية في عهد الرسول والخليفة عمر بن الخطاب فيما يخص نظام الاراضي ونظام الضرائب . كما تناولنا دراسة مصادر الدولة المالية من جزية وعشور وخراج وفيء وغنيمة وزكاة .

وعني البحث في الفصل السابع بدراسة النظم العسكرية فاستعرضنا نظام القتال في العصر الجاهلي ونظام الجيش في العصر الاسلامي واساليب القتال وانواع الاسلحة واصنافها. كما تناولنا في هذا الفصل ايضاً دراسة نشأة البحرية العربية واهميتها ودورها في تقدم العرب البحري كما تناول البحث انواع واصناف السفن الحربية وطريقة القتال ومراكز صناعة

السفن والحقنا في هذا الفصل نظام الشرطة على اعتبار أنه غدى بمرور الزمن جزءاً من القوات العسكرية لحماية الامن الداخلي، لذلك تحدثت عن نظام الشرطة منذ بدايته وإلى تطور اختصاصه وعلاقته بالسلطة السياسية والقضائية.

وفي الفصل الثامن تحدثنا عن النظام القضائي في العصر الجاهلي، وعن مصادر القضاء في العصر الاسلامي وتطوره خلال عصر الرسول والراشدين والأمويين والعباسيين ذاكرين صفات القاضي واختصاصاته وأسس الحكم في القضايا المعروضة عليه.

وتناول هذا الفصل أيضاً دراسة نظام (الحسبة) من حيث نشأتها وأهميتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الاسلامي، والتي تجلت في اختصاصات المحتسب وواجباته. وعلاقته بالقضاء معتمدين في دراستها على كتب الفقه والتاريخ.

أما الفصل الأخير فقد تناول دراسة النظم الاجتماعية، واقتصرنا الحديث على دراسة مقومات المجتمع الاسلامي المتكون من (العرب والموالي واهل الذمة والرقيق) واشرنا إلى علاقة بعضهم ببعض، ونظرة الاسلام اليهم خلال عصر الرسول والعصر الراشدي والاموي والعباسي ومبينين أثرهم في الحياة الفكرية.

هذا وان دراسة تاريخ النظم الاسلامية وتطورها تلقي الضوء على التقلبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سايرت العصور الاسلامية وكان لها أعمق الاثر في بناء الحضارة العربية وازدهار المجتمع الاسلامي.

وختاماً أرجو أن أكون قد وفقت في ابراز هذه النظم المهمة في تاريخنا الحضاري. وأملي أن يكون هذا الكتاب قد سد ثغرة في دراسة النظم العربية الاسلامية في حقبة من التاريخ العربي الاسلامي، خدمة لرسالة العلم وبعث التراث الاصيل لامتنا العربية الخالدة وتاريخها المجيد والله الموفق.

الدكتور
توفيق سلطان اليوزبكي
أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد
رئيس قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة الموصل
تشرين الاول ١٩٧٦

الفصل الأول

أسس النظم العربية الإسلامية

* النظم والتقاليد العربية
* النظام السياسي والاجتماعي عند العرب في الجاهلية
* النظم البيزنطية ، نظام الحكم ، نظام الضرائب.
* النظم الساسانية ، نظام الحكم والطبقات ، نظام الضرائب.

(النظم والتقاليد العربية)

أ ـ النظام السياسى والاجتماعى عند العرب فى الجاهلية

يقوم النظام السياسي والاجتماعي عند العرب في الجاهلية على اساس القبيلة ..

القبيلة : ـ هي الوحدة السياسية التي يبنى عليها النظام الاجتماعي عند العرب فى الجاهلية وهي تمثل جماعة من الناس ينتمون او يزعمون انهم ينتمون إلى جد واحد مشترك انحدروا منه مما اوجد شعور التماسك والاندماج والعصبية القائمة على اساس رابطة الدم (١) يعيشون في البوادي والحواضر في الجزيرة العربية على شكل شعوب وقبائل وافخاد وبطون ، تعتز كل قبيلة بأبنائها كما يفخر كل فرد بقبيلته فيتحملون مسؤولية الدفاع عنها ودفع الدية.

وتستوفي القبيلة كافة مقومات الدولة سوى الارض المعينة الحدود ، ذلك ان فيها شعباً يرى انه ينتسب إلى اصل واحد ولها سيادة تامة كما ان لها تقاليد وعرفاً يعتبر كالدستور ولاينقصها الا ارض مثبتة الحدود . (٢)

اذ ان القبيلة قلما تثبت في مكان واحد اماداً طويلة بل تتجول من مكان إلى اخر وان كانت في غالب الاحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول في نطاقها وهي ماتدعى بالدار ، او قد تنشيء لنفسها حمىً (اى منطقة ثابتة من الارض لايجوز لغيرها ان يخترقها او يستعملها).(٣) وعلى هذا الاساس لم يكن لدى المجتمع العربي في الجاهلية نزعة قومية شاملة لأن الوعي السياسي فيه كان ضعيفاً ضيقاً محدوداً لايتجاوز حدود القبيلة او حدود القبائل المنتمية إلى الجد الواحد (٤) كما لم يقم بينهم نظام سياسي حقيقي له نظمه الادارية او

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ج١ص٣٠٨، العلي محاضرات في تاريخ العرب ط٦ص١٢٧، سالم تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص٢٢٥.

(٢) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص١٥٢ .

(٣) لوكجارد : الضرائب الاسلامية في الازمنة الاولى ص٢٠ ومابعدها .

(٤) سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص٢٢٥ .

القضائية كالذي ظهر في عصر الرسول وما تلاه . لأنهم كانوا عشاق الحرية والمساواة يأبون الخضوع لشخص واحد يسيطر عليهم فكل فرد لايعتبر زعامة شيخ القبيلة او سلطته الا رمزا لفكرة عامة بل كان مطلق الحرية في ان يرفض مااجتمع عليه رأي الاغلبية من ابناء قبيلته (١) وقد اضطر – مع ذلك – للأنضواء تحت لواء قائد محنك مجرب يبغي لجماعتهم وحدتها ويحفظ كيانها وسموا هذا القائد بالشيخ والرئيس والسيد والامير (٢).

ولم يكن هناك نظام لانتقال سلطة الرئيس إذ كان يختار غالباً من اهل العصبية أوالنفوذ ، ويكون اكبر افراد القبيلة سناً ، ذاشجاعة وحنكة وتجربة وأكثرهم مالا وكرماً ، وفضلوا الاغنى والاقوى على من كان اقل اموالا ونفوذا . (٣) ويتولى انتخاب رئيس القبيلة مجلس القبيلة (مجلس شورى القبيلة) ويتكون من المتنفذين ومن رؤساء الاسر في القبيلة ، وكل من بلغ الاربعين من افراد القبيلة ويتمتع العضو بحرية تامة والتحدث في اجتماعات المجلس ، والعادة عند دعوة المجلس لحدث مهم ينادي المنادي الناس للاجتماع ،ويناقش الفرد في المجلس مختلف شؤون القبيلة الداخلية والخارجية من عقد المحالفات بين القبائل وتقرير الهجوم وعقد الصلح وما إلى ذلك من الامور. وينتظر من رئيس القبيلة ان يكون حليماً و مضيافاً ومجيراً للضعفاء ، وقد اشار الجاحظ إلى صفاتـه : السخاء والنجدة والصبروالحلم والتوا ضع والبيـان.ويتم انتخاب الرئيس بصورة ديمقراطية وبالانتخاب الحر المباشر وعلانية .

ولم يكن نظام المشيخة قائماً على الوراثة لان ظروف الحياة في القبيلة وعلاقاتها

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص٥١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٢ص٢٢١، ابن خلدون : المقدمة ص١٠١ ، ابن هشام السيرة جـ١ص١٧١ .

(٣) الدوري : النظم الاسلامية ص٧، صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٥٠، ارنولد ص٥٢، محمود شكري الالوسي بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب جـ١ص٢٠١

مع القبائل الاخرى كانت تتطلب ان يقودها المع افرادها واقدرهم ، ولهذا كانت السلطة تنتقل احياناً من شيخ القبيلة إلى ابن اخيه او من فخذ إلى آخر(١).

ولانه قلما يتصف الابن بصفات ابية ، ويرى العلي (٢) : ان العرب لم تكن تفضل ان يخلف الابن اباه لما قد يجره ذلك عن تقرير لمبدء الوراثة في الرئاسة وما قد يؤديه من تقييد حرية البدوي ، وليس في تاريخ العرب قبل الاسلام اكثر من اربع اسر تتابع فيها اربعة من الأحفاد بالتعاقب على الرئاسة .

ويعلق المستشرق وات : (٣) على تفضيل العرب للانتخاب في رئاسة القبيلة بقوله هكذا يكون العرب باعترافهم بالفضائل الاخلاقية وقدرتهم على تمييز هذه الفضائل قد حققوا نوعاً من المزج بين الارستقراطية والمساواة فاعترفوا بحكم الافضل مع تأكيد المساواة بين جميع الناس .

كانت الرئاسة في القبيلة مدى الحياة ، وكان يحق لرئيس القبيلة ان يسمي خلفه في حالة غيابه ، وللمجلس الحق في انتخاب خلف له في حالة وقوعه في الاسر ، وتعذر فكه منه ، او في حالة اشتطاطه في امور القبيلة ، فالمعروف عن العربي انه لايرضى الذل ويرفض المهانة لانه كان مرهف الحس يحب الحرية ، ولم يصبر على ضيم ، وقد عبر الشعراء عن نفسيته يقول احدهم : — وهو بشار بن برد :

اذا الملك الجبار صعر خده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

ويقول آخر : — وهو عمرو بن كلثوم :

اذا ما الملك سام الناس خسفاً   أبينا أن نُقِر الذلَ فينا

وكانت سلطة شيخ القبيلة تمتد إلى النواحي السياسية والاجتماعية ويندر أن اجتمعت اليه السلطة الدينية فهو الذي يدير المناقشات في المجلس وينظر في الخصومات التي تعرض عليه ويقود افراد القبيلة في الحروب ويتولى تقسيم

---

(١) الدوري : النظم الاسلامية ص٨ .

(٢) صالح العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص١٣٦ .

(٣) مونتكمري وات : محمد في مكة . تعريب شعبان بركات ص٥٠ طبع بيروت .

الغنائم بين المقاتلين من افراد القبيلة ، ولم تكن هذه السلطة مطلقة بل محدودة فكان عليه ان يستشير مجلس القبيلة ، وبدون موافقته لايستطيع اعلان الحرب او الرحيل او عقد السلم ، وان بقاءه منوط بحسن ظنهم به (١)

بقي هذا الاسلوب في الحياة السياسية والاجتماعية سائداً عند العرب في الجاهلية وقبل ظهور الاسلام، وعندما انتشر الاسلام بين القبائل العربية حاول الرسول اضعاف العصبية القبلية فحلت العصبية للاسلام محل العصبية للقبيلة ، ومع ان التعاليم الاسلامية اكدت هذا الاتجاه (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) و (لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) الا ان الرسول ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين والامويين حافظوا على التنظيم القبلي في النواحي العسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، فلما استوطن العرب بعد الفتح في فارس والعراق والشام ومصر حافظوا على التنظيمات القبلية فاختطوا مرابع العرب في الامصار الاسلامية الجديدة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط على اساس قبلي ، كما حافظوا على الوحدات القبلية في التنظيم العسكري اثناء القتال وجعلوا على كل قبيلة عريفاً خاصاً وهو شيخها وهم يستلمون عطاءهم سوية (٢) وهذا يفسر قوة الشعور القبلي وميل زعماء المسلمين للحفاظ عليه لشعورهم بعدم خطورته على النظام الجديد رغم ان خطورة الابقاء على النظام القبلي لم يظهر بصورة واضحة في عصر الراشدين الا انه ظهر بصورة جلية في العصر الاموي وكان عاملا خطيراً في نشاط العصبية القبلية وقيام الحروب والمنازعات بين القبائل والتي كانت عاملا مهماً في اسقاط الدولة الاموية .

ومما تجب الاشارة اليه ان الجزيرة العربية موطن العرب الذين غلبت عليهم روح البدواة انها ترجع إلى أن اغلب اراضيهم صحراوية لاتصلح للزراعة ولذلك احترفوا في البوادي مهنة الرعي وعاشوا على شكل قبائل متنقلة وراء العشب والكلأ ومناطق المياه .

---

(١) الدوري : النظم الاسلامية ص٨ .

(٢) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص١٢٨ .

كما وجدت أيضاً في الجزيرة العربية بيئات حضرية ذات مدنية ، واسسوا دولا وممالك عظيمة كالمعينية والسبئية والحميرية والغساسنة على اطراف الجزيرة في الشام ، واللخميين في العراق ، كانت تمارس التجارة وتبادل السلع والنقل والحماية ، ونشأت حوالي القرن الاول قبل الميلاد مملكة تدمر وكانت لملكتها الزباء مواقف عظيمة مع بعض اباطرة الرومان (١)

وكانت الحجاز وبصورة خاصة مكة ويثرب بحكم موقعهما مركزاً للتجارة بين شمال الجزيرة وجنوبها ، وكان للقرشيين في مكة تجارة واسعة واصابوا من الحياة الحضرية المترفة مادعاهم إلى إيثار حياة الدعة واللهو ، وساعدتهم التجارة إلى معرفة لغة الامم الاجنبية التي تاجروا معها ، كما اصبحت مكة بحكم كونها مدينة مقدسة لوجود الكعبة فيها ان تضع نظماً دينية وسياسية مكنها من عقد سلسلة من الاحلاف بين قريش وبين القبائل كحلف الفضول (٢) وكانت يثرب المركز الثاني من مراكز التجارة في الجزيرة العربية فكان سكانها يحترفون الزراعة والتجارة ، وقد أنشأ اهلها علاقات تجارية مع بعض الاقاليم كالشام ومصر اذ كان يتفرع مـن مدين طريقان يصلان يثرب بهذه البلدان ، وكانت جدة مرفأ لنقل البضائع والطرف والتحف ، وفيها مغاص للغواصين على اللآلي والدر والمرجان (٣) .

وعلى هذا لايمكننا ان نحكم على العرب الذين عاشوا في الجزيرة العربية وعلى اطرافها انهم جماعة من البدائيين يسكنون الخيام ويقطنون الصحاري والقفار ولا يعرفون الا الغزو والغارة وانتجاع الكلأ وتتبع مساقط الغيث (٤) وان مانعتوا به من البداوة والجهالة لاتعني الجهل الذي هو ضد العلم وانما يراد بها الفترة الزمنية التي كانت قبـل الاسلام (٥) . فقـد اتصلوا بالحضارات

---

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٤٢ .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص٢٩٤

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٧ص٤٣٢

(٤) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٣٩ .

(٥) جواد علي : تاريخ العرب جـ١ص٧ — ٨ .

المجاورة كالحضارة الفارسية واليونانية ، وتأثروا بالعقائد الدينية والحضارية التي عند هذه الامم كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، فانتشرت اليهودية بين قبائل اليمن ويثرب والنصرانية بين عرب الحيرة والغساسنة ونجد ان المجوسية منتشرة بين عرب البحرين وهجر .

والواقع ان التأثير اليوناني والفارسي كان ضيقاً في مجال الحضارة ، فلم يكونوا يأخذون ممن حولهم علماً منظماً لان هناك عوائق تحول دون ذلك للاختلاف الكبير في البنية الاجتماعية بين الشعب العربي وشعوب الدولة الفارسية والرومية، وانتشار الامية بين العرب آنذاك فكان المخالطون للفرس والروم ينقلون حكماً او قصصاً او امثلة او حوادث تاريخية مما يخف حمله على الناقل ، ومما يستطيع البدوي ومن في حكمه ان يهضمه . (١)

ب – النظم البيزنطية

١ – نظام الحكم :

يقوم نظام الحكم في الدولة البيزنطية منذ عهد اغسطس سنة ٣١ قبل الميلاد على اساس النظام الملكي المطلق ، ويلقب الملك بالامبراطور اي القائد الاعلى والمشرع الاكبر ، ويعطي هذا المنصب صاحبه السلطة العليا والسلطان المعصوم (٢) فصار الامبراطور هو المعين من قبل الله المختار منذ ولادته ليحكم العالم المفوض اليه من السماء المنفذ للارادة الالهية الحاكم المطلق المقدس ، وهو القانون والقائد الاعلى للجيش ، ورئيس الدين ، ونائب الله ، وحامي الكنيسة والمشرف على المجامع الكنسية ، ويقلد رجال الكنيسة المناصب ويوزع السلطان ويعين الوظائف ، واوامره مطاعة لان ارادته من السماء (٣)

ومع هذا فقد كان لسلطة الامبراطور بعض الحدود اهمها قسمه عند اعتلائه العرش بالولاء للكنيسة ، ولقرارات مجالسها ، وباتباع الدين ، ومنها قوة

---

(١) احمد أمين فجر الاسلام ص٣٥ .

(٢) الدوري النظم الاسلامية ص١٢

(٣) Norman H.Boynes. The Byzontine Empire. London 1935 P.P.59-113

الجيش التي تحد قوته احياناً والتي تظهر في الثورات المتكررة ، ومنها ايضاً قوة الارستقراطية الاقطاعية التي يضطر مجاراتها ، وقوة الشعب التي يعبر عنها في المظاهرات (١) .

نظام الضرائب : —

كان الامبراطور مصدر النظم والتشريعات المالية ، وهو الذي يعين مقادير الضرائب بعد تقدير نفقات الامبراطورية ، فيصدر امره الذي كان يستند إلى (التفويض الالهي) بتحديد المبالغ الكلية على الولايات الرئيسية التي تنقسم اليها الامبراطورية (٢) .

لقد كانت الضرائب البيزنطية كثيرة وثقيلة واهمها ضريبة الأرض . فقد كان الامبراطور هو الذي يحدد نوعيتها ومقاديرها وفق رغباته فمنها ماتؤخذ نقداً ومنها مايؤخذ عيناً ، اما ضريبة الرأس (الجزية) ففرضت على الشعوب الخاضعة للامبراطورية فكان كل سكان مصر — عدا الطبقة الممتازة — من سن الرابعة عشرة إلى الستين ملزمين بدفع هذة الضريبة (٢) ، واختلفت مقاديرها بحسب حاجة الامبراطورية والظروف السائدة فيها . كما فرض الامبراطور ضرائب متنوعة على الاقاليم الخاضعة لنفوذه منها ضرائب الماشية فكان مثلا مايفرض على الجمل الواحد عشرة دراهم كما فرض الضرائب على المهن وعلى المبيعات (٣) .

كان هذا النظام الضريبي قائماً على الظلم والتعسف فكان له اثر كبير في ثورة السوريين على الحكم البيزنطي لان البيزنطيين كانوا اكثر استبداداً واكثر تعسفاً في فرض الضرائب ممن سبقوهم (٤) كما لم يكن هم الحكومة البيزنطية في مصر

---

(١) الدوري النظم الاسلامية ص١٣ .

(٢) Norman H.Baynes, The Byzontion Empire P. 101

(٣) Milne. A History of Egypt under Roman Rull P.P. 121 - 122 Lo don 1898.

(٤) Milnb P124

Hitti, A· history of Syria P.370 Londo 1951.

سوى غرض واحد هو ان تبتز الاموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكم ولم يساورها ان تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية واصلاح امورها والعطف على الشعب المحكوم . (١)

النظم الساسانية :ـ

نظام الحكم والطبقات :ـ

يقوم نظام الحكم في الدولة الساسانية على النظام الملكي المطلق وقد تلقب حكام الفرس بلقب (ملك الملوك) او (الشاهنشاه) (٢) وكان ملوك الفرس يعتبرون انفسهم من نسل الاله وان دم الآلهة يجري في عروقهم مما حدا ببعضهم إلى ان يسمو انفسهم بـ (آلهة) او (كائنات الهية) (٣) .

يقوم النظام الاجتماعي في الدولة الساسانية على الطبقات فيعتبر الملك والعائلة المالكة الطبقة الاولى، وتليهم طبقة الاحرار والاشراف، وهم ابناء البيوتات او العظماء ثم طبقة النبلاء والدهاقين (٤) وكانوا رؤساء وملاك الاراضي (٥) ثم طبقة رجال الجيش (الاصبهبذ) (٦) وطبقة رجال الدين من (الموابذة) (٧) و (الهرابذة) (٨).

وقد منحت الديانة الزرادشتية صفة التقديس للملك الساساني واحاطته بهالة من الابهة والجلالة، ومنحته السلطة القضائية العليا، فكان الملك الساساني

(١) تيلر : فتح لمصر ترجمة فريد ابو حديد ص ٣٩ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٣.

(٢) E. Gibbon. The Decline and fall of The Roman Empire London 1911. Vol. I.P.206. كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ص ٨٢ وما بعدها

(٣) E· Brown. A Literary History of Persia (London 1909) P.128

(٤) الدهاقين : جمع دهقان : زعيم فلاحي العجم ورئيس الاقليم ، وهو لفظ فارسي معرب (الدينوري : الاخبار الطوال ص٤٧) .

(٥) كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ص٩٩

(٦) الاصبهبذ : قائد الجيش في الولايات الفارسية .

(٧) الموابذة : جمع موبذ : وهو قاضي المجوس فارسي معرب (الجاحظ البيان جـ٣ص١٣).

(٨) الهرابذه جمع هربذ : وهم قومه بيوت النار يديرون المراسيم الدينية فيها وهي فارسية معربة (الجاحظ البيان والتبيين جـ٣ص١٣) .

يجلس للرعية مرتين في السنة في النوروز (١) والمهرجان (٢) لسماع الشكاوى على الحكام، ويجلس معه في هذه المناسبات الرئيس الديني الاعلى (٣).

يعاون الملك الساساني في إدارة الدولة الوزير، وكان يتخذ عادة من طبقة الكتاب ومن البيوتات الرفيعة، وكانوا يرون ان من حزم الملك الا يكون وزيره متنفذاً وان يكون من صنائعه (٤).

نظام الضرائب:

كانت الضرائب الساسانية كثيرة ومتنوعة فكان على الفرد ان يؤدي ضريبة الارض (الخراج) وضريبة الرأس (الجزية) وضريبة التجارة، وكانت جبايتها بيد الامراء والدهاقين مستعملين الطريقة التي يرونها ،

(١) النوروز : بالفارسية(نوك رون)ومعناه(اليوم الجديد) ويصادف اليوم الاول من الاعتدال الربيعي، وقد حفظ النوروز خصائص الزجموك Zagmok الذى هو عيد البابليين القدماء (كريستنسن ص١٦٢) ويبدو أنه عيد عالمي . فالصابئة يحتفلون به أيضاً ويسمونه (نوروز ربه) (دراور الصابئة المندائيين ص١٤٥) كما يحتفل به أقباط مصر ويسمونه النوروز أيضاً (المقريزي الخطط ج٢ص ٣١) وقد أبطل المسلمون الاحتفال به منذ ان فتح العراق في خلافة عمر بن الخطاب لكونه من الشعائر الدينية المجوسية .

(٢) المهرجان : — عيد كبير عند الفرس يوافق السادس والعشرين من تشرين الاول، ومدته ستة ايام . ويقال : هو اليوم الذى عقد فيه التاج على راس اردشير بن بابك أول ملوك الساسانيين (القلقشندي صبح الاعشى ج٢ص٤٠٩ وما بعدها) . وقيل ان تعظيم الفرس ليوم المهرجان يرجع إلى استبشار الناس حين سمعوا بانتصار افريدون على الضحاك ويعتقدون ان الملائكة نزلت لمساعدة افريدون في ذلك اليوم (المقريزي الخطط ج٢ص٣١) مطبعة النيل ١٣٢٤هـ.

(٣) كريستنسن ايران في عهد الساسانيين ص٢٩٥ .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص١٠ القاهرة ١٩٥٨ .

ويحتفظون لانفسهم بما يشاؤن منها، وهي تشابه الضرائب التي فرضها الروم في بلاد الشام (١).

وقد استعمل هؤلاء الامراء والدهاقون اساليب التعذيب في سبيل الحصول على الاموال من اصحابها اما باقامتهم في الشمس او صب الزيت على رؤوسهم(٢). وكـــانت اشد الضرائب وطـــأة على الشعوب الخاضعة للدول الساسانية ضريبة الجزية فقد قدرت بسبعة اضعاف الجزية التي وضعها المسلمون على أهل العراق بعد الفتح الاسلامي (٣).

ولغرض تثبيت مقادير الجزية والخراج في العصر الساساني اجرى ملوك الفرس مسحاً للسكان وللأرض، فأمر كسرى انو شروان بمسح السهول والجبال ليصح الخراج عليها واحصاء النخل والزيتون والجماجم فقال كسرى: إنا قد رأينا ان نضع على مااحصي من جريات هذه المساحة من النخل والزيتون والجماجم ونأمر بانجامها في السنة في ثلاثة انجم (٤).

اما الجزية فقد جعلها انو شروان على اربع طبقات واسقطها على اهل البيوتات والمرازبة (٥) والاساورة (٦) والهرابذة، والموابذة، والدهاقين والكتاب (٧).

---

(١) Goitien, Jews and Arabs, P. 98.

(٢) الطبري : تاريخ حـ٣ص٣٠٦ .

(٣) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٣٦٤ .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص٣ / (الانجم الاوقات) الدينورى : الاخبار الطوال ص٤٧

(٥) المرازبة : رؤساء الفرس .

(٦) الاساورة : قواد الفرس ويجيدون الرمي بالسهام .

(٧) الدينوري الاخبار الطوال ص٤٧ .

ولعل فداحة الضرائب التي كانت تفرضها السلطات الفارسية وتعددها قد اثقلت كاهل شعوبها مما أدى إلى شعورهم بالظلم الاقتصادي والاجتماعي واصبحت البلاد والشعوب الخاضعة لسلطات الفرس والروم منهكة القوى بالحروب والمجاعات والاوبئة وهذه الاوضاع الفاسدة جعلت سكان العراق وفارس والشام ومصر يرحبون بالفاتحين العرب .

الفصل الثاني

تنظيمات الرسول في المدينة

* بناء المسجد ، المؤاخاة ، الوثيقة (الصحيفة)
* الخلافة
* معنى الخلافة اصطلاحاً وفقهاً
* نشأة نظام الخلافة وتطوره خلال عصر الراشدين
* حقوق وواجبات الخليفة
* الخلافة في العصر الأموي
* الخلافة في العصور العباسية

١ ــ الخلافة في ظل النفوذ الفارسي
٢ ــ الخلافة في ظل السيطرة التركية
٣ ــ الخلافة في ظل بني بويه

الخلافة في الفكر الاسلامي

١ ــ نظرة أهل السنة
٢ ــ نظرة الامامية
٣ ــ نظرة الزيدية
٤ ــ نظرة الخوارج
٥ ــ نظرة المعتزلة
٦ ــ نظرة الاسماعيلية

د – تنظيمات الرسول في المدينة (النظم الاسلامية الاولى)

لما ظهر الرسول في مكة وجد فيها حكومة اوليجاركية (حكومة الملأ) في يدها السلطة السياسية والدينية ، فاتخذ موقف الداعي الديني والمصلح الاجتماعي وصار يمثل المعارضة ضد الحكم القائم ، ولكنه لم يستطيع أن يضع اية نظم سياسية لعدم تيسر المجال له (١) . فأخذ يبحث عن بيئة صالحة لنشر رسالتة فوجد في يثرب ذلك المكان الذي يستطيع أن يبشر بمبادئه وعقيدته الجديدة فكانت هجرته اليها فتحاً في تاريخ العرب السياسي والديني اذ فسحت المجال لبروز عبقريته السياسية ومقدرته على التنظيم (٢) في مختلف نواحي الحياة .

ان الاحوال الجديدة في المدينة القت على الرسول كثير من المسؤوليات ، وتطلبت منه أن يضع نظاماً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً لتفادي الخصومات والخلافات التي كانت بين قبائلها ، فضلا عن أن المدينة لم تكن قد وصلت في التنظيم السياسي والديني المستوى الذي كانت قد بلغته مكة .

فلا ريب أن يكون الشاغل الاول للرسول بعد تثبيت معالم الدين الاسلامي أن يهتم بتنظيم المجتمع المدني ليتخذ منه نموذجاً يوضح رسالة الاسلام في المدينة ، ويجعلها قاعدة لنشر الاسلام بين قبائل العرب في الجزيرة العربية ليكسبه إلى جانبه فيسهل له بذلك اخضاع خصمه الاول قريش .

ولم يكن هذا العمل سهلا في مجتمع تأصلت فيه الروح القبلية باعنف مظاهرها وامتدت إلى كافة سكان المدينة بما فيهم اليهود .

بناء المسجد

بدأ الرسول بعد هجرته إلى المدينةووصوله اليها يوم الاثنين ، الثاني عشر من شهر ربيع الاول ، بوضع سلسلة من التنظيمات السياسية والادارية والاجتماعية والمالية ، وكان هدفه الاول هو حماية المسلمين لقلتهم ، وتثبيت قدم الاسلام

(١) Wellhousen, The ARAB Kingdom its fall, P. 1-3 Translated by M. Gweir, Calcutta 1977

(٢) الدوري : النظم الاسلامية ص١٥ .

ونشره في المدينة وخارجها فبنى مسجده في (قبـاء) (١) والى جانبه أقيم عدد من الحجرات لسكن الرسول وأهله واتخذه مركزاً لاجتماعاته ونادياً للمسلمين ومحلا لعباداتهم فاصبح المسجد مركز الحكومة ، ومحل المشاورات في الشؤون العامة ترسل منه البعوث والغزوات ويستقبل فيه السفراء من قبائل العرب واتخذه مدرسة لتعليم المسلمين وأبنائهم تعاليم الاسلام وشرائعه ، وقد وصفه بعض المؤرخين (٢) : أنه اللبنة الأولى للبناء الاجتماعي الديني باعتباره أداة لصهر المؤمنين بالاسلام في وحدة فكرية واحده من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء واقامة المناسبات المختلفة .

المؤاخاة :

اهتم الرسول بعد دخوله المدينة بمعالجة الوضع الاقتصادي ،لاسيما وان أغلب من هاجر ممن المسلمين تركوا أموالهم في مكة فكان على الرسول أن يعالج أمر توفير أسباب العيش لهذا العدد من المهاجرين فأوجد نظام (المؤاخاة) فقال : (تآخوا في الله اخوين) (٣) وذلك بتوزيع المهاجرين على الأنصار إذ جعل كل مهاجر يعيش مع أنصاري أخاً له وبذلك حل الرسول مشكلة اعالة المهاجرين ، ووثق التعاون بين المسلمين (٤) لقد استمر تنفيذ نظام المؤاخاة الى ان ألغي بعد معركة بدر حيث نزلت الآية الكريمة(واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) ولزوال الأزمة الاقتصادية التي واجهها المسلمون عند الهجرة إلى المدينة . ويرى البعض أن نظام المؤاخاة أوجد صيغة سليمة في البناء الاجتماعي والروحي والاقتصادي بين فئات من مختلف القبائل جمع بينها الرابط الروحي ، وترك بينهم روح المودة والتعاون والتضحية لبناء دولة

---

(١) قباء : احدى ضواحي المدينة .

(٢) أنور الجندي : الاسلام وحركة التاريخ ص٣٢ .

(٣) ابن هشام السيرة حـ٢ص١٣٨ ، ابن كثير البداية والنهاية حـ٣ ص ٢٢٦.

(٤) ابن هشام : السيرة حـ٢ص١٥٢ .

هم عمادها (١) .فقد عرف العرب نظام الاخوة وكان أساس النظام الاجتماعي في القبيلة . مما هيأ الاذهان لقبول نظام المؤاخاة بين القبائل المختلفة .

الوثيقة (الصحيفة) : —

ومن تنظيمات الرسول الاخرى في المدينة اصداره الوثيقة(٢)(الصحيفة) التي روى المؤرخون لها نصا واحدا مع اختلافات جزئية ضئيلة في قراءة بعض الكلمات، وقد، اطلقوا عليها اسم الصحيفة والوثيقة والكتاب، وقد وردت في المتن مرة (كتاب)(مادة) (١، ٤٧) ومرة (صحيفة) (مادة ٢٢، ٣٧، ٤٢، ٤٦) ويسمي حميد الله (٣)القسم الاول من الكتاب (الفقرات ١ — ٢٣) بـ(الدستور الاول للدولة الاسلامية) ويصح ان نسميها بـ(الدستور المدني لاهل المدينة) لان هذا الدستور وضع لتنظيم العلاقة بين المسلمين من المهاجرين والانصار وبين اليهود والمشركين وانها (الوثيقة) التي وضعت كدستور مرحلي في فترة كان المسلمون فيها احوج إلى الحصول على الدعم والتأييد والدخول في سلم مع كل الاطراف التي يختلف الرسول معها تمهيداً لترسيخ قواعد الحكومة الجديدة في المدينة ، بايجاد صيغة من التفاهم مع اليهود في المدينة ، وكف ايديهم عن التعاون مع قريش تمهيداً لمواجهة خطر قريش (٤) .

ولا ريب ان اسلوب الوثيقة ينم عن اصالتها فنصوصها مكونة من جمل قصيرة غير معقدة التركيب ، وان اغلب نصوصها كتب على نمط واحد ، وهي تستعمل تعابير وكلمات تلائم روح العصر .

والوثيقة مقسمة إلى ثلاثة فصول أو اقسام : اولها : خاص بالمسلمين ، الثاني : خاص باليهود والثالث عام عن المدينة .

(١) عماد الدين خليل : دراسة في السيرة ص١٥٣ .

(٢) انظر نص الوثيقة في سيرة ابن هشام ص١٢٤ — ١٢٨، ابن كثير البداية ج٣ص٢٢٤ — ٢٢٦ المقدسي البدء والتاريخ جـ٤ص١٥٣ — ١٥٤، محمد حميد الله : مجموعة الوثائق ص٤١ — ٤٧ .

(٣) حميدالله : مجموعة الوثائق ص ٢٠ .

(٤) عماد : دراسة في السيرة ص ١٥١ .

ومن الغريب ان القرآن لم يشر اليها صراحة رغم كثرة ما كان ينزل في الاحداث التي كانت تواجه المسلمين .

ولسنا نعلـــم ما أذا كانت بنود هذا الدستور (الصحيفة) قد صيغت اثر مفاوضات ووضعت على شكل معاهدة ففي ديباجتها (هذا كتاب من محمد النبي بين المؤاخين والمسلمين من قريش واهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم) فهي لاتشير إلى فريق ثان فاوضه الرسول او تعاهد معه .

ويبدو ان هذه الوثيقة او الصحيفة وضعت من جانب واحد وجعل الرسول مسؤولية تطبيقها على كل من في المدينة ، والذي يدعونا إلى ترجيح هذا الرأي انه لم يذكر فيها تاريخ وضعها او اسم كاتبها كما هو شأن الكتب والمعاهدات التي كان يعقدها النبي مع القبائل المختلفة والتي اشار إليها القرآن وخاصة مع اليهود (واذ اخذنا ميثاقكم لاتسفكوا دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم...)(١)وقوله تعالى (وأذا اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ...)(٢) وقوله ايضاً (او كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهـــم بـــل اكثرهم لايؤمنون) (٣)

ان ما جاء في مواد الدستور (الوثيقة) من الفاظ وتعابير قوية تعطي للرسول الحق في فرض نفسه كحاكم اعلى في المدينة ، وفرض آرائه كزعيم سياسي ومرجع لكل من في المدينة (٤) مما يدفعنا إلى الاعتقاد ان هذه الصحيفة وضعت بعد غزوة بدر التي كان التقاء الرسول فيها مصدر قوة معنوية كبيرة له في المدينة وخارجها ، وما رافق هذا الانتصار من محاولات بعض قبائل اليهود خلق روح الشغب ضد الرسول فكان لابد ان تنظم العلاقة بينه وبين اليهود ومن وقف معهم فجزء في المادة (٢٣) (وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله والى

(١) سورة البقرة آية ٨٤ – ٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٩٣

(٣) سورة البقرة آية ١٠

(٤) ارنولد الدعوة إلى الاسلام ص٥٤ .

محمد رسول الله) وكذلك في المادة (١٣) وان المؤمنين المتقين (ايديهم) على (كل) من بغى او ابتغى دسيعة ظلم او اثماً او عدواناً او فساداً بين المؤمنين وان ايديهم عليه جميعاً ولو كان ولد احدهم) وما جاء في المادة (٢١) وانه لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً او يؤويه وانه من نصره او أواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل) وتنطبق هذه المادة مع الظروف والاحوال التي اعقبت غزوة بدر حيث حاول البعض من المسلمين اجارة اشخاص من قريش وحمايتهم .

اما فيما يخص النظم الاخرى من ادارية ومالية فان القرآن لم يورد الا مبادىء عامة تتعلق بتنظيم الادارة المالية ، واما تفاصيل النظم الادارية والمالية والسياسية والعسكرية والاجتماعية فقد وضعها الرسول مراعياً فيها روح الاسلام والاحوال المحيطة به .

لقد كون الاسلام (أمة واحدة من دون الناس) ولتعبير الامة معنى الجماعة الدينية . وان تنظيمها يختلف عن التنظيم القبلي من حيث انه قائم على اساس العقيدة لا على اساس الدم فهو أذن قائم على مبادىء روحية واخلاقية تمتزج فيها السياسة بالاخلاق ، غير انه اعترف بالتنظيم القبلي القائم وأقر له التماسك وحق الجوار والدية وبعض الواجبات المالية، ومما لاشك فيه ان الرسول كان يتخذ من احكام القرآن وروحه هادياً له في الحكم ودليلا للعمل ، ولما لم تكن الآيات لتوضح تفاصيل الحكم فقد كان ذلك متروكاً للرسول وتطبيقه وتنفيذه، فهو بذلك تمتع بسلطات ادارية وتنفيذية وقضائية بل وحتى سلطات تشريعية، (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا فاذا جاؤوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم) .

غير ان الرسول رغم تمتعه بهذه الصلاحيات الواسعة الا أنه كان يشاور اصحابه دائماً فلا يفرض اراءه فرضاً (وشاورهم في الامر) (وامرهم شورى بينهم).

وفي الصحيفة (الوثيقة) بنود تختص بتنظيم القضاء وتطبيق العدل وقد ركز الرسول السلطة القضائية بيده سواء في الخلافات بين المسلمين او اليهود (وانه ماكان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فأن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله(المادة ٢٣) ومع انه لم يشر إلى أن لهذه السلطة القضائية قوة تنفيذية تلزم الناس على طاعة قراراتها الا أنه لاريب فيه ان المسلمين كانوا يخضعون لقراراته تلقائياً، ولم يكن لا حد منهم ان يعصي الرسول لان ذلك يخالف ماجاء به القرآن (واطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم).

ويتبين من نصوص الوثيقة انها تؤكد على الروح الاجماعية اذ لاتقتصر احكامها على المسلمين واتباعهم بل تمتد إلى اليهود أيضاً فقد نص على انهم يجب ان يشتركوا في صد الهجمات الموجهة إلى المدينة (وان بينهم النصر على من دهم يثرب) (المادة ٤٤) (وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم) (مادة ٣٧). كما حمل الرسول اليهود مسؤولية نّفقاتهم الحربية فجاء في المادة ٣٧ (ان اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلين نفقتهم) كما أن الوثيقة تشير في المادة ٣٦ إلى عدم سماح الرسول لهم بالخروج حرباً الا باءذنه. (وانه لايخرج منهم (اليهود) احد الا بأذن محمد) وكان لهذا النص اثر في قريش اذ مكن النبي حرمان مساعدة اليهود لهم ومن الوقوف في طريق كل حلف بينهما، واكدها في نص آخر (وانه لاتجار قريش ولا من نصرها) (المادة ٤٣). وبذلك استطاع الرسول ان يكون امة جديدة اصبح قائدها ووضع السلطة الدينية والسياسية والقضائية بيده. وترتب على الخلفاء الذين جاءوا بعد وفاته مسؤولية وضع نظام متمم لنظم الرسول في حكم الامة الاسلامية فظهرت مشكلة الحكم ومن سيخلفه في ادارة الدولة الاسلامية.

الخلافة: —

معنى الخلافة لغة : —

لقد وردت في القرآن الكريم. كلمة خليفة وخلفاء وخلائف كما في الآيات الآتية (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكن لهم دينهم... (١) (وهو الذي جعلكم خلائف في الارض..) (٢) (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) (٣) (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً) (٤)

وفي القرآن آيتان يمكن ان نجد في كل منهما معنى فردياً لشخص مميز الاولى جاء بها ذكر داؤد. والثانية: ذكر آدم (ياداؤد انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى) (٥) (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)(٦)

ويرجح ارنولد (٧): تفسير كلمة خليفة من بعض المصادر الاسلامية انه بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف. وان داؤد وآدم سميا بأسم خليفة اذ كان كل منهما على الارض نائباً عن الله في هداية الناس وانذارهم بما أمر الله. ان هذا التفسير لمعنى الآيتين يصدق على الانبياء ولايصدق على الخلفاء لعدم صلتهم بالنبوة، فقد انكر ابو بكر تسميته بها وقال (لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله) (٨) .

---

(١) سورة النور . آية ٥٥ .
(٢) سورة الانعام . آية ١٦٥ .
(٣) سورة الاعراف . آية ٦٩ .
(٤) سورة الاعراف . آية ٧٤
(٥) سورة (ص) آية ٢٦ .
(٦) سورة البقرة . آية ٣٠ .
(٧) ارنولد : الخلافة ص٣١ .
(٨) ابن خلدون : المقدمة ص١٦٦ طبع بيروت ١٩٠٠م.

والخلافه اصطلاحاً: — (هي رياسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي وعقدها لمن يقوم بها في الامة واجب بالاجماع ، (١) وهي كما وصفها ابن خلدون (٢) هي (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها، اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الاخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به) ولقب الخليفة يؤكد اتصال الخليفة بسيرة الرسول فتبرز حقه في طاعة المؤمنين له (٣)

اما لقب امير المؤمنين : فيشير البعض إلى أن عمر بن الخطاب امر أن يلقب به ومعنى هذا ان المؤمنين قد استحالوا إلى قوة وان عمر صار اميراً لهذه القوة لان (الامير) عند العرب يقصد به (قائد الجيش)وكان هذا اللقب يتماشى مع عهد الفتوح لما في هذا اللفظ من معنى السلطتين (الحربية والادارية) (٤) .

ويؤيد ارنولد (٥) ذلك بقوله (ان لقب أمير المؤمنين يدل على تقلد الخليفة السلطان كسيد اعلى في الحرب ورئيس للادارة المدنية).

أما لقب (الامام) فلقد لقب به الخليفة احياناً وهذه اللفظة تتمثل فيها الصفة الدينية من حيث الامامة في الصلاة ويؤيد ذلك ارنولد (٦) بقوله (واما لقب الامام فيوضح الفعالية الدينية لرئيس الدولة لقيامه بوظيفة دينية محدودة) ولذلك نرى ان الشيعة يستعملون هذا اللفظ لانهم يعتقدون ان لافراد البيت

---

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص٥ .
(٢) ابن خلدون المقدمة ص١٦٦ .
(٣) ارنولد : الخلافة ص٢٧ .
(٤) حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ص٢٠
(٥) ارنولد : الخلافة ص٢٧ .
(٦) المصدر السابق ص٢٧ .

العلوي قوة الهية مقدسة (١) ويقول ابن خلدون (٢) (واطلق شيعة علي عليه لقب الامام تأكيداً لسلطته الدينية حتى يؤم المسلمين في الصلاة) .

وقد ورد لفظ امام في القرآن بمعنى الرئيس او الزعيم (وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات) (٣) كما وردت اللفظة في القرآن مفردة ومجموعة (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال: اني جاعلك للناس اماماً)(٤) (وقوله) (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) (٥). وقوله تعالى : (واجعلنا للمتقين اماما) (٦)

ويرى بعض الكتاب (٧) ان لفظ الامام هوأقرب إلى روح الشرع الاسلامي فيما تطور من نظمه السياسية لان كل مافي الاسلام من التشريع السياسي وغيره خاضع لنظام النبوة اقتداء به لا ارثاً له ولهذا كان الخلفاء يحافظون على وظيفة الامامة في الصلاة .

حقوق وواجبات الخليفة :

فيما يخص حقوق الخليفة وواجباته تجاه الرعية فقد كتب البعض من الفقهاء فيما كتبوا في موضوع النظريات السياسية في الاسلام ، ويعتبر القاضي أبو يوسف(٨) والماوردي (٩) وابو يعلى (١٠) في طليعة الكتاب الذين تناولوا النظم السياسية في الدولة الاسلامية فقد اكدوا فيما يخص حقوق ألامام على وجوب طاعة الفرد له مستندين في ذلك إلى آيات من القرآن (واطيعوا الله والرسول

---

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٢١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص١٧٩ — ١٨٠ .

(٣) سورة الانبياء ٢١ : ٧٣ .

(٤) سورة البقرة آية ١٢٤.

(٥) سورة القصص ، اية ٥ .

(٦) سورة الفرقان ، اية ٧٤ .

(٧) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٢٩٠ .

(٨) ابو يوسف كتابه الخراج .

(٩) الماوردي ، في كتابه الاحكام السلطانية

(١٠) أبو يعلي ، في كتابه الاحكام السلطانية

واولي الامر منكم) والى احاديث عن الرسول (ايها الناس اتقوا الله واسمعوا واطيعوا وان امر عليكم عبد جبشي اجدع فاسمعوا له واطيعوا) (من اطاعني فقد اطاع الله ومن اطاع الامام فقد اطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى الامام فقد عصاني) (١)

وقال الامام الرضا في وجوب طاعة الفرد للامام بقوله (الناس عبيد لنا في الطاعة موال لنا في الدين فليبلغ الشاهد الغائب) (٢)

اما فيما يخص واجبات الخليفة تجاه الرعية : فقد كتب ابو يوسف يحذر الخليفة من عاقبة اهماله للرعية بقوله : فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي بها حقها منك ويضيعك — بما اضعت — اجرك ... وانما لك من عملك ماعملت فيمن ولاك الله امره .... فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله امره ... ولاتغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ... ان الله جعل ولاة الامر خلفاء في ارضه وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما اظلم عليهم من الامور .... وما اشتبه من الحقوق ....(٣) ويوجب ابو يوسف على الامام تطبيق العدل ويذكره بيوم الحساب مستندا إلى ماروي عن الرسول (ان من احب الناس إلي واقربهم مني مجلساً يوم القيامة امام عادل وان ابغض الناس إلي يوم القيامة واشدهم عذاباً امام جائر)ويستند بشواهد من خطبة عمر بن الخطاب قوله :(انما علينا ان نأمركم بما امركم الله به من طاعته وان ننهاكم عما نهاكم الله فيه من معصيته وان نقيم امر الله في قريب الناس وبعيدهم ولا نبالي على من كان الحق) (٤) .

نشأة نظام الخلافة وتطوره خلال عصر الراشدين :

لقد واجه المسلمون بعد وفاة الرسول صدمة كبيرة ، وشعروا بالحاجة إلى رئيس يتولى امرهم لاسيما وان الرسول لم يضع نظاماً سياسياً ليسير عليه المسلمون من بعده ، ولم يحدد شكل الحكم وصفات الحاكم . ويؤكد

---

(١) ابو يوسف : الخراج ، ص٩

(٢) الكافي : كتاب الاصول ، ص٨٨ طبع فارس ١٢٨١هـ .

(٣) ابو يوسف ، الخراج ص٥ .

(٤) الدوري : النظم الاسلامية ، ص٧٣

ارنولد (١) ذلك بقوله : ومن العبث ان تتحرى لماذا اهمل الرسول (نظام الحكم) رغم عبقريته في التنظيم ولم يحتط لمستقبل المسلمين ومن المحتمل انه أدرك قوة الشعور القبلي العربي الذي لايعترف بمبدأ الوراثة في اشكال حياته السياسية البدائية بل كان يترك لاعضاء القبيلة امر انتقاء اميرهم الخاص .

ويعلل الملاح (٢) عدم وضع الرسول نظام سياسي لادارة الدولة الاسلامية بقوله : ان الرسول لم يتسلم سلطته السياسية بصفته الشخصية ، وانما بصفته رسول الله .... ولما كانت صفة الرسالة او النبوة قد انتهت بوفاته لانه خاتم الانبياء وان النبوة لاتورث فتكون السلطة السياسية المنبثقة عنها هي الاخرى غير قابلة للوراثة او التصرف وتعود بوفاة صاحبها الى اصحابها الاصليين وهم ابناء الامة ليختاروا من يولونه امورهم السياسية طبقاً لما استقر في مجتمعهم من عرف وتقاليد في هذا المجال ويؤيد ذلك ما أكده القرآن (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) (٣).

لقد اوضح ابو بكر في خطابه للمسلمين الحاجة الملحة إلى زعيم يحفظ كيان الأمة فقال : (لابد لكم من رجل يلي امركم ويصلي بكم ويقاتل عدوكم) (٤) وأختلفوا فيمن يتولى هذه المهمة الخطيرة،وفي الساعات الاولى بعد وفاة النبي ظهرت اختلافات المسلمين السياسية وبرزت الكتل والأحزاب،وأخذت كل منها تطرح مرشيحها ، وتستند بحجج في حقها في الزعامة . فأنقسموا أول الأمر إلى كتلتين المهاجرين والأنصار . فالمهاجرون أشاروا بحججهم إلى أسبقيتهم إلى الاسلام وفضلهم في سبيله وانهم أهل الرسول وعشيرته فانقسم ا على أنفسهم إلى فريقين مثل الفريق الأول بنو هاشم الذين رشحوا علي بن أبي طالب لرئاسة

---

(١) ارنولد : : الخلافة ص١٤ .

(٢) هاشم الملاح : اساليب تداول السلطة في الدولة العربية الاسلامية ، مجلة آداب الرافدين/ العدد السابع ١٩٧٦ .

(٣) سورة الاحزاب ، اية ٤٠ .

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج١ص٣٢ مطبعة النيل القاهرة ١٩٠٤ .

الامة وأحتجوا بقرابتهم من الرسول ولسبقه في الاسلام وفضله وبرز هذا الانقسام بعد تولية أبي بكر الخلافة ، أما الفريق الثاني وهم عامة قريش من المهاجرين وكان أبرزهم عمر بن الخطاب وابو بكر وأحتجوا بأنهم أسبق الناس إلى تصديق الرسول وفضلهم كما احتجوا لدى الانصار بمكانة قريش بين القبائل فقال عمر بن الخطاب مخاطباً المسلمين في السقيفة (والله لاترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لاتمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورها منهم ... من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته ..) (١)

أما الكتلة الثانية فهم الأنصار الذين احتجوا بموقفهم من المسلمين عند الهجرة وبعدها وفضلهم على الاسلام والمسلمين وانهم الذين آووا المسلمين واعتز الاسلام بهم ولكنهم كانوا منقسمين أيضاً إلى فريقين الأوس والخزرج . وكل فريق له مرشحه واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة فمرشح الخزرج زعيمهم سعد ابن عبادة ولكن موقف الأوس المعارض منهم أضعف من مطالبتهم بالرئاسة إذ كان بين الفريقين قبل الاسلام حروب ومنازعات فعبروا عن مخاوفهم من زعامة الخزرج بقولهم (والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة الا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر) (٢) . بدأ الخلاف يتخذ صورته الحاسمة في سقيفة بني ساعدة في الوقت الذي كان علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبدالله في بيت فاطمة لتجهيز الرسول ودفنه انحاز بقية المهاجرين الى أبي بكر (٣) . والذين اجتمعوا مع الأنصار في سقيفة بني ساعدة رشح كل فريق مرشحه وبرز من هؤلاء الفرق الأربعة فريقان خاضا غمار المناقشات السياسية في اجتماع السقيفة ، المهاجرون بزعامة أبي بكر وعمر وابو عبيدة بن الجراح ، والأنصار بزعامة سعد بن عبادة

(١) الطبري ، ج٣ص٢٠٩ ابن الجوزي : مناقب عمر بن الخطاب ص٣٤ — ٣٥.

(٢) الطبري : تاريخ ج٣ص٢٠٩ ، المطبعة الحسينية .

(٣) الطبرى : تاريخ ج٣ص٢٠٨ .

سيد الخزرج . فعبرت الأنصار عن طموحاتهم السياسية في مناقشاتهم للمهاجرين بقولهم : (منا أمير ومنكم أمير) (١) فاحتج المهاجرون على لسان أبي بكر بقول النبي (الأئمة من قريش) و (قدموا قريشاً ولاتقدموها) فاقلعوا عن التفرد بها (الامارة) ورجعوا عن المشاركة ورضوا بقوله : (نحن الامراء وانتم الوزراء) (٢) .

إن صحت هذه الرواية فانها تنفي حقيقة ترك الرسول للامة في اختيار زعيمها ولاستحال معه الشوري والانتخاب وهو يتنافى مع ماجاء في القرآن (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ومع ماوصفه الرسول من تقييم للرجال في قوله) (لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) وقوله (ولو أمر عليكم عبد حبشي أجدع فاسمعوا له واطيعوا) كما لم ترد مثل هذه الأحاديث ضمن خطبة أبي بكر سواء في السقيفة او المسجد ، ولافي خطب عمر بن الخطاب أو في خطب غيره من الراشدين، وان هذه الرواية لم نجد لها اصلا في الصحيح من أحاديث الرسول بهذا النص ، كما ان كلمة (امام) أو (الأئمة) الواردة في هذا الحديث لم تعرف بلغة ذلك العهد كعلم على خليفة النبي ، بل هو اصطلاح على امام الصلاة فحسب ، وهذا يدل على عدم وجود نصوص تفيد الخلافة في قبيلة أو بيت أو اسرة (٣)

وقد تمخض اجتماع السقيفة عن تغلب راي المهاجرين وحججهم ، فبايعوا أبا بكر بالخلافة وقد ظلت الشوري كمبدأ في بيعة الخليفة طوال دولة الراشدين ، كما أوجدت السقيفة مبدأ الانتخاب المباشر لأصلح الموجودين من كبار الصحابة ، واثبت سنة البيعة (المصافحة باليد) وهي علاقة الرضا والقبول

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ص١٠١٦

(٢) الماوردي : الاحكام ص٢٦ ، ابن خلدون : المقدمة ، ص١٥٣ .

(٣) عبدالحميد بخيت : عصر الخلفاء الراشدين ، ص٥١ وما بعدها .

بامارة المنتخب، وظل هذا المبدأ من مراسيم الخلافة (١) .وفي اليوم الثاني لاجتماع السقيفة بايع الناس أبا بكر في المسجد ، واصبحت من مراسيم الخلافة أن يبايع الخليفة بعد اختياره وسميت البيعة الخاصة) والبيعة الثانية في المسجد بالبيعة العامة .

ويرى بعض الصحابة أن الرسول لما رشح أبا بكر ليصلي بالناس حين قال : (مروا أبا بكر فليصل بالناس) قالوا: (لقد رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا) (٢) ويرى ارنولد (٣) : (أن أنتداب النبي لأ بي بكر في امامة الصلاة احدى العلامات لتولية هذا المنصب بعد وفاته) . وهذه دلالة واضحة على أن الرسول لم يفضل أحداً غيره لهذا الأ مر ولو أن الرسول لم يصرح به ولم يعط أي اشارة لأ مر خلافته له ، وكذلك مرافقته للرسول في حياته وهجرته وفيه نزل قوله تعالى : (الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) (٤). ولكونه أيضاً والد زوجة الرسول عائشة (٥) .

ويرى الدوري (٦). أن لشيخوخة أبي بكر أثراً مهماً في انتخابه فحين احتج علي بن أبي طالب على البيعة لأ بي بكر أجابه أبو عبيدة بن الجراح (ياابن العم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالامور) (٧) .

وكان انتخاب أبي بكر انتصاراً لنظام الانتخاب الحر في اختيار الخليفة ، وينسجم مع التقاليد القبلية التي تؤكد على اختيار الشيخ لسنه وخدماته ونفوذه

(١) عبدالحميد بخيت : عصر الخلفاء الراشدين ص٤٢ وما بعدها
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٣ص١٨٣ .
(٣) ارنولد : الخلافة ص٢٥ .
(٤) سورة التوبة ٩ : ٤٩ .
(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج٢ص٧٧
(٦) الدوري : النظم الاسلامية ص٢٦ ومابعدها .
(٧) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج١ص١٩

وصارت من مراسيم الخلافة أن يختار الخليفة من أهل الشورى ويتم اختياره بالانتخاب ويقتصر الانتخاب على العاصمة فقط . واصبحت هذه الامور من القواعد المهمة في نظرية الخلافة عند أهل السنة (١) وبعد اختيار الخلف كان يقسم الحاضرون يمين الولاء له واحداً إثر الآخر مصافحين إياه باليد (٢).

وبعد أن تولى أبو بكر الخلافة خطب بالمسلمين في المسجد موضحاً سياسته ونهجه في الحكم ومسؤولياته تجاه المسلمين قائلا : أما بعد: (أيها الناس ، فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فاعينوني ، وان أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعف فيكم قوي عندي حتى أرجع اليه حقه إن شاءالله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لايدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولاتشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ماأطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) (٣) .

واصبحت الخطبة ايضاً من التقاليد السياسية للخليفة عند توليه زعامة الامة ومما تجب الاشارة اليه ماذكره بعض المؤرخين عن وجود خلاف شديد وقطيعة بين علي وابي بكر وان علياً وفاطمة وبني هاشم لم يبايعوا ابا بكر بالخلافة حتى وفاة فاطمة بعد ستة اشهر من خلافته(٤) بينما يذكر الطبري(٥): ان علياً بايع أبا بكر بالخلافة ولم يتخلف أحد من بني هاشم عن مبايعته، وكان علي إلى جانب ابي بكر في حروب الردة حيث يقود فرقة الانقاب مع الزبير وابن مسعود. كما ان علياً بايع فيما بعد عمر بن الخطاب ووقف إلى جانبه وصاهره عمر فتزوج ام كلثوم ابنه علي من فاطمة ولم

(١) الدوري : النظم ص٢٨ .

(٢) ارنولد : الخلافة ص٨ .

(٣) الطبري، ج٣ ص ٢٠٣، ابن هشام: السيرة ج٤ ص ٣١١

(٤) ابن الربيع: تيسير الوصول ج٢ ص ٤٦ ٤٧، المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٣٠٧ - ٣٠٨.

(٥) الطبري، ج٣ ص٢٠١ وما بعدها

يخذل علي عثمان بل اعانه ودافع عنه (١) وهذا يوضح تفاني علي ودفاعه عن الاسلام وتعاونه مع زعماء المسلمين .

خلافة عمر بن الخطاب:

كان ابو بكر يفكر خلال فترة خلافته في مشكلة الحكم وما عساه ان يفعل ليجنب المسلمين الفرقة لاسيما وانه واجه اثناء انتخابه طموحات الكتل السياسية التي يمثلها بعض زعماء المسلمين، ويظهر انه استقر رأيه لمعالجة الوضع بأن يعهد إلى شخص من هؤلاء الزعماء، فاستشارهم في استخلاف عمر بن الخطاب فحمدوا له ذلك حتى كأنهم انتخبوا عمر انتخاباً وكتب ابو بكر لعمر بالخلافة عهداً فقال ابو بكر مخاطباً المسلمين: (اترضون عمن استخلف عليكم؟ فأني والله ماأكون(ادخرت) من جهد الرأي ولاوليت ذا ترابة: واني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فأسمعوا له واطيعوا، فقالوا: سمعنا واطعنا ثم رفع ابو بكر يديه الى السماء قائلا: اللهم اني لم ارد بذلك الا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما انت اعلم به،واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم واقواهم عليهم واحرصهم على ما أرشدهم... فأصلح اللهم لهم ولاتهم واجعلهم من خلفائك الراشدين واصلح له رعيته ... (٢) فكان أستخلاف عمر اقرب إلى التعيين منه إلى الانتخاب. لانه كان هناك من اعترض علي اختيار عمر للخلافة فقد إبدى عبد الرحمن بن عوف تخوفه من غلظة عمر (٣).

وايد هذا الاتجاه طلحة بن عبيد الله عندما دخل على ابي بكر فقال له (استخلفت على الناس وقد رأيت مابلغت الناس منه وانت معة فكيف به اذا خلا بهم وانت لاق ربك فسألك عن رعيتك فقال ابو بكر لطلحة: ابا لله

(١) المصدر السابق جـ٣ ص٢٢٣

(٢) الطبري: تاريخ جـ٤ ص ٦ وما بعدها.

(٣) الطبري جـ٤ ص٢١٣٧.

تخوفني ؟ اذا لقيت ربي فيسألني قلت : استخلفت على اهلك خير اهلك) (١) وربما كان هذا الاعتراض ناتجاً عن تطلعات طامحة إلى الخلافة أو أنه كان يمثل رأي المتطلعين إلى اشغال منصب الخلافة (٢) .

خلافة عثمان بن عفان :

فكر عمر بن الخطاب في مسألة الحكم من غير ان يستقر على رأي وفي رواية الطبري وابن الاثير لما طعن دخل عليه بعض الصحابة فقالوا له: (ياأمير المؤمنين لو استخلفت فقال لهم: لوكان ابو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فأن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: انه أمين هذه الامة . ولو كان سالم . مولى ابي حذيفة حياً لاستخلفته فأن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول : (ان سالماً شديد الحب لله) . يتبين من هذه الرواية ان عمر كان ميالا إلى العهد في اختيار الخليفة الذي يثق به ويطمئن إلى نجحه بدليل الاشارة إلى أبي عبيدة وسالم كما دعا عبد الرحمن بن عوف ليعهد اليه بالخلافة ويبدو ان زهد عبد الرحمن وعدم ميله للسياسة وتحمل مسؤولية اوالدولة الاسلامية جعل عمر يعهد إلى الزعماء الستة بأختيار الخليفة من بينهم يتبين ان عمر لم يكن ميالا إلى اختيار واحد من الستة فلو كان يطمئن الى حدهم لعهد اليه بالخلافة قبل موته وبدليل تكملة رواية الطبري ان قالوا له. لوعهدت عهداً فقال عليكم هؤلاء الرهط الذين مات رسول الله وهوعنهم راض وهم: علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن عوف، الزبير ابن العوام ، وطلحة بن عبيد الله. وهؤلاء هم أهل الشورى (٣). واوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار من الفريق الذي في صفة عبدالله بن عمر في حالة تساوي الأصوات فأن لم يرضوا بحكم عبدالله بن

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ٢١٤٣.

(٢) هاشم الملاح : أساليب تداول السلطة ص١٨، مجلة آداب الرافدين/ العدد السابع ١٩٧٦.

(٣) الطبري : تاريخ جـ٥ ص٣٤، ابن الاثير : الكامل جـ٣ ص٣٦.

عمر فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس (١) . ودعاهم عمر بن الخطاب وقال لهم : (اني وجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر (الخلافة) إلا فيكم (٢) . وحذرهم من الاختلاف فيما بينهم بقوله : (أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس) (٣) .

وبعد وفاة عمر لم يصل الزعماء الستة إلى اتفاق ،واحتدم التنافس بينهم فحاول عبد الرحمن بن عوف — بعد أن خلع نفسه — أن يجعل اتباع سياسة أبي بكر وعمر أساساً للترشيح ، فدعا علياً وقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده فقال علي : (علي الاجتهاد) في حين أن عثمان أقسم لعبد الرحمن بن عوف الا يخالف سيرة الرسول وأبي بكر وعمر في شيء ولايقعد عنها (٤) . ومما ساعد على اختيار عثمان الدعاية الواسعة التي قام بها بنو أمية ، فيروي الطبري (٥) : أن عبد الرحمن ابن عوف استشار اشراف الناس وامراء الأجناد وكان لايخلو برجل إلا أشار عليه بعثمان ، ثم أنه دار متنكراً فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم الا سألهم واستشارهم فلم يلق أحداً يستشيره ويسأله الا ويقول عثمان (٦) .

وروى الطبري وابن الأثير عن علي نفسه قوله (٧) : على تولية عثمان وذكر بأن عبدالرحمن بن عوف صهره ، وسعد بن أبي وقاص من أقربائه ، واصهاره للنبي في إبنتيه رقية وأم كلثوم وسابقته في الاسلام . وقد وجد علي نفسه مضطراً لمبايعة عثمان كما بايع من قبل أبا بكر وعمر (٨) .

(١) الطبري: تاريخ جـ٥ ص٣٤ — ٣٥
(٢)، (٣)الطبري جـ٥ ص٣٥ ٥٤، البلاذري انساب الاشراف جـ٥ ص١٥ — ١٦، ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ١ ص١٩.
(٤) البلاذري: انساب الاشراف، جـ٥ ص٢٢.
(٥) الطبري: تاريخ جـ٥ ص٣٦
(٦) ابن قتيبة: الامامة جـ١ ص٤٢
(٧) الطبري جـ٥ ص٣٨، ابن الاثير: الكامل جـ٣ ص٣٥ — ٣٨
(٨) البلاذري: انساب الاشراف ص ٣٥٤.

ولي عثمان الخلافة والمسلمون منقسمون على أنفسهم إلى حزبين كبيرين ، أمويين وهاشميين ولم يستطع ايجاد التوازن بين هذه الأحزاب الاسلامية ولم يوفق في ترضية امراء الاقاليم وكثير من المهاجرين والانصار لاهمالهم ولاسناد مناصب الدولة إلى ذوي قرابته من الأمويين (١) ويوضح البلاذري (٢) طبيعة حكم عثمان بقوله ـ لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة أميراً فمكث ست سنين لاينقم الناس عليه شيئاً . وأنه لأحب إلى قريش من عمر لشدة عمر ولين عثمان لهم ... ثم توانى في أمرهم واستعمل أقاربه وأهل بيته في الست الاواخر واهملهم وكتب لمروان بن الحكم بخمس أفريقيا ، وأعطى أقاربه المال وتأول في الصلة التي أمر الله بها واتخذ الأموال واستسلف من بيت المال مالا وقال : إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ماكان لهما واني آخذه فأصل به ذوى رحمي فأنكر الناس ذلك عليه .

ويبدو أن البلاذري أشار إلى الاتهامات التي وجهها الثوار لعثمان ولم يشر إلى دفاع عثمان عن نفسه والرد على اتهامات الثوار والتي أشار اليها الطبرى (٣) بقوله جمع عثمان مسلمي المدينة وخطب فيهم قائلا :(إن هؤلاء (أى زعماء الأمصار أو الثوار) ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذى علمتم الا أنهم زعموا أنهم يذاكرون فيها ليوجبوها علي عند من لايعلم وقالوا : مالي من بعير غير راحلتين لحجي ، وقالوا ، اني لأعطيت أبن أبي سرح ماأفاء الله عليه واني انما غفلته خمس ماأفاء الله عليه من الخمس وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند انهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذاك لهم ، وقالوا : اني احب اهل بيتي واعطيهم فاما حبي فانه لم يحمل معهم على جور بل احمل الحقوق عليهم ، واما عطاؤهم فاني اعطيهم من مالي ولا استحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس ...) .

---

(١) حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية ص ٣٥٤.
(٢) البلاذري: انساب الاشراف، جـ٥ ص٢٥
(٣) الطبري: تاريخ جـ٤ ص٣٤٧ – ٣٤٨

ويرى بعض المؤرخين أن من أهم أسباب الفتنة على عثمان هو عزله عمال عمر وتوليه بدلهم أقاربه فعزل المغيرة بن شعبة عن ولاية العراق وولي مكانه عبدالله بن عامر ، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولي بدله عبدالله بن سعد ، وجعل معاوية بن أبي سفيان منفرداً بأجناد الشام ، وبذلك لم يكن للمهاجرين أمر مهم في الدولة التي قامت بسيوفهم وتضحياتهم (١). كما أن بعض القبائل كرهت الحكم المركزي ووجود التباين الاقتصادي والنزعة الأقليمية(٢). فثار عليه بعض رجال الأمصار من الكوفة والبصرة ومصر وسارو الى المدينة وحاطو. ببيت عثمان مطالبين إياه بالتخلي عن الخلافة فلما رفض قتلوه (٣).

وكان جديراً بعثمان أن يعمل بوصية عبد الرحمن بن عوف الذي أخذ عليه الميثاق الا يحمل بني أمية على رقاب الناس (٤). وان يسير بالناس سيرة أبي بكر وعمر.

ويعلق فلها وزن (٥): على خطورة اسلوب التخلص من عثمان ويعتبرها حادثاً حاسماً لايكاد يدانيه في خطره حادث آخر في التأريخ الاسلامي فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في رئاسة الحكومة الثيوقراطية، وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك أبداً انسداداً تاماً. كما سنرى ذلك في خلافة علي—

خلافة علي أبن أبي طالب

لما قتل عثمان اجتمع من بقي من الصحابة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فأتوا علياً وقالوا له: أنه لابد للناس من رئيس... وإنا لانعلم أحداً أحق به منك، وكان علي من السابقين

(١) بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص ٢١٩.
(٢) الدوري: النظم ص ٣٤
(٣) ابن الاثير: الكامل جـ٣ ص٨٥
(٤) البلاذري: انساب الاشراف، جـ٥ ص٢٢
(٥) فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص٥٠

في الاسلام بالاضافة الى قرابته من الرسول وهوزوج ابنته فاطمة، وقد لازم الخلفاء السابقين فكان أبو بكر وعمر يستشيرانه ولايعملان عملاً إلا بمشورته لما عهدا فيه من الدين والفقه والفطنة والذكاء.

ولما استقرت البيعة لعلي شرع لمعالجة عوامل الشكوى والنقمة فبدأ بأزالة عوامل الشكوى في الأمصار الاسلامية، وحث الثوار علياً على عزل العمال الذين عينهم عثمان فاذعنوا جميعاً الا معاوية في الشام الذي علق على المنبر قميص عثمان (١). ووجد علي ان حسم المشكلة تكمن في عزلهم جميعاً فعزلهم ليبدأ حياة جديدة مع عمال يطمئن اليهم وليسكن الفتنة (٢). وقد نصحه بعض الصحابة بابقائهم في مناصبهم ريثما تهدأ الأحوال وتستقر الامور ، وقد ترك عزل العمال آثاراً خطيرة دفع بعضاً من المؤرخين إلى القول بأن علياً كان ينقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحنكة السياسية (٣) . إلا أن معاوية رفض قرار العزل ولم ينفذه معتمداً على تأييد عرب الشام له، وأدى هذا الموقف إلى احتدام المنازعات بين علي ومعاوية وانتهت بقيام الحرب بينهما واستخدام معاوية وعمرو بن العاص اسلوب الخدع العسكرية لاشاعة الفرقة بين جند علي بطلبه التحكيم وأدى ذلك إلى ظهور الخوارج كحركة سياسية جديدة على المسرح السياسي في الدولة الاسلامية ، انتقدت موقف علي في التحكيم مما اضطر علياً إلى قتالهم في النهروان دفعتهم النقمة عليه فنجحوا في قتله في مسجد الكوفة في شهر رمضان سنة ٤٠ هـ ، وبمصرعه انتهت خلافة الراشدين وخلا الجو لمعاوية ليعلن خلافته بالشام (٤) .

ولعل هناك سبباً آخر ساعد معاوية على تمسكه بالمطالبة بالخلافة هو انتقال مركز الخلافة الاسلامية من المدينة إلى الكوفة في خلافة علي مما أعطى الشرعية لمعاوية في اعلان نفسه خليفة للمسلمين في دمشق .

---

(١) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج١ ص١٣٣

(٢) بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص ٢٤٦

(٣) Nicbolson Amaynold : Literary History of thd Arabs P. 191.

(٣) ابن الاثير: الكامل ج٣ ص١٣٨، ص١٨٠، ص١٩٦ ص١٩٨

ومما تجب ملاحظته في نظام الخلافة في عصر الراشدين أن لها صفة جمهورية لاتعتمد على الوراثة وإنما تستندالىنوع من الانتخاب وانها تمتزج فيها التقاليد العربية بالروح الاسلامية ففكرة الانتخاب مأخوذة من التقاليد العربية ، وفكرة استناد الخليفة إلى موافقة الناس عليه لا إلى اسرته وقبيلته مأخوذة من الاسلام ثم أن فكرة كون مصدر السلطة الهيا وضرورة بيان رأي الأمة — التي لاتجتمع على ضلال — في المرشح فكرة اسلامية (١).

الخلافة في العصر الاموي :

ولما استشهد علي وقبل أن يتوفاه الله دخل عليه جندب بن عبدالله فقال له : ياأمير المؤمنين أرايت إن فقدناك — ولانفقدك — انبايع الحسن ؟ فقال لاآمركم ولاأنهاكم وانتم باموركم ابصر (٢) فبويع الحسن بالخلافة في ٢١ من رمضان سنة ٤٠ هـ ولكن الحسن كان كارهاً لهذا الأمر راغباً في جمع كلمة المسلمين فتنازل عن الخلافة لمعاويـــــة طيلـــة حياتـــه (٣) ويروي اليعقوبي (٤) سبب ذلك ان ألحسن آثر حقن دماء المسلمين ، وسلك طريق المفاوضات . ويرى الطوسي (٥) أن تنازل الحسن ولجوءه إلى التسليم لأنه مغلوب مقهور وقد سبب تنازل الحسن عن الخلافة وموادعة معاوية واخذ منه المال الذي بعث به اليه معاوية على الصلح ان أزور عنه شرذمة وطعنوا فيه وخالفوه ورجموا عنه امامته وشكوا فيها (٦).

ومهما يكن من أمر التنازل يبدو أن الحسن لم يكن ميالا إلى السياسة ولذلك لم يكن مهتماً بالخلافة ولا في حصرها في آل علي لعدم آيمانه بشرعية الوراثة في الحكم .

(١) الدوري: النظم ص ٣٤
(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص٤٢
(٣) بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص٣١٩
(٤) اليعقوبي: تاريخ جـ٢ ص٢٥٦
(٥) الطوسي: تلخيص الشافي، جـ٤ ص١٧٨
(٦) سعد القمي: المقالات والفرق ص ٢٣

ويرى بعض من المؤرخين (١) أن مبايعة الكوفيين للحسن تأكيد لمبدأ الوراثة الذي أصبح فيما بعد مبدأ من مبادىء العقيدة العاوية . كما أن الامويين حرصوا أيضاً على جعل الخلافة في بني أُمية . فقد استطاع معاوية ان يحصر الملك في أسرته تجنباً للفتن ومشكلات الخلافة التي كانت تحدث عند موت كل خليفة فاستحدث في النظم السياسية الاسلامية تقليداً جديداً هو نظام الوراثة غيرّ به سنة السلف ، وتشبه بملوك الفرس والروم وحول الخلافة إلى (ملك كسروى وعصب قيصري) (٢) وقيل ان المغيرة بن شعبة أشار على معاوية بذلك وقال له :(قد رأيت ماكان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان) (٣) وقد أثار بعمله هذا سخط بعض الامويين ففد احتج مروان بن الحكم على البيعة ليزيد بقوله : (جئتم بها هرقلية تبايعون لابنائكم) (٤) وسخط على معاوية أصحاب المبدأ الاسلامي لان مبدأ الوراثة ينافي مبادىء الاسلام التي لاتعد السلطة ملكاً بشرياً وإنما وظيفة دينية مقدسة ولذا لايمكن أن يورثها الخليفة لمن شاء (٥)

ان العصر الاموي كان بداية لادخال الوراثة في النظام السياسي للدولة الاسلامية وقد استند الخليفة في تدعيم نفوذه على القبائل لان الخلفاء الامويين راعوا التقاليد القبلية وضربوا التقاليد الاسلامية من انتخاب وغيرها عرض الحائط ، واعتبرت الخلافة من وجهة نظر الفقهاء ملكاً دنيوياً واعطت للحركات الثورية ضد الحكم الاموي الشرعية في القضاء عليه واسقاطه .

الخلافة في العصور ألعباسية :

اخذت العناصر المناوئة للخلافة الاموية تعمل في السر والعلانية على اسقاط الدولة الاموية وفي طليعتها العلويون الذين مافتئوا يعلنون أن الامويين ظالمون.

---

(١) الدوري : النظم ص٣٧

(٢) الجاحظ : رسالة في معاوية والأمويين ص١٦ صححها ونشرها عزة العطار القاهرة ١٣٦٥هـ

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج٣ ص٢٥٢ ، ابن قتيبة ج١ ص ٢٦٠

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج١ ص٢٧٧

(٥) Ellhousen, The Arab Kingdom and its fall P. 110

اغتصبوا الخلافة من مستحقيها ، كما نقم بنو عمومتهم من العباسيين على الامويين لشعورهم بان الخلافة حق شرعي في آل بيت الرسول ، وقد انضم اليهم في نقمتهم على الحكم الاموي الموالي لشعورهم بان الامويين لم يساووهم بالعرب في العطاء وفي الوظائف . ووقفت العناصر الاسلامية التي ترى ان الخلافة الاموية لم تسر بموجب كتاب الله وسنة الرسول وانها صيرت الخلافة ملكاً دنيوياً يتوارثها بنو أمية

وقد طرحت المعارضة شعار الدعوه إلى الرضا من آل محمد والتي عرفت فيما بعد بالدعوة العباسية . واستطاعت هذه الدعوة أن تتغلغل في أجزاء كبيرة من الدولة الاسلامية ولم تلبث أن نجحت عام ١٣٢هـ في اسقاط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية .

لقد أثر مجيء العباسيين في تطوير نظام الخلافة فقد بنوا حقهم في حكم الامة الاسلامية على القرابة من الرسول ، واستندوا بأدلة من القرآن (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله) (١) ووعدوا الامة بالسير بموجب كتاب الله وسنة نبيه التي حاد عنها الامويون فقال داؤد بن علي عند بيعة أبي العباس مخاطباً الناس (ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فيكم بسنة رسوله) (٢) وقد حاول الخلفاء العباسيون أن يرسخوا في أذهان الناس أن الله قد اختارهم لهذه الامة ، وان الخلافة ستبقى فيهم كما جاء في قول داؤد بن علي (واعلموا أن هذا الامر فيناً ليس بخارج منا حتى نسلمة إلى عيسى بن مريم) (٣) كما أضفوا على أنفسهم صفة من القداسة وبذلك حكموا الامة استنادا إلى تفويض من الله ويتجلى ذلك في قول المنصور مخاطباً أهل مكة (ايها الناس أنما أنا سلطان الله في أرضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده ..... فارغبوا اليه وسلوه ان يوفقني للرشاد والصواب وان يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم) (٤) أضف إلى ذلك ان

---

(١) سورة الانفال آية ٧٥

(٢) الاربلي: خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٦

(٣) المصدر السابق ص٤٠

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص ٣٧٠

الخليفة أخذ يراعي المراسيم الدينية ويقرب العلماء والفقهاء ويرتدي بردة الرسول في خطب الجمع والاعياد والمناسبات الدينية .

وقد سار العباسيون على نظام الوراثة ، وغالوا فيه بتولية العهد لاكثر من واحد منذ عهد السفاح ١٣٢ — ١٣٦ ه الذي عهد بالخلافة إلى أخيه المنصور ١٣٦ — ١٥٨ ه ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى ، ولما ولي المنصور الخلافة خلع عيسى وبايع لابنه المهدي وجعل عيسى ابن موسى من بعده ، ولما ولي المهدي ١٥٨ — ١٦٩ه خلع عيسى مرة أخرى وولى ولديه الهادي والرشيد ، وعند تولية الهادي ١٦٩ — ١٧٠ه عزم على خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر ، ولما تولى الرشيد ١٧٠ - ١٩٣ ه الخلافة بعد موت الهادي المفاجىء عهد إلى أولاده الثلاثة الامين والمأمون والمعتصم ، وقسم البلاد بينهم ، فحاول الامين ١٩٣ — ١٩٨ ه خلع أخيه المأمون وتولية ابنه موسى (١)

وقد كان لنظام الوراثة والعهد لاكثر من واحد أثر كبير في إضعاف الخلافة العباسية وايجاد روح التنافر والمنافسة والمنازعات بين أفراد الاسرة العباسية بما كانت تحاك داخل قصور الخلافة العباسية من المكائد والمؤامرات التي مكنت العناصر الاجنبية أن تلعب دورها في السيطرة على الخليفة لوقوفها بجانبه كوقوف البرامكة بجانب الرشيد في محنته ونزاعه مع أخيه الهادي ووقوف الفضل بن الربيع مع الامين ، والفضل بن سهل مع المأمون ، وادت أيضاً إلى الاستبداد بالحكم والاستحواذ على الاموال كما سنرى في فترة النفوذ الفارسي والتركي والبويهي ، وادت سيطرة هذه العناصر الاجنبية على الحكم إلى انفصال كثير من الاقاليم عن الدولة العباسية وساعدت إلى حد كبير على ضعفها واسقاطها إذ لم يلاق المغول (التتر) عناء كبيراً في احتلالهم بغداد سنة ٦٥٦ه — ١٢٥٨ م وقضائهم على الخلافة العباسية .

---

(١) حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية ص٦٧

١ ــ الخلافة في ظل النفوذ الفارسي : ١٣٢ ــ ٤٢٧هـ

قاوم الموالي الفرس السياسة العربية التي انتهجتها الخلافة الاموية وساندوا كل حركة ثورية ترمي إلى القضاء على الخلافة الأموية ليصبحوا عمادها وأصحاب النفوذ الحقيقي فيها ، فلما ظهرت الدعوة العباسية في خراسان التي كانت مركزاً للعناصر الفارسية المتطرفة في عدائها للعرب عامة ولبني أمية خاصة ــ التفوا حول الدعوة وكان لهم دور في انجاحها وفي قيام الدولة العباسية عبر عن ذلك داؤد بن علي العباسي في خطبته التي ألقاها في الكوفة يوم بيعة أبي العباس بالخلافة فقال : (ياأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا من أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وابلج بهم حجتنا واظهر بهم دولتنا) (١) .

ولم يجد العباسيون بداً من اشتراك الفرس في السلطة من وزارة وامارة وقيادة ودواوين حتى قال الجاحظ (ان دولة بني أمية عربية ودولة بني العباس أعجمية) (٢) ولذا لم يكن عجباً أن تأثر خلفاء بني اا ن بعد مشاركة الفرس لهم في الحكم بأنظمة الاكاسرة فقد استخدمت بلاط الخلفاء مراسيمهم وظهر الطابع الفارسي في الحكم وتضاءلت التقاليد العربية في الادارة والسياسة وحلت محلها النظم الفارسية السياسية والاجتماعية (٣) . كما تأثر الخلفاء العباسيون بالنظرة الاستبدادية في الحكم ، يقول بالمر (لما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسي كان طبيعياً أن تسيطر عليهم الآراء الاستبدادية) (٤) ويؤيد أرلوند ذلك بقوله (ربما ورث هذا الشكل الاستبدادي في الخلافة عن الفرس ... لان هذا النوع من النظام العباسي لم يعرفه عرب الجاهلية . ولا يتفق مع روح المساوات في القران او مع نظرة المسلمين الاول (٥)

---

(١) الطبري جـ٩ ص٢٧ : ابن الاثير ، الكامل جـ٥ ص١٩٧ ــ ١٩٨.

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص٦٤.

(٣) Nicholson , Aliterary history of the Arabs p256

(٤) نقلا عن حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٦٤

(٥) نقلا عن الدوري : النظم الاسلامية ، ص٤٨

وكان أيضاً من أثر اشتراك الفرس في الحكم أن أخذ العباسيون عنهم نظام الوزارة (١) .

٢ — الخلافة في ظل النفوذ التركي : ٢٤٧ — ٣٣٤ ه

تتميز هذه الفترة ٢٤٧ — ٣٣٤ ه بظهور عنصر أجنبي جديد كان له أثر عميق في مركز الخلافة ومكانة الخليفة ، إذ حدثت تغييرات خطيرة في نظام الخلافة عندما تسلط الاتراك على الحكم في الدولة العباسية ، وترك تعاظم نفوذهم آثاراً سيئة في وضع الخلفاء العباسيين ، وذلك لان الاتراك لم تكن لهم تقاليد حضرية أو ادراك في الشؤون السياسية والادارية .

وقد امتازت فترة النفوذ التركي بتدخلهم في اختيار الخلفاء وعزلهم ، وفي توجيه سياسة الدولة حسب رغباتهم واستخدموا في سبيل ذلك كل أساليب العنف تجاه الخليفة من قتل وسمل وتعذيب وحجر وما إلى ذلك .

يعتبر عصر المعتصم ٢١٨ — ٢٢٧ ه = ٨٣٣ - ٨٤٢م بداية النفوذ التركي في الدولة العباسية فقد كان يحب جمع الاتراك وشراءهم من أيدي مواليهم حتى أنه البسهم الديباج والمناطق الذهبية والحلية وابانهم بالزي عن سائر جنوده (٢) وكثر عددهم وقويت شكيمتهم حتى بلغ عددهم سبعين ألفاً (٣) .

وكان هؤلاء الاتراك قد قدموا من فرغانة واشروسنه والصفد والشاش (٤) وادت سذاجتهم وبداوتهم إلى الاستخفاف بسلطان الخليفة في العاصمة وصاروا يستهترون بارواح الناس ، وادى التغاضي عن عبث الجند الاتراك واستمرار أذاهم للناس إلى ازدياد نفوذهم واصبحوا قوة خطيرة يحسب حسابها مما اضطر المعتصم إلى نقل عاصمته من بغداد إلى سامراء فسكنها بعسكره سنة ٢٢١ ه (٥).

---

(١) اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص٣٢.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج٥ ص٩، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٢٣

(٣) الاربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٦٠، وياقوت: معجم البلدان مادة (سر من راى)

(٤) المسعودي: مروج ج٤ ص٩

(٥) اليوزبكي: الوزارة ص١٢٨

فلما ولي الواثق الخلافة ٢٢٧ - ٢٣٢ ه = ٨٤٢ - ٨٤٧ م اقتدى بابيه المعتصم في الاعتماد على الاتراك والاكثار من شرائهم واصبحت المناصب الخطيرة في الدولة بايديهم فاستخلف اشناس التركي على السلطنة والبسه تاجاً مرصعاً بالجواهر (١) .

بدأ نفوذ الخلفاء يتقلص بسبب اتساع نفوذ الاتراك في شؤون الدولة فاستبدوا بالخليفة حتى أخذوا يتدخلون في اختيار الخلفاء ووزرائهم وعزل بعضهم أحياناً .

وقد ظهر نفوذ الاتراك واضحاً في اختيار المتوكل ، الذي حاول الحد من طغيانهم إلا أنهم أخذوا يدبرون المكايد له فدخلوا عليه وقتلوه وبايعوا المنتصر بالخلافة (٢) . وكان المنتصر على حذر منهم فكان يسبهم ويلعنهم ويقول (هؤلاء قتلة الخلفاء) فرشوا طبيبه ابن طيفور بثلاثين ألف دينار ففصده بمبضع مسموم فمات (٣)

وواجه المعتز ٢٥٢ - ٢٥٥ ه خطر الاتراك فتخلص من وصيف التركي سنة ٢٥٣ ه وقتل بغا الصغير سنة ٢٥٤ ه فكان يقول (لاأستلذ بحياة مابقي بغا) (٤).

ولكن الاتراك ثاروا عليه وخلعوه ثم قتلوه (٥) . وبقي الخلفاء العباسيون العوبة بيد الاتراك إن شاءوا أبقوهم وإن شاءوا قتلوهم . حتى مجيء المعتضد للخلافة ٢٧٩ - ٢٨٩ ه والذي يعتبر عصره فترة انتعاش للخلافة ومؤسساتها الادارية واستطاع المعتضد بحزمه وشجاعته أن يقضي على خصومه وعلى الثورات والحركات الانفصالية كثورة القرامطة (٦) وقبض على وصيف الخادم وصلبه(٧).

---

(١) القرماني اخبار الدول ص١٥٧

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٤٨، الدميري: حياة الحيوان ص٩٥

(٣) المسعودي: التنبيه والاشراف ص ٣١٤، الذهبي: العبر في خبر من غبر ج٢ ص٢

(٤) ابن الاثير : الكامل ج٧ ص٧١، الذهبي: العبر ج٢ ص٥ - ٦

(٥) الفخري: ص١٩٧، ابن الاثير، ج٧، ص٦٣

(٦) ابن الاثير : ج٧، ص١٤٧، المسعودي: مروج، ج٤، ص١٨١

(٧) المسعودي: مروج الذهب، ج٤، ص١٧٨

وأشار ابن طباطبا (١) بجهود المعتضد في الدولة فقال: (ولي المعتضد والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته ، وكثرت الاموال وضبطت الثغور ، وكان قوي السياسة شديداً على أهل الفساد حاسماً لمواد أطماع عسا كره عن أذى الرعية فلما مات ترك في خزانته عشر ألف ألف دينار سنة ٢٨٩ هـ) .

اتبع المكتفي سياسة أبيه في الحد من طغيان الاتراك ، وواصل جهود أبيه في قتال القرامطة والخارجين على الدولة العباسية . وحاول التقرب من الرعية والاحسان اليها واشاعة الامن والاستقرار فلما مات دون عهد صريح ظهرت مشكلة ولي العهد فرجع نفوذ الاتراك ثانية بتدخلهم في اختيار جعفر بن المعتضد ولقبوه بالمقتدر الذي لم ترض عنه عامة الناس لصغر سنه ولتسلط نساء القصر عليه وخاصة أمه وأم موسى قهرمانة القصر وجاريته ثومال التي كانت تجلس للمظالم (٢) .

وانتهت حياة المقتدر بقتله بتدبير من الاتراك (٣) واختار القواد الاتراك محمد بن المعتضد ولقبوه القاهر بالله ٣٢٢/٣٢٠ هـ ويعتبر عهده فترة انتعاش للخلافة إذ كان شديد البطش باعدائه فهدأت الامور واستقر الامن (٤) . ولما حاول الاتراك التأكد من قوة الخليفة بمطالبتهم اياه بالاموال التي كانت عند أم المقتدر (٥) غضب القاهر فقبض على مؤنس ويلبق وابنه من زعماء الاتراك وأمر بذبحهم وطيف رؤوسهم ببغداد (٦) .
وقد لعب الوزير ابن مقلة والقادة الاتراك دوراً في الكيد للقاهر انتهت بسجنه وسمل عينيه سنة ٣٢٢هـ (٧) فاخرج الاتراك الراضي من السجن وبايعوه

(١) الفخري ص٢٠٧، ابن كثير، جـ١، ص٨٦، ابو الفدا جـ٢، ص٦٣.
(٢) اليوزبكي: الوزارة ص١٦٦
(٣) عريب: صلة الطبري، جـ١٢، ص٨٩
(٤) المسعودي: مروج الذهب، جـ٤، ص٢٢١
(٥) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٢٣٨
(٦) مسكوية: تجارب الامم، جـ١، ص٢٦١
(٧) مسكويه: تجارب الامم، جـ١ ص٣٥٠، اليوزبكي: الوزارة، ص١٩٣

بالخلافة ٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ وقد واجه الراضي تسلط الاتراك وعجز الخزينة وفساد الادارة فاضطر إلى ان يراسل محمد بن رائق وهو بواسط وطالبه بالأموال لتوفير نفقات الجند والحاشية واعلمه أنه قلده الامارة ورياسة الجيش وجعله (أمير الأمراء) وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك وبان يكنى وانفذ اليه الخلع واللواء .

كما أن الخليفة باستحداثه هذا المنصب(أمير الأمراء)فقد كل صلاحياته السياسية والمالية والعسكرية وغيرها (١) .

استفحل نفوذ أمير الأمراء منذ عهد الراضي وأخذت سلطاته تتوسع تدريجياً على حساب سلطان الخليفة فامر بذكر اسمه في خطبة الجمعة الى إلى جانب اسم الخليفة وصار من حق أمير الامراء اختيار وزير للخليفة كما اصبح بقاء الخليفة في منصبه يتوقف على رضاهم فقد وجد الاتراك في سمل عيون الخلفاء أيسر وسيلة للتخلص منهم كما حل بالقاهر والمتقي وغيرهم.
وظل قادة الاتراك يتوارثون هذا المنصب حتى انتزعه منهم البويهيون الذين سيطروا على مقاليد الامور في بغداد سنة ٣٣٤ هـ في خلافة المستكفي (٢)

٣ـ الخلافه في ظل بني بويه ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ :

ينتسب البويهيون الى الديلم (٣) الذين كانوا يسكنون الأراضي جنوب بحر الخزر (قزوين) ولما توسعت الفتوحات في خلافة عمر بن الخطاب كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون ، واحتفظوا بوثنيتهم حتى صدر الدولة العباسية حيث أستطاع الحسن بن علي الملقب بـ(الأطروش) ان ينشر الاسلام بينهم على المذهب الزيدي ، وكان مرداويج قد ملك بلاد الديلم واحبته

(١) اليوزبكي: الوزارة، ص١٩٤
(٢) المصدر السابق، ص١٩٦.
(٣) الديلم: (تسمية جغرافية للصقع الجبلي من بلاد جيلان الواقعة جنوب بحر قزوين والديلم أيضاً تسمية جنسية لمن يسكن هذا الصقع، غير أن بني بويه ليسوا من الجنس الديلمي بل هم فرس نسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم) (ابن الاثير: الكامل جـ٨ ص٩٧، الفخري ص ٢٢٤، دائرة المعارف الاسلامية مادة (ديلم).

الديلم لحسن سيرته واقبلوا عليه وكان ممن اقبل عليه ابناء بويه (١) وارتفع امرهم واصبح ابو الحسن علي بن بويه في سنه ٣٢٢ ﻫ احد قواده ثم لم يلبث ان استحوذ على املاكه و راسل الخليفة الراضي، وأراد ان يقاطعه على مابيده فاجابه الراضي وبعث اليه وزيره ابن مقلة مع الخلع واللواء، وهو اول ملوك الدولة الديلمية (٢) . وامتد نفوذ بني بويه بعد ذلك إلى الأحواز والعراق فزحف أحمد بن بويه بجيوشه إلى بغداد فدخلها سنه ٣٣٤ ﻫ وخلع عليه الخليفة المستكفي الخلع واعطاه الطواق والسوار وعقد له لواء وجعله امير الامراء ولقبه بـ (معز الدولة) ولقب اخاه ابا الحسن (بعماد الدولة) واخاه ابا علي الحسن (بركن الدولة) وامر الخليفة ان تضرب القابهم على الدينار والدرهم وان يخطب لهم على المنابر في ايام الجمع والاعياد (٣).

صحب مجيء البويهيين تدهور سياسي في الخلافة العباسية وذلك بسبب الصراع الطائفي الذي اثارته العناصر الاجنبية الدخيلة على الحكم العربي الاسلامي، فاستطاعت ان تستميل العلويين الذين سايروهم في نزعاتهم المذهبية والسياسية ضد الخلافة العباسية، وقد حملت البلاد من جراء الحكم البويهي كثيراً من الويلات والمصائب بسبب انتشار الفوضى السياسية والاجتماعية والدينية وما صحب ذلك من انتعاش النزعة الفارسية، وظهور الشعوبية وانقسام الدولة العباسية إلى دويلات مستقلة (٤) وادى كثرة الضرائب واشتداد وطأتها على الشعب إلى اضطراب الحياة الاقتصادية والأمن الداخلي، واتبع البويهيون اساليب المصادرة للحصول على الاموال حتى شملت الطبقات الفقيرة ويصف

(١) ابن الجوزي: المنتظم جـ٦ ص٢٧٠ (وكان بويه يكنى ابو شجاع، واولاده ثلاثة، أكبرهم ابو الحسن علي، وابو علي الحسن، وابو الحسين أحمد).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم جـ٦، ص٢٧١، الفخري ص ٢٢٥، المقريزي: السلوك جـ١ .

(٣) مسكويه: تجارب الامم، جـ٢ ص٨٥، ابن الجوزي: المنتظم جـ٦، ص٣٤٠ القرماني: سمط النجوم: ص١٦٩.

(٤) اليوزبكي: الوزارة، ص٢٣٠.

التوحيدي (١) حالة العراق سنة ٣٧٥ ﻫ فيقول :(انه بيت الفتن والغلاء وهو في كل يوم إلى الوراء ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء) .

ويصف لسترنج(٢) البويهيين فيقول: وكان البويهيون فرساً اصلا وشيعة عاطفة وقد دمروا العراق ، وطغى افراد عائلتهم على وظائف الحكومة الحساسة ، واصبح الامير البويهي بيده السلطة ، يسير الخلافة حسب ارائه وباسم الخليفة .

وقد وصف البيروني(٣)حالة الخلافة العباسية في ظل النفوذ البويهي بقوله(ان الدولة والملك قد انتقل في آخر ايام المتقي واول ايام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه والذي بقي في ايدي الخلافة العباسية انما هو امر ديني اعتقادي لاملك دنيوي)

ويعتبر الحكم البويهي استمراراً للسياسة التي مارسها الاتراك فقد استخدموا ايضاً اسلوب التعذيب والقتل وسمل العيون بالنسبة لخلفاء بني العباس . وحاول معز الدولة البويهي بعد خلع المستكفي وسمل عينيه وسجنه ان ينقل الخلافة إلى العلويين لاعتقاده ان العباسيين قد غصبوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث سياسي وديني يحثهم على طاعة الخليفة العباسي ، ولعل خاصة معز الدولة حذرته من مغبة تنصيب خليفة علوي بقولهم له : (انك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لفعلوه) فاعرض معز الدولة عن ذلك .

وسيطر البويهيون على السكة فجاءت النقود البويهية وعليها القابهم مع القاب الخليفة العباسي (٤).

ولم يكتف آل بويه بسيطرتهم على الخلافة والدولة بل استولوا على الاموال ايضاً ، فاستولى معز الدولة على المكوس ، واخذوا اموال الناس في غير وجهها واقطع قواده واصحابه القطائع ، فبطلت الدواوين ، واختلف حال

---

(١) ابو حيان التوحيدي: مثالب الوزيرين، ص٢٠٥

(٢) Lestrange , Bagdad During The Abbasid Caliphate

(٣) البيروني: الآثار الباقية ص١٣١

(٤) ناصر النقشبندي: الدينار العراقي، مجلة سومر م٣ ج٢ ص ٢٩٠

الفرس في العمارة ، فعظم الخراب ، وما تبعه من الغلاء والنهب ، وازدياد الظلم ، ومصادرة الرعية والحيف في الجباية ، واهمال النظر في وسائل الري كالترع والقنوات والقناطر .... واستبد معز الدولة بالسلطة دون الخليفة وتولى اعماله وجنده من الديلم اعمال العراق ، وانفرد معز الدولة بالسرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك وغيرها (١) ونتج عن ذلك اضطراب الاحوال الاقتصادية وظهور الغلاء وانتشار الوباء فاصبح الناس في بعض السنين في بغداد يأكلون الميتة والسنانير والكلاب الميتة بينما كانت الاموال من مختلف الاطراف تحمل اليهم (٢) . وقد سعى البويهيون إلى اثارة النزعات المذهبية والفوضى الدينية والاجتماعية وادى ذلك إلى وقوع العديد من الفتن في بغداد في السنوات ٣٣٨هـ ، ٣٣٩هـ . ٣٤٠هـ ، ٣٤٦هـ ، ٣٤٨هـ، وامر معز الدولة العامة في المحرم سنه ٣٥٢ هـ ان تغلق الاسواق وان يلبس النساء المسوح من الشعر ، وان يخرجن حاسرات عن وجوههن ناشرات شعورهن يلطمن وجوههن (٣) وهي من البدع الخطيرة التي ظهرت في العصر العباسي كمحاولة من البويهيين الفرس لشق وحدة الامة الاسلامية . وفي الوقت الذي كان البويهيون يشبعون رغباتهم من الاموال كانت البلاد تكابد الجوع والفقر والمرض والفتن والحروب كان الروم يهاجمون المدن الاسلامية ويحرقونها ويقتلون اهلها ، ففي سنة ٣٥٨هـ أحرقوا مدينة حمص وسبوا اهلها وفي سنة ٣٦١ هـ اغاروا على الجزيرة وديار بكر والرها ونصيبين يقتلون ويدمرون (٤) وكان العيارون والشطار ينتهبون الاموال ويحرقون الدور ويأخذون الاسواق بالجبايات ويرهبون النساء والاطفال ويقتلون الرجال(٥).

---

(١) ابن خلدون: العبر في خبر من غبر ج٣ ص ٧٧٨

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٢١٣ – ٢١٤

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٢١٣، ص٢٢١، ص٢٤٣.

(٤) المصدر السابق، ج١١ ص ٢٦٦، ص٢٧٢، ابن الاثير : الكامل ج٨ ص٢٠٤ العصامي ص٣٦٤

(٥) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج٢ ص ١٠٧ ، ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص ٤٩ . ابن الاثير : ج٩ ص١٥١، المسعودي : مروج الذهب ج٦ ص ٤٦٣ ، الذهبي : العبر ج٣ ص ٤٦- ٥٤

والخلاصه : كانت الخلافة العباسية في ظل النفوذ البويهي ضعيفة ومهانة وكان الخليفة العوبة بايديهم يولونه ويعزلونه متى شاءوا ، وقد جردوه من القابه وامتيازاته حتى انهم حذفوا لقب امير المؤمنين من الخطبة والسكة ، واكتفوا بلقب خليفة ، كما سيطروا على الخزائن والاموال ، واخذوا يخصصون له مبالغ زهيدة لنفقاته ، واعتدوا على الخلفاء بالقتل والسمل والحجر والتعذيب ، وجردوه من حق اختيار الوزراء والقواد والولاه ، واصبحت صلاحياتهم لاتتعدى الامور الدينية كتعيين القضاة وائمة المساجد وذكر اسمهم في خطب الجمع والعيدين وعلى السكة ، وقد ابقى البويهيون هذه الامتيازات للخليفة لاعتبارات دينية ولخوفهم من الرأى العام الاسلامي الذي اعتاد الخلافة العباسية . ولذا تظاهروا امام العامة باحترامهم للخليفة وكان جميع مايصدر باسمه ظاهرياً بينما لم يكن في الواقع له من الامر شيء(١)

الخلافة في الفكر الاسلامي

لقد كانت مشكلة الحكم بعد وفاة الرسول أساس الصراع السياسي ونشوء الاحزاب والفرق الاسلامية يقول الشهرستاني (أعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة) (٢) وقد نجم عن ذلك ظهور الحزب العلوي الذي أكد على مبدأ القرابة من الرسول في تولية الامامة، كماأن موقف المهاجرين من غير الهاشميين مؤكدين سابقتهم في الاسلام ،وانهم أولياء الرسول وعشيرته ،وهذه الفئة تؤيدها العناصر المستقلة المتمثلة باصحاب النزعات القبلية التي أكدت على ضرورة اختيار الخليفة بالاسلوب والصفات التي كان يختار فيها رئيس القبيلة .

ولكن مشكلة الحكم لم تنته إذا أدت الصراعات السياسية بين المسلمين إلى ظهور حزب ثالث كان له دوره الخطير في تغذية الفكر السياسي عند المسلمين وهم

---

(١) اليوزبكي: الوزارة ص ٢٤٨.
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ص ٩

الخوارج الذين ظهروا على المسرح السياسي أثر النزاع بين علي ومعاوية على الحكم، وكان قبول علي للتحكيم السبب المباشر في ظهورهم .

ومما تجب الاشارة اليه أن هذه الاحزاب والكتل الاسلامية لم تظهر مرة واحدة ولم تضع براجمها السياسية بصورة مدونة وثابتة، وانما اخذت تستقي أسس مبادئها من المصادر الاسلامية القرآن والحديث ومن تجارب الامة الاسلامية، ولما كانت هذه الاحزاب قد نشأت في مجتمع أساسه الدين فلابد لها أن تأخذ شكلا دينياً لكي تستطيع أن تكسب لها أوسع الجماهير الاسلامية .

وسنعرض للدراسة نظرة هذه الكتل والاحزاب الاسلامية إلى الخلافة :

١. نظرة أهل السنه إلى الخلافة

تناول (أقضى القضاة) (١) الماوردي (٢) في كتابه الموسوم (الاحكام السلطانية) النظم السياسية والادارية في العصور الاسلامية من خلافة ووزارة ودواوين، من وجهة النظر الاسلامية، ويصح القول أنه وضع نظرية الخلافة بما يتفق والنظرة السنية وسيرة الخلفاء التي تقول : أن الامة تقوم على الشريعة وان تطورها التاريخي يسير وفق الشريعة الاسلامية التي تتمثل في القرآن والحديث والاجماع، وان استمرار هذه النظم منوط بقوة إجماع الامة في حالة عدم تبيانها أو وضوحها في المصدرين الرئيسين اللذين هما عماد الشريعة الاسلامية (القرآن والسنة) ولما كانت الخلافة تعد أساساً للنظام السياسي الاسلامي ومظهراً لسيادة الشريعة الاسلامية وسلطانها فقد رأى أن يضع أسساً شرعية للنظم السياسية والادارية المختلفة. بدأ الماوردي في تأليف كتابه (الاحكام السلطانية) في فترة الحكم البويهي وقد أورد في مقدمته اسباب تأليفه فقال : (ولما كانت الاحكام السلطانية بولاة الامور أحق وكان امتزاجها بجميع الاحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت كتاباً امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء فماله

(١) اقضى القضاة : يعتبر هذا اللقب اقل درجة من لقب (قاضي القضاة) ياقوت : ارشاد الاريب جـ ٥ ص ٤٠٧ .

(٢) الماوردي : ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠ هـ

منها فيستوفيه وماعليه منها فيوفيه ،توخياً للعدل في تنفيذه وقضائه وتحرياً للنصفة في أخذه وعطائه (١)

ولو رجعنا إلى ماذكر عن حالة الخلافة العباسية في ظل السيطرة البويهية منذ سنة ٣٣٤ هـ، وماصحب ذلك من تحكم امراء بني بويه في اختيار الخلفاء والتخلص منهم بالاعتداء عليهم بالقتل وسمل العيون ،وانفصال بعض الولايات عن الدولة العباسية ،وماتبعه من ثورات الجند واضطراب حبل الامن في العاصمة وخارجها لوجدنا مبرراً لما أورده الماوردي ،فقد شجعت هذه النظرية التي تناولت الخلافة وحقوقها الخليفتين العباسيين القادر بالله ٤٢٢هـ وابنه القائم بالله ٤٢٤هـ على أن يأملا في استعادة قوة الخلافة وسلطان الخليفة من سيطرة البويهيين واعادة الامتيازات التي كانت للخليفة .

ومما لاشك فيه أن وضع هذه النظرية (نظرية الخلافة) كانت تلبية لرغبة أحد الخليفتين في تدوينها .

وقد بنى الماوردي نظريته هذه على آراء من سبقه من الباحثين والفقهاء وعلى تجربة الخلافة في عصر الراشدين والامويين وعلى تطور نظام الخلافة خلال العصور الاسلامية فنظمها ووسع حدودها لكي يوفق في ذلك بين آرائه المستمدة من الشريعة الاسلامية والمتمثلة في (القرآن والحديث) وواقع الامة (٢).

وسنتناول أهم الأسس التي أوردها الماوردي(٣) في نظرية الخلافة أو (الامامة):

١. الامامة خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الامة واجب بالاجماع .

٢ . الامامةواجبة شرعاً وعقلاً :فوجوبها شرعاً لان الامام يقوم بأمور شرعية حيث جاء الشرع بتفويض الامور إلى وليه في الدين،وأما وجوبها عقلا :

---

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٣

(٢) اليوزبكي : الوزارة ص ٢٨١

(٣) انظر الماوردي : الاحكام ص٥ – ٢١

.. فلما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم في التنازع أوالتخاصم .

٣ . الطاعة واجبة للامام استناداً إلى قوله تعالى(ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم) وإلى حديث الرسول (وان أمر عليكم عبد حبشي فاسمعوا له وأطيعوا) و(من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع الامام فقد أطاعني)(وإلى ماروي عن عمر بن الخطاب)(انما علينا أن نأمركم بما أمركم الله به في طاعته وان ننهاكم عما نهاكم الله من معصيته وان نقيم أمر الله في قريب الناس وبعيدهم ولانبالي على من كان الحق).

٤ . الامامة بالانتخاب : ويصح اختيار الامام عنده من وجهين : كان أولهما باختيار أهل الحل والعقد .والثاني : بعهد الامام من قبل ،مستنداً بذلك إلى عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر فاثبت المسلمون امامته بعهده .

٥ . يصح عقد الامامة بواحد أو باثنين أو بثلاثة من أهل الحل والعقد ، لتبرير مبايعة عمروابيعبيدة لابيبكر(١) ، ومبايعة العباس لعلي عند وفاة الرسول(٢)

٦ . الشروط الاساسية لعقد الامامة: ان يكون المرشح من قريش مستنداً بذلك إلى حديث الرسول (قدموا قريشاً ولاتقدموها) و(الأئمة من قريش)

٧ . لايجوز أن يكون للامة امامان في وقت واحد ،وهو يعبر عن رفض الخلافة العباسية الاعتراف بخلافة الفاطميين في مصر والامويين في الاندلس.

٨ . لايجوز أن ينفرد الامام بعقد البيعة لولد ولالوالد حتى يشاور فيه أهل الاختيار فيرونه اهلالها فيصح منه حينئذ عقد البيعة له لان ذلك منه تزكية له تجري مجرى الشهادة، وتقليده على الامة يجري مجرى الحكم.

٩ . إذا عهد الامام بالامامة إلى من يصح العهد اليه لايصبح شرعياً ومعتبراً إلا بعد قبول المعهود اليه .

---

(١) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ص ٢٠٩

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج ١ ص ٦

١٠. يجوز للامام العهد إلى اثنين أو أكثر ،ولم يقدم أحدهم على الأخر جاز لاهل الحل والعقد اختيار أحدهم بعد موته كأهل الشورى ،فان عمر بن الخطاب جعلها في ستة من صحابة رسول الله وترك لأهل الحل والعقد اختيار أحدهم لهـــا .

١١. يجوز للامام أن يعهد بالخلافة إلى اثنين أو أكثر ويعين تواليهم وهوبذلك يبرر ماجرى عليه الحكم في الدولة العباسية .

١٢. يجوز لولي العهد الذي أفضت اليه الخلافة من أولياء العهد أن يعهد بهاإلىمن شاء ويصرفها عمن كان مرتباً معه مسترشداً بعمل المنصور في عزل عيسى ابن موسى من ولاية العهد والبيعة لابنه المهدي ،ومحاولة الامين عزل المأمون والبيعة لابنه .

١٣. ليس من الضروريأن تعرف كافة الأمة الامام بعينه واسمه إلا أهل الاختيار الذي تنعقد ببيعتهم الامامة .

١٤. يجوز للامام أن يسمى بخليفة رسول الله ،وجوز بعضهم تسميته بخليفة الله لقيامه بحقوقه في خلقه ولقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات) ولم يجوز اغلب الفقهاءذلك .

١٥. تحديد واجبات الخليفة في عشرة أشياء :

١ . حفظ الدين

٢ . تنفيذ الاحكام وتطبيق العدل

٣ . حماية الأمة والذب عن الحرم.

٤ . اقامة الحدود وحفظ الحقوق .

٥ . تحصين الثغور بالعدة والقوة.

٦ . الجهاد في سبيل الاسلام .

٧ . جباية الزكاة والصدقات وما أوجبه الشرع نصاً .

٨ . تقرير العطايا وما يستحق في بيت المال :

٩ . استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء.

١٠. مباشرة الامام الامور بنفسه فلايعول على التفويض.

١٦. حقوق الامام على الامة : الطاعة والنصرة مالم يتغير حاله.

١٧. حق الامة الخروج على الامام في الحالات التالية . :

١ـ الجرح في عدالته : وهو الفسق (كمتابعة الشهوة وارتكاب المحظورات والمنكرات وانقياده للهوى) .

٢ـ نقص في بدنه (نقص الحواس او الاعضاء) وهو مايمنع من العمل.

٣ـ نقص التصرف : وهما الحجر والقهر : فالحجر ان يستولي عليه من اعوانه من يستبد بتنفيذ الامور من غير تظاهر بمعصية ، واحكامه جارية على مقتضى الدين .

اما القهر فهو الاسر في يد عدو قاهر لايقدر على الخلاص منه فيمنع ذلك عقد الامامة لعجزه عن النظر في امور المسلمين .

وبهذا نجد ان نظرية الماوردي في الخلافة ماهي الا تبرير للاحداث السياسية التي جرى عليها النظام السياسي عند المسلمين محاولا بذلك التوفيق بينها وبين الاسس الدينية الواردة في القرآن والسنة لكي تأخذ طريق القبول والاجماع .

٢. نظرة الأمامية(١) .

الامامية : هم الذين قالوا بامامة علي وخلافته نصا ووصية (٢) ولم يردعند اهل السنة ان عليا ذكر نصا يفيد ان الرسول عينه للخلافة ، ولو كان لديه نص وذكره لما بقي الانصار والمهاجرون على رأيهم ولبايعوه (٣) .

والامامية (علم على من دان بوجوب الامام ووجودها في كل زمان

---

(١) الامامية : سموا بهذا الاسم نسبة إلى الامام (الخليفة)

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل جـ١ ص ١٤٦

(٣) احمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٢٦

واوجب النص الجلي والعصمة والكمال لكل امام ، ثم حصر الامامة في ولد الحسين بن علي وساقها إلى الرضا علي بن موسى) (١) .
وقالت الامامية : ان الامامة لاتعود في اخوين بعد الحسن والحسين ولايكون بعد علي بن الحسين الا في الاعقاب واعقاب الاعقاب (٢) .
فهي لاتعود في اخ ولاعم ولاغيرها من القرابات بعد الحسنين (٣) .
وقالوا ان الامامة لاتخرج من اولاد علي من فاطمة وانها لاتناط باختيار العامة بل هي قضية اصولية ، وهي ركن الدين ، ولايجوز للرسول تفويضها إلى العامة (٤) بـــل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر (٥).

ويرى بعض كبار الامامية ان هناك أدلة عقليةوادلة مأخوذة من القرآن واخرى مستندة إلى السنة المنقولة عن النبي ثم المستنبطة من احوال علي الدالة على امامته (٦) فقد ارجعوا فكرة الامامة إلى بداية الدعوة الاسلامية عندما نزلت الاية (٩) (وانذر عشيرتك الأقربين) (٧).
فأمر الرسول علياً ان يجمع له بني عبد المطلب ليكلمهم في امر الدعوة فلما اجتمع الرسول بهم قال لهم قد امرني الله تعالى ان ادعوكم اليه فايكم يؤازرني على هذا الامر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاحجم القوم فقال علي : انا يانبي الله اكون وزيرك عليه فقال النبي : ان هذا اخي ووصيي وخليفتي فاسمعواله واطيعوا (٨) فوصاية النبي هنا عند الشيعة يقصد بها الامامة.

(١) الشيخ المفيد : اوائل المقالات ص ٣٨ طهران ١٣٦٣ هـ
(٢) الطوسي : الغيبة ص ١١٨
(٣) الكليني الكافي ص ٢٨٥
(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ، ص ١٤٦
(٥) ابن خلدون : المقدمة الفصل السابع والعشرون ص ١٦٤
(٦) ابن المطهر : منهاج الكرامة في معرفة الامامة ص ١٦٦
(٧) سورة الشعراء: ٢٦ : ٢١٤
(٨) فرات ابراهيم : تفسير فرات ص ١١٢

كما اتخذوا من خبر المؤاخاة دليلا اخر على امامة علي فقد ذكر عن علي انه ناشد الناس فشهدوا له فقال : (فانشدكم الله ان رسول الله آخى بين كل رجلين من اصحابه وآخى بيني وبين نفسه وقال : انت اخي وانا اخوك في الدنيا والاخرة (١) . واتخذوا ايضا من استخلاف الرسول لعلي على اهله في غزوة تبوك دليلا اخر على امامته لعلي قوله : انت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لانبي بعدي) (٢).

ومن الاحاديث التي تمسك بها الامامية للدلالة على خلافته للنبي حديث الغدير بعد حجة الوداع ذكره اليعقوبي (٣) قال رسول الله (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله) ولم تقتصر الامامية في تبيان الادلة على إمامة علي من خلال الاحاديث التي صحت عندهم والمنسوبة للرسول، وانما لجأوا إلى القرآن يقول صاحب عيون المعجزات (٤) آن كل ماورد في القرآن (ياايها الذين امنوا) فالمقصود بها علي . وقد فسر القمي (٥) الآية (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الامين) (٦) فالتين رسول الله والزيتون علي وطور سنين والبلد الامين الائمة ونسبوا آيات كثيرة نزلت في امامة علي (٧).

واهم فرق الامامية الاثنا عشرية الذين يقولون بوجود اثني عشر اماما اولهم علي بن ابي طالب وآخرهم محمد المهدي بن الحسن العسكري وهو الامام الثاني عشر الذي اعتقدوا انه دخل سرداباً لغيبته في دار ابيه بسر من رأى في سنة ٢٦٠هـ وسوف يرجع في زمن لايعلمه الا الله ليحكم الناس

(١) سليم بن قيس : السقيفة ص١٠١ ، علي بن ابراهيم القمي: تفسير القمي ص ٢٨٢
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٥
(٣) اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص ٩٣
(٤) الشيخ حسن بن عبد الوهاب: عيون المعجزات ص ٣٢
(٥) علي القمي: تفسير القمي ص ٣٦٨
(٦) سورة التين ٩٥: ٢
(٧) انظر نبيلة عبد المنعم: نشأة الشيعة الامامية ص ١٤٥ — ١٥٥

بالعدل كما حكمهم جده الرسول الامين (١) ويقضى على الظلم والجور وانه المهدى المنتظر.

وترى الامامية ان الامامة جوء اساسي من الدين والموالاة للامام جزء من العقيدة (لايكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والائمة كلهم وامام زمانة ويرد اليه ويسلم له) (٢) وترى ان تنصيب الامام واجب على طريق العقل والشرع لان وجود الامام لطف من الله ، وهذا اللطف واجب عليه سبحانه بحكم العقل فلا غرابة اذا عين النبي الامام من بعده بأمر من ربه ونص عليه بوصفه واسمه (٣) وهم يقولون : لما كان علي معيناً بالاسم من النبي فابو بكر وعمر مغتصبان وقد خالف الزيدية الامامية في نظرتهم إلى خلافة ابي بكر وعمر وقالوا : يجوز امامة المفضول مع قيام الافضل فقد كان علي افضل الصحابة الا أن الخلافة فرضت إلى ابي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطبب قلوب العامة (٤) .

ان اهم مادار من الخلاف بين الامامية واهل السنة هو مسألة الخلافة وسنعتمد في شرح وجهة نظر الامامية في الخلافة على مارواه بعض رؤسائهم في كتبهم فننقل مقتطفات ما ورد عن الامام في كتاب الكافي للكليني (٥) .

الامام خليفة الرسول وخليفة الله على الارض يقول الرضا : (الائمة خلفاء الله في ارضه) (٦) و (الامام أمين الله في خلقه وحجته على عباده وخليفته في بلاده) (٧) .

---

(١) ابو زهرة: المذاهب الاسلامية ص ٨١، احمد امين: ضحى الاسلام ج٣ ص ٢١٣.
(٢) الكليني: الكافي ص ٦٣.
(٣) صبحي الصالح: النظم الاسلامية ص ١٢٥
(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ج١ ص ١٥٥.
(٥) الكليني: هو محمد بن يعقوب، من كبار محدثي الامامية ومن افاضلهم ورؤسائهم، وهو عند الامامية كالبخاري عند اهل السنة، له كتاب الكافي في ثلاثة اجزاء الاول في الاصول والثاني والثالث في الفروع، مات ببغداد ٣٢٨هـ ٩٣٩م.
(٦) الكليني الكافي كتاب الاصول ص ٦٩، ص ١٦٢، طبع فارس ١٢٨١هـ.
(٧) المصدر السابق ص ٧٢.

كتب الحسن بن العباس يسأل الرضا عن موضع الامام من الرسول والنبي فقال : جعلت فداك : اخبرني ماالفرق بين الرسول والامام والنبي ؟ فكتب او قال ان الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي ، وربما راى في منامه نحو رؤية ابراهيم ، والنبي ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والامام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص (١)

والامامة لازمة عن طريق النص فالرسول استخلف علياً في حياته ونص عليه بعد وفاته ، وان من رفع ذلك فقد رفع فرضاً من الدين (٢) . وقد اكدوا على وجوب الاعتراف بالامام يقول ابو جعفر (ان من اصبح من هذه الامة لاامام له اصبح ضالا تائها وان مات على هذه الحال مات ميته كفر ونفاق (٣) .

ان ولاية العهد من امام إلى آخر عهد من الله يقول ابو عبدالله (اترون الوصي هنا يوصي إلى من يريد ؟ لا والله ولكن عهد من الله ورسوله لرجل فرجل حتى ينتهي الامر إلى صاحبه) (٤) .

ومما يجب على المؤمن طاعة الامام قال الرضا (الناس عبيد لنا في الطاعة موال لنا في الدين فليبلغ الشاهد الغائب) (٥) .

والامام معصوم كعصمة الانبياء وهو (مؤيد موفق مسدد قد امن من الخطأ والزلل يمنعه الله بذلك ليكون حجته على عبادة وشاهده على خلقه) (٦) .

وتعتقد الامامية أن الامام يعلم علم الله إذ أن الله تعالى لم يعلم نبيه علماً إلا أمره أن يعلمه علياً أمير المؤمنين وانه كان شريكه في العلم(٧) وقالوا لقد أودع الله علومه أوصياءه (فكل وصي يعهد بها إلى الآخر لينشرها في الوقت المناسب لها

---

(١) الكليني الكافي ص ٨٢.

(٢) الشيخ المفيد: أوائل المقالات ص ٣٨ – ٣٩ طبع طهران ١٣٦٣هـ.

(٣) الكليني: الكافي ص ٨٦.

(٤) المصدر السابق ص ١٠١.

(٥) المصدر السابق ص ٨٨.

(٦) المصدر السابق ص ٩٦، ص ٩٧.

(٧) الكليني ص ٦٨.

حسب الحكمة) (١) وقال أبو جعفر (نحن خزان علم الله ونحن تراجمه وحي الله ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض) (٢)(والأئمة نور الله ونور الامام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس الحقيقية بالنهار ويحجب الله نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم) (٣).

وعقد الكليني ابواباً في استيراث الأئمة علم النبي وجميع الانبياء وعلم جميع الكتب التي نزلت من عند الله وهم يعرفونها وهذا العلم يتوارثه الأئمة((٤).

قال أبوعبدالله (نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة ، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم ، وموضع الرسالة ،ومختلف الملائكة ،وموضع سر الله ،ونحن وديعة الله في عباده ،ونحن حرم الله الاكبر ،ونحن ذمة الله ، ونحن عهد الله، فمن وفي عهدنا فقد وفى بعهد الله ومن خفرها فقد خفر ذمة الله وعهده) (٥) وقالوا: (ان الله عز وجل علمين علم لايعلمه إلا هو ،وعلم علمه ملائكته ورسله فماعلمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه) (٦) والأئمة إذا شاؤا أن يعلموا شيئاً اعلمهم الله اياه وهم يعلمون متى يموتون ولا يموتون الا باختيارهم(٧) وللامام غيبة (وإذا ابلغكم عن صاحب هذا الامر غيبة فلا تنكروها) (٨) وهو المهدي الذي سيظهر ويملأ الارض عدلا كما ملئت ظلماً وجوراً .

واهم فرق الامامية (الاثناعشرية) التي تقول باثني عشر اماما على الترتيب فاولهم علي ، وآخرهم محمد بن المهدي الذي اختفى نحو سنة ٢٦٠هـ وسيعود آخر الزمان فيملأ الارض عدلا بعدما ملئت ظلماً وجوراً .

---

(١) محمد حسين ال كاشف الغطاء: اصل الشيعة واصولها ص ٢٩.
(٢) الكليني: الكافي ص ٩١.
(٣) المصدر السابق ص ٩٢.
(٤) الكليني: الكافي، ص٨١، ص٨٢، ص٨٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
(٧) المصدر السابق ١٢٥.
(٨) المصدر نفسه ص ١٢٥.

ومن الامامية من قال : ان الامامية انتقلت بعد جعفر الصادق (الامام السادس) إلى اسماعيل ابنه لا إلى موسى الكاظم ،ومن أجل هذا يسمون الاسماعيلية ، وقالوا بعد اسماعيل أتت أئمة مستورة وكل هؤلاء يتوالون الامامة بالخفاء إلى أن جاء عبيدالله المهدي رأس الدولة الفاطمية ومن هذا يسمون بالباطنية .

والامامية تختلف كثيراً في نظرتها إلى الامام عن نظرة أهل السنة الذين يعدون الامام انساناً ككل الناس كما يولد الناس وتعلم أو جهل كما يتعلم الناس أو كما يجهلون ، ليس له قدسية إلا أن كفايته واخلاقه جعلت كفايته واخلاقه جعلت الناس يختارونه ، أو أنه تلقي الخلافة من قبله ،ليس يتلقى وحياً وليس له سلطة روحية ،وإذا انحرف فلاطاعة له على الناس (إذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق) وليس له أن يشرع الا في حدود القوانين الاسلامية . والا فتشريعه باطل (١) . ويرى أهل السنة أن التقوى والصلاح والعلم لايورث كما يورث المال لان الله وضع موازين يوزن بها أعمال الانسان لا بآبائه ولابجاهه ولابماله (٢) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وتقوم فلسفة الامامة (الخلافة) عند الامامية على مبادىء أربعة أساسية وهي :

١ ــ العصمة : وهي من أهم عقائدهم فهم يقولون : ان ــ الأئمة ــ كالانبياء ــ معصومون من كل خطأ أو زلل(٣) . ويعتقدون في وجوبها للامام باعتباره من الصفوة المختارة لقوله تعالى (والذين سبقت لهم منا الحسنى) وقوله تعالى(وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار)فالانبياء والأئمة من بعدهم معصومون في حال نبوتهم وامامتهم من الكبائر كلها والصغائر (٤) وهذه العقيدة غريبة عن الاسلام ومما أورده صاحب الكافي عن علي قوله لاصحابه (لاتكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فاني لست آمن أن أخطي) ولو كان لعلي هذه العصمة والعلم ببواطن الامور

---

(١) احمد امين: ضحى الاسلام ج٣ ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) احمد امين: ضحى الاسلام ج٣ ص ٢٢٢.

(٣) الشيخ المفيد: اوائل المقالات ص ٣٣.

(٤) الشيخ المفيد: شرح عقائد الصدوق ص ٦٠.

لتغير وجه التاريخ ولما قبل التحكيم ولدبر الحروب خيراً مما دبر (١) والنبي نفسه يقول .(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسني السوء) . وان هذه العقيدة تتنافى مع ماجاء به القرآن الذي يؤكد ان الأنبياء ليسوا معصومين وان العصمة لله وحده فقال تعالى (وعصى آدم ربه فغوى)وقال (رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي) ويقول تعالى(عفا الله عنك لم أذنت لهم) وعاتب الله النبي بقوله (عبس وتولى ان جاءه الاعمى ومايدريك لعله يزكى) وقوله أيضاً (ياأيها النبي لما تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم) وقوله تعالى للنبي (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر)وقوله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار).

هذا ماكان من قصة الانبياء التي ذكرها الله في القرآن الكريم فكيف يرتقي الأئمة منزلة فوق منزلة الانبياء (٢) .

٣ — المهدي : ومن عقائد الامامية الاعتقاد بالمهدي ، ولم ترد في القرآن كلمة المهدي وانما وردت المهتدي (من يهدي الله فهو المهتد) ووردت الهادي (ولكل قوم هاد) وفسر ابو جعفر قوله تعالى (انما انت منذر ولكل قوم هاد) فقال رسول الله المنذر وعلي الهادي اما والله ماذهبت منا وما زالت فينا إلى الساعة)(٣).

ومعنى المهدي لغة ودينا الرجل الذي هداه الله فاهتدى ، وقد اخذت هذه الكلمة معنى جديداً وهي (امام منتظر) يأتي فيملأ الارض عدلا كما ملئت ظلماً وجوراً (٤) والامامية على العموم تقول بالغيبة وبعودة المهدي المنتظر يقول الكليني (٥) في الكافي وللامام غيبة (واذا ابلغكم عن صاحب هذا الامر غيبة فلا تنكروها) وهو المهدي الذي سيظهر ويملأ الارض عدلا .

(١) احمد امين: ضحى الاسلام ج٣ ص ٢٢٦.
(٢) احمد امين: ضحى الاسلام ج٣ ص ٢٢٨.
(٣) الكليني: الكافي ص ٦٨.
(٤) احمد امين: ضحى الاسلام ج٣ ص ٢٣٦.
(٥) الكليني: الكافي ص ١٢٥.

وجاءت عقيدة الامامية في المهدي من قولهم : (ان الله في ارضه بعد مضي الحسن بن علي العسكري حجته على عباده وخليفته في بلاده قائم بامره من ولد الحسن بن علي بن محمد بن علي الرضا مبلغ عن اياته مودع عن اسلافه ماالستدعوه من علوم الله وكتبه واحكامه وفرائضة وسننه (١) لذلك تمسكوا بأمامته واقروا بها بعد أبيه الحسن العسكري لكنه مستتر خائف مغمور ومأمور بذلك حتى يأذن الله عزوجل له فيظهر ويعلن امره (٢) ومن هنا بدأت فكرة غيبة الامام وعللوا غيبته تقية ومثلوا لذلك بالهجرة إلى الحبشة واختفاء النبي في الغار) (٣) واعتبروا كشفه واعلان امره والتنويه باسمه معصية لله والعون على سفك دمه وانتهاك حرمته (٤) .

لقد اختلفت طوائف الامامية في شخصية المهدي المنتظر فلما مات محمد بن الحنفية سنة ٨١ هـ قال فريق من الكيسانية انه حي لم يمت وانه في جبل رضوى عنده عين من الماء وعين من العسل ، وعن يمينه اسد ويساره نمر يحفظانه إلى وقت خروجه وهو المهدي المنتظر (٥) واعتقدت الاسماعيلية برجعة محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بعد غيبته (٦) .كما اعتقدت المهدية (وهم اتباع محمد النفس الزكية) برجعة المهدي (المنتظر) وهم يستندون في أصل دعواهم إلى حديث رووه عن الرسول مفاده (المهدي منا اهل البيت وامه منا اسمه يشابه اسمي واسمابيه يشابه اسمأبي يملؤها عدلا كماملئت جورا(٧).

---

(١) سعد القمي: المقالات والفرق ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق والصحيفة.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣.

(٤) سعد القمي: المقالات والفرق ص ١٠٤.

(٥) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٦ — ٢٧.

(٦) الشهرستاني :الملل والنحل ج١ ص ١٦٨.

(٧) فاروق: العباسيون الاوائل ج١ ص ١٧٠.

وقد ادعت السبأية (١) على لسان مؤسسها ان علياً هو الاله الحق وانه يحيى الموتى ، وادعوا غيبته بعد موته وقالوا : هو القائم الذي يخرج وانه حي لم يمت ولا يموت حتى يسوق بعصاه العرب ويملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً(٢).

وقد انتشرت في العصر الأموي فكرة ظهور السفياني المنتظر كالمهدي المنتظر (٣) وقد روج العباسيون فكرة المهدي المنتظر العباسي أيضاً مستندين إلى حديث روي عن ابن عباس قال : (منا اهل البيت اربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي) (٤) . اما الزيدية وهم من فروع الامامية أيضاً كانوا ينكرون المهدي والرجعة انكارا شديداً ، وقد ردوا في كتبهم على الاحاديث والاخبار المتعلقة بذلك (٥) وقد اشار الالوسي (٦) في تفسيره إلى رجعة المهدي بقوله: (وتأويل جماعة الامامية ماورد من الاخبار في الرجعة على رجوع الدولة والامر والنهي دون رجوع الاشخاص واحياء الاموات) .

وجعلت الشيعة الامامية علامات لظهور المهدي وخروجه في فترة تسوء فيها الاوضاع ويعود الاسلام غريباً كما بدأ غريباً (٧) ومن علائم ظهوره قيام دولة بني العباس والصيحة في شهر رمضان وظهور النجم وظهور السفياني في البصرة ومصر وتباع المرأة بوزنها طعاماً ، وسيخرج جيش عظيم يطالب بثأر آل البيت (٨) .

---

(١) السبأية نسبة إلى عبد الله بن سبأ ويلقب بأبن السوداء ، كان يهودياً من صنعاء، واظهر الاسلام في عهد عثمان ووالى علياً وكان يقول في اليهودية في يشوع بن نون بعد موسى مثل ماقاله في علي بعدموت الرسول (الرازي: كتاب الزينة، مخطوط ورقة ٣٩و. ظ)

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق ص ١٤٣.

(٣) فاروق عمر فوزي: العباسيون الاوائل ج١ ص ١٧٠.

(٤) احمد امين: فجر الاسلام ص ٢٣٨ وما بعدها.

(٥) احمد امين : ضحى الاسلام ج٣ ص ٢٤٣ .

(٦) الآلوسي : روح المعاني ح٦ ص٣١٥ .

(٧) النعماني : الغيبة ص ١٧٤ .

(٨) ابن طاووس : الملاحم والفتن ص ١٧ وما بعدها .

٣. التقية : — هو اظهار الامر على عكس ماأخفوه ، فاذا قيل لهم في ذلك انه ليس بحق وظهر لهم البطلان قالوا : انما قلناه تقية وفعلناه‌تقية (١) وهي عند الامامية (كتمان‌الحق وستر الاعتقاد فيه‌ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين او الدنيا) (٢)

وا صبحت التقية صفة خاصة للامامية وقد اخذوها عن ائمتهم فقد ورد عن الصادق قوله : من لاتقيه له لا دين له (٣) وقد اجازوا التقية في الدين عند الخوف على‌النفس ،وقد تجوز في حالة دون حال للخوف‌على المال‌ولضروب من الاستصلاح (٤) وقد وردت في القرآن (لايتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا ان تتقوا منهم تقاه). والتقية في كل شي ء الا في النبيذ وا لمسح على الخفين فقال‌ ابو جعفر : التقية من ديني ود ين ابائي ولاايمان لمن لاتقية له . وقد فسروا كثيراً من اعمال الائمة على انهم فعلوها تقية ، فسكوت علي على ابي بكر وعمر وعثمان كان تقية ، ومصالحة الحسن لمعاوية كانت تقية . (٥) .

الرجعة : — والمقصود بها أن الله يرجع قسماً من الاموات إلى الحياة الدنيا (فيعز منهم فريقاً ويذل فريقاً ، ويديل المحقين من المبطلين والمظلومين منهم من الظالمين) (٦) . ومن الراجعين إلى الدنيا فريقان الاول : من علت منزلته عند الله فيعزه ويعطيه من الدنيا ما كان يتمناه ، والثاني : من بلغ غاية في الفساد واقتراف السيئات فسينتصر الله تعالى عمن تعدى عليه قبل الممات ثم يصير الفريقان من بعد ذلك إلى الموت والنشور) (٢).

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص ١٦٠ .
(٢) الشيخ المفيد : شرح عقائد الصدوق ص ٦٦
(٣) الطبري مشكاة الا نوار في غرر الا خبار ص٣٩ .
(٤) المفيد : اوائل المقالات ص ٩٦ .
(٥) احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٨ .
(٦) الشيخ المفيد : اوائل المقالات ص ٥٠ .
(٧) المصدر السابق والصحيفة .

لقد وردت عقيدة الرجعة والمنقذ المنتظر عند أصحاب الديانات قبل الاسلام فتزعم المجوس ان (سومين) (١)الذي ينتظرون خروجه ، ويقولون ان الملك يصير اليه ويخرج على بقرة ذات قرون ومعه سبعون رجلا عليهم جلود الفهود ويقول هرا (٢) وبرا (٣) حتى يأخذ جميع الدنيا . (٤)

واعتقد المجوس الزرادشتيه بعودة (زرادشت) فقد دعا (اسحق الترك) ان زرادشت لم يمت وانه يخرج حتى يقيم لهم الدين (٥) كما زعم ان ابا مسلم مختف في جبال الري وانه يخرج في وقت يعرفونه ليقود اتباعه وليحقق آمال مواطنيه (٦) وزعم اتباع (بها فريد) بعد مقتله : انه صعد الى السماء على برذون ، وانه سينزل اليهم كما صعد ، وينتقم من اعدائه ويملأ الارض عدلا وحقاً ويدين به الناس ، ويعم في عصره السلام (٧) وزعم سنباذ ان ابا مسلم الخراساني لم يمت وان جبريل نزل عليه واوحى له فدعاً اسم الله الاعظم وتحول إلى حمامة بيضاء وطار (٨) وادعت الخرمية : ان ابا مسلم حي لم يمت وانه يرجع ويملء الارض عدلا بعدما ملئت ظلماً (٩)

واعتقد المانويه بعد مقتل ماني (نبيهم) بغيبته فاتخذوا عيداً لهم سموه (بيما) وفي هذا العيد ينصب قبر ويرمز إلى المحضور الروحي لنبيهم الغائب . (١٠) وتعتقد اليهودية بالرجعة مستندين إلى امرين : الاول — حديث العزير أذ أنه اماته الله مئة عام ثم بعثه . والثاني — حديث هارون اذ مات ونسبوا قتله إلى

(١) سومين يبدو انه المنقذ المنتظر للمجوس .
(٢) هرا : السنور (القط) .
(٣) برا : الفارة .
(٤) الجاحظ: الحيوان ج٦ ص ١٦٢ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٣٤٥ ، فان فلوتن السيادة العربية ص ١٣١ .
(٦) Browne , History of Persia p·311 318
(٧) البيروني : الاثار الباقية ص ٢١١
(٨) الليثي : الزندقة والشعوبية ص ١١٣ .
(٩) الرازي : كتاب الزينة (مخطوط ورقة ٣٦ وتحقيق الدكتور عبدالله سلوم) .
(١٠) كريتنسن : ايران في عهد الساسانيين ص ١٨٧ .

موسى لحسده له ، فاختلفوا في موته فمنهم من قال انه سيرجع (١) لذلك دان اليهود بالعودة الى الدنيا في آخر الزمان وان غيرهم من الامم لايعودون (٢) .

وقد أدعى اليهود بظهور المنقذ المنتظر فدعا [(شيريم) اليهودي انه هو المنقذ المنتظر لليهود وسيسير باليهود لانتزاع ما بيد المسلمين فتبعه بعض يهود العراق وفارس والشام والاندلس فما كان من الخليفة الاموي يزيد الثاني ان امر بالقبض عليه فظهر له انه دجال فأمر بقتله ، وبعد بضع سنين من ذلك تزعم عوبديا بن عيسى بن اسحق الاصفهاني حركة الدعوة إلى المنقذ المنتظر وتبعه يهود اصفهان وبلغ عددهم عشرة آلاف يهودي ولكنهم هزموا وقتل ابن عيسى في المعركة وعوقب جميع يهود اصفهان(٣) .

وقد اختلف النصارى في رجعة المسيح فمنهم قال : سيرجع قبل يوم القيامه ومنهم قال لا نزول له الا يوم الحساب (٤) .

ويبدو ان فكرة رجعة (منقذ منتظر) التي تواجدت في عقائد المجوسية واليهودية والمسيحية قد حملها اتباع هذه الديانات بعد اعتناقهم الاسلام ، وبقيت في نفوسهم رواسب عقائدهم السابقة وبمرور الزمن ادخلت بصورة تدريجية إلى عقائد الفرق الاسلامية لانها كانت معروفة وليست غريبة على الاذهان انذاك واستخدمت من قبل الفرق الاسلامية لتحقيق اغراض مذهبية وسياسية ومحاولة هذه الفرق استقطاب اكبر عدد من الاتباع حولها لتدعيم قوتها وعقيدتها ولتخيف خصومها (٥) .

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ص ٢١٢ .

(٢) العقاد : ابو الانبياء ص ٢١١.

(٣) ديورانت: قصة الحضارة جـ ١٤ ص ٧٧ – ٧٨ .

(٤) الشهر ستاني : الملل والنحل جـ١ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٥) اليوزبكي : فكرة المنقذ المنتظر والرجعة (مجلة الجامعة ، العدد الثاني ، السنة الرابعة ١٩٧٣ ص ٢٩)

٣ — نظرة الزيدية الى الخلافة :

اما نظرة الزيدية الى الخلافة وهم من فرق الامامية فمن مبادئهم في الامامة (ان علياً افضل الناس بعد الرسول لقرابته وسابقته ، ولكن كان جائزاً للناس ان يولوا غيره اذا كان الذي يولونه مجرباً (١) فجوزوا امامة المفضول مع وجود الافضل (٢) فاعترفوا بخلافة ابي بكر وعمر وعثمان لمصلحة المسلمين (واشفاقاً من الفتنة) (٣) .

وتقول الزيدية ان الامامة في (كل اولاد فاطمة كائنا من كان بعد ان يكون عنده شروط الامامة) (٤) فهو كل من خرج منهم وشهر سيفه ودعا إلى نفسه فهو مستحق للامامة (٥) ولخص الشهرستاني (٦) شروط الامامة عندهم بقوله : (ان كل فاطمي عالماً زاهداً شجاعاً سخياً خرج بالامامة يكون إماماً واجب الطاعة (وقد حددتها الزيدية بالشروط التالية :

العلم والزهد والكمال والعقل والعصمة والشجاعة والكرم وكثرة الاعمال المقربة إلى الله عز وجل ثم النص (٧)

٤ — نظرة الخوارج الى الخلافة

الخوارج : كل من خرج على الامام الحق الذي اتفقت عليه الامة يسمى خارجياً سواء كان الخروج في ايام الصحابة على الائمة الراشدين او كان بعدهم على التابعين والائمة في كل زمان (٨) ومنهم من يشتق اسم الخوارج من الخروج

---

(١) النوبختي : فرق الشيعة ص ١٨ .
(٢) الاشعري : مقالات الاسلاميين ص ١٣٤ .
(٣) الجاحظ : ثلاث رسائل ص ٢٤٦ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٨ .
(٥) سعد القمي : المقالات والفرق ص ١٨ .
(٦) الشهرستاني : الملل والنحل جـ١ ص ٢٤٩ .
(٧) الشيخ المفيد: الارشاد ص ٣٣٤ .
(٨) الشهرستاني : الملل والنحل جـ١ ص ١١٤ .

في سبيل الله اخذا من قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله).

وسميت الخوارج ايضاً بالشراة (١) : اي الذين باعوا انفسهم لله استناداً إلى قوله تعالى (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) (٢) وسموا بالحرورية نسبة إلى قرية حروراء التي خرجوا اليها من الكوفة (٣) كما سموا انفسهم بالمحكمة لانهم قالوا لايجوز العدول عن حكم الله إلى حكم الرجال وتمثلوا بالقول التالي (لاحكم الا لله) (٤).

ظهر الخوارج على مسرح التاريخ السياسي للدولة الاسلامية ،في خلافة علي ممن كان معه في حرب صفين ، واشدهم خروجاً عليه الاشعث بن قيس الكندي وسعد بن ذكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي حين قالوا : القوم يدعوننا إلى كتاب الله وانت تدعونا إلى السيف ، حتى قال علي : انا اعلم بما في كتاب الله انظروا : إلى بقية الاحزاب . قالوا : لترجعن الاشتر عن قتال المسلمين والا فعلنا بك مثلما فعلنا بعثمان ، فاضطر الامام علي إلى رد الاشتر عن القتال فامتثل الامر وحملوه على التحكيم (٥) .

وكانت دعوة معاوية للتحكيم إلى كتاب الله ابتغاء احداث الفتنة والفرقة بين جند علي فان قبول علي للتحكيم ادى إلى ان فريقاً من جنده واكثرهم من تميم خطأوه لقبوله التحكيم لان حكم الله في أمر الخلافة جلي ، والتحكيم يصبح اذا شك كل فريق بحقه (٦) فقالوا له : (لم حكمت الرجال ؟ ولا حكم إلا لله)وقد كذبوا على علي لانهم هم الذين حملوه على التحكيم (٧) ويتكون

(١) الشراة : من الخوارج سموا بذلك لقولهم شرينا انفسنا في طاعة الله انظر الشهرستاني الملل ج١ ص ٢٥ .

(٢) احمد امين : فجر الاسلام ص ٣١٤ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٧ .

(٤) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٦ ، ٦١ .

(٥) الشهرستاني : الملل ج١ ص ١١٤ .

(٦) احمد امين: فجر الاسلام ص ٣١٤ .

(٧) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص ١١٥ .

الخوارج من القراء الذين خطأوا علياً لقبوله التحكيم لان الخليفة اختارته الامة فبتجاهله ذلك خان الامانة فخطأوه ، وكذلك من المحاربين البدو واكثرهم من تميم الذين كانوا يكرهون الخضوع لمركزية الحكم فاستغلوا قبول علي للتحكيم فقالوا : (انه محا عن نفسه امير المؤمنين) فثاروا عليه وكان ممن خرج عليه بعض الشيعة الذين قالوا : ان علياً رضى ان يشك بخلافته التي هي من الله) (١)

وقد تطرف الخوارج في نظرتهم إلى الخلافة حتى كفروا علياً ومعاوية وعثمان واصحاب الجمل وكل من رضي بالتحكيم (٢) وذلك ناتج عن اسلوب العنف والقسوة التي هوملوا بها محتجين بالاية الكريمة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون) (٣).

وقد اتجهت أراؤهم السياسية إلى مفترق طريق أحدهما : تكفير المخالفين لهم. والاخر : وجوب الخروج على الامام الجائر (٤) .

وقد صاغوا نظرتهم إلى الامامة بما ذكره ابن الجوزي (ومن رأى الخوارج ان لاتختص الامامة بشخص الا أن يجتمع فيه العلم والزهد ، فاذا اجتمعا كان اماماً ولو كان نبطياً (٥) .

لقد كان الخوارج اول الامر يقرون بصحة خلافة ابي بكر وعمر وعثمان في سنيه الاولى وعلي إلى ان حكم الحكمين ويمثل هؤلاء الخوارج الجمهوريين المبادىء الديمقراطية المتطرفة (٦) .

ويمكن حصر ارائهم في الخلافة (٧) بالامور التالية :

---

(١) الدوري: النظم الاسلامية ص ٨٥ وما بعدها .
(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٥ .
(٣) سورة المائدة اية ٤٦
(٤) البغدادي . الفرق بين الفرق ص ٢٥ ، مطبعة المعارف بمصر ١٩٦٠.
(٥) ابن الجوزي . تلبيس ابليس ص ٩٦ القاهرة ١٩٢٨.
(٦) فان فلوتن: السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ص ٦٩
(٧) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص ١١٤ وما بعدها .

١. ان الامامة لاتقوم الا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين.
٢. لايجورللامام المختار ان يتنازل او يحكم .
٣. جوزوا ان تكون الامامة في غير قريش .
٤. جوز بعضهم أن لايكون في العالم امام اصلا ، وان احتيج اليه فيجوز أن يكون عبدا او حرا او نبطياً او قرشياً .
٥. ومن خرج على الامام الذي نصبوه نصب القتال معه .
٦. يرو ن الخروج على الامام اذا خالف السنة حقاً وواجباً وعدل عن الحق وجب عزله او قتله .
٧. يجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي .
٨. جوزوا امامة ابي بكر وعمر .
٩. كفروا أصحاب الكبائر .
١٠. جوز بعضهم امامة المرأة منهم اذا قامت بأمورهم وخرجت على مخالفيهم .
١١. اعتبروا خلافة الامويين ثم العباسيين جائزة .

ويذكر البغدادي (١) انقسام الخوارج إلى عشرين فرقـة كل فرقـة تخالف الاخرى في بعض تعاليمها يجمعها (وجوب الخروج على الامام الجائر ومن اشهرهم المحكمة والازارقة والنجدات والاباضية والصفدية و غيرهم.

ـ نظرة المعتزلة الى الامامة :

نشأتها :

يرى البعض أن نشوء الاعتزال يرجع إلى أيام مبايعة الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان وتسليم الامر اليه فاعتزلوا الحسن ومعاوية ولزموا مساجدهم ومنازلهم

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٥ .

وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة (١) . ويرى البغدادي (٢) ان الاعتزال نشأ من انصراف الناس إلى حياة التقشف والزهد واعتزالهم المجتمع الذي كانوا يعاصرونه ، فلما ذهبوا هذا المذهب المنكمش .أوثر تلقيبهم بالمعتزلة .

ويبدو أن هذه التسمية لم يقصد بها المعتزلة الذين ظهروا بعد النزاع بين علي ومعاوية وانما الذين عاشوا حياة الزهد في مسجد الرسول .

وقيل : نشأ الاعتزال من اعتزال واصل بن عطاء عن حلقة الحسن البصري في البصرة فاعتزل عند سارية أخرى في المسجد ولحقه صهرة عمرو بن عبيد ، وسبب هذا الخلاف أن سأل أحدهم ذات يوم الحسن البصري : هل من أتى بكبيرة مؤمن أم كافر ؟ والمقصود بالكبيرة هنا الخروج على الامام ، وقبل أن يجيب الحسن البصري على السؤال قام واصل بن عطاء ، وهو أحد المترددين على حلقة الحسن البصري وقال (اني أقول أن من أتى بكبيرة هو ليس بمؤمن ولا بكافر بل هو في منزلة من المنزلتين أي في منزلة بين الايمان والكفر فهوليس بمؤمن يستحق النعيم ولا بكافر تجب علينا مقاتلته أنه فاسق) .(٣)

ويبدو ان واصل بن عطاء حدد موقفه قبل شيخه ، فكان موقف الحسن التسامح فقال : لا يحق لنا ان نحكم على الغير اذ من المتعسر علينا ان ننفذ إلى داخل القلب حيث النوايا مسترة فنرجيء امره لله ، وهذا الموقف يختلف عن موقف الخوارج الذين كفروا الطرفين ، كما يختلف عن موقف الشيعة الذين كفروا معاوية واتباعه فأختلاف حكم واصل عن حكم شيخه الحسن لان الفاسق في رأي واصل(٤) مستحق للعقاب ولم يكفر واصل الفاسق حتى لايثير من جديد الفتن ولايحتدم القتال بين المسلمين . ويرى البعض (٥) ان قصة مفارقة واصل بن عطاء

(١) ابو الحسن محمد بن أحمد الملكي : كتاب التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع ص ٣٨ .
(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٩ وما بعدها .
(٣) البغدادي : ص ٢١ الشهرستاني ، الملل والنحل ج١ ص ٦٤ .
(٤) البير نصري نادر : اهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية ص ٦٨ .
(٥) احمد بن يحيى بن المرتضى : كتاب طبقات المعتزلة ص ٣٩ .

حلقة الحسن البصري واعتزاله إلى عمود آخر من الجامع في البصرة مشكوك في صحتها ، ويتعذر اثبات سبب هذه التسمية الحقيقي بوجه قطعي ، وقد ذهب قوم إلى تفسير هذا الاسم من وجهة الدين، وذهب غيرهم إلى تفسيره من الوجهة السياسية: وقيل : ان الاعتزال الديني مسبقه اعتزال سياسي بدليل ان مسألة الامامة كان لها مكان عظيم في مناظرات المعتزلة .

ويقول احمد امين : (١) ان كلمة اعتزال ومعتزلة واعتزل استعملت كثيراً في كتب التاريخ في معنى خاص وهو ان يرى الرجل فئتين متقاتلتين متنازعتين ثم هو لا يقنع برأي احداهما او رأي ان كليهما غير محق من ذلك نراه من اطلاق المؤرخين هذه الطائفة التي تشترك في القتال بين علي وعائشة في حرب الجمل ، وعلى الذين لم يدخلوا في النزاع بين علي ومعاوية في صفين .

والانقسام بين الناس كان انقسام احزاب سياسية مصبوغة بصبغة دينية لأنها نشأت في مجتمع ديني ،فالمعتزلة كانت تمثل فكرة سياسية مصبوغة بالدين ويمكن ان نلخص رأيها : انها ترى ان الحق ليس بجانب احدى الفرقتين المتنازعتين فهما على باطل او على الاقل لم ينكشف الحق في جانب احدهما ، والدين انما يأمر بقتال من بغي فاذا كانت الطائفتان باغيتين او لم يعرف الباغي اعتزلنا (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله).

وقد وردت اسماء عدة للمعتزلة فكانوا يسمون بـ(العدلية) لقولهم بعدل الله وحكمته (٢) كما سموا بـ(الموحدة) لقولهم لاقديم مع الله ، واحتجوا بقوله تعالى (... واعتزلكم) (٣) كما احتجوا من السنة النبوية لقول الرسول: (من اعتزل من الشر سقط في الخير) .

---

(١) احمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٥٤ – ٣٥٧

(٢) سورة مريم آية ٤٨ .

(٣) احمد بن يحيى بن المرتضى : طبقات المعتزلة ص ٢٠ .

والحقيقة ان المعتزلة كانت اجرأ الفرق الاسلامية على تحليل اعمال الصحابة ونقدهم واصدار الحكم عليهم فالمرجئة تحاشت الحكم والخوارج كانت احكامهم قاصرة على مسائل التحكيم ، اما المعتزلة فلهم احكام عامة في كثير من الصحابة كابي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ، وكانوا في منتهى الصراحة في ابداء ارائهم السياسية على الاعمال التي حدثت منذ ان نشب الخلاف بين المسلمين . (١) .

رأي المعتزلة في الامامة :

ان اول قضية اختلف المسلمون حولها بعد وفاة الرسول كما المحنا سابقاً هي قضية الامامة (٢) وقد استمرت قروناً طويلة من الصراع الفكري والعقائدي السياسي الذى يمكن ان نحدد اتجاهاته الفكرية الاساسية إلى ثلاثة اشرنا لها آنفاً والذى حدد المعتزلة رأيهم فيهم .

١ ـ الذين قالوا ان الرسول قد (اوصى) بالامامة من بعده لعلي بن ابي طالب ، وان الوصية قد استمرت في عقبه وان طريق الامامة والسلطة العليا محصورة في (الوصية) التي عينت الائمة بذواتهم لابصفاتهم ، ولا دخل في ذلك للارادة الانسانية ولااختيار في هذا الامر للناس وان الامام (حجة) على الناس و(معصوم)من الخطأ وهو مصدر التشريع في امور الدين والدنيا(٣). وهي ماتعبر عن نظرة الامامية إلى الامامة . لقد انكر المعتزلة هذا الفكر وحاربوه لانهم رأوا في القول (بالوصية) مايسلب الحرية الانسانية واختيار فعاليتهما في قدرة الانسان على اختيار السلطة العليا في المجتمع الذى يعيش فيه (٤) .

٢ ـ الذين جوزوا امامة (الفاسق) اى مرتكب الكبائر في (تغلب) على السلطة وجعل من نفسه اماماً للمسلمين وهم الذين قالوا بايمان مرتكب الكبيرة او

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ٣٦٠ .

(٢) الشهرستاني الملل والنحل ص ٩ : الاشعرى : مقالات الاسلاميين حـ١ ص ٢

(٣) محمد عمار : المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ص ١٨٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٧ .

(ارجأوا) الحكم في ذلك إلى الدار الاخرة وهذه النظرة تعبر عن أراء المرجئة في الحكم وقد ادى هذا الموقف باصحابه إلى غض الطرف عن انظمة الحكم الجائرة ولاسيما الحكم الاموى والمعتزلة يرفضون هذا الموقف كذلك ويعتقدون ان الفاسق اذ تغلب على الامر صار اماماً بالامر ويزعمون فيمن يخرج بعدهم انه خارجي (١).

٣ — اما الحزب الثالث هو المعسكر الوسط بين هذين المعسكرين ويرفض اصحابه ان يكون (النسب) هو طريق الامامة بالوصية او ان يكون من حق مرتكب الكبيرة ان يلي هذا المركز الهام في حياة الناس وقالوا : ان (الاختيار والبيعة) هما الطريق لتنصيب الامام (٢) والامامة عند المعتزلة لها دلالتها ، على وجود ابعاد سياسية لفكرة الحرية والاختيار نذكر منها اصولها الاساسية:

١ — لقد حدد المعتزلة الاصول إلى تنصيب الامام هو (الاختيار والبيعة) ورفضوا (النص) و(الوصية) مخالفين الامامية في ذلك كما خالفوا (المرجئة) الذين اجازوا امامة (المتغلب) على السلطة والمغتصب للامامة . (٣)

وان اسلوب الاختيار يختلف ويتطور مع تطور الازمنة ، وان كل ذلك انما يتحدد بالاجتهاد اى ان هذا الامر (الاختيار) متروك إلى العقل البشري وما تقتضيه مصالح الناس . (٤) ومن هذا الباب تدخل عملية الاختيار للامام كبعد سياسي من ابعاد الحرية والاختيار عند المعتزلة .

٢ — حق الامة في عزل الامام : وانطلاقاً من رفض مبدأ (العصمة) وتمشياً مع تقرير الطابع السياسي لمنصب (الامامة) رأى المعتزلة جواز عزل الامام اذا اخل بشرط من الشروط المطلوب توفرها فيه . فهم يرون ان منصب الامام يستند إلى رضا المحكومين أي ان الامام حتى بعد البيعة يظل استناده لجماعة المسلمين لاإلى قوة غيبية ولذلك فالامام يستشير اصحابه ليعرف الصواب

---

(١) القاضي عبد الجبار احمد الهمداني: المغني في أبواب التوحيد والعدل حـ ٢٠ ، القسم الاول ص١١٠

(٢) محمد عمار : المعتزلة ص ١٨٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٩٤ .

من الرأى (١) لانه يجوز للامام ان يخطأ ويكون هناك من ينبهه ويقومه وهم الامة .

٣ ــ وقد سمي المعتزلة الامام باسم (الوكيل عن الامة) والوكيل لا يأتي الا بعد موافقة موكله . (٢) .

٤ ــ امامة غير القرشي : اختلف المعتزلة حول جواز امامة غير القرشي في حالة وجود قرشي تتوفر فيه شروطها ، اما إذا لم يوجد فعلا فلا خلاف في الجواز . (٣) لان ذلك لايضيق كثيراً من نطاق الابعاد السياسية لفكرة الحرية والاختيار .

وخلاصة نظرية المعتزلة في الامامة ومو قفهم من (اختيار الامام) وتقريرهم حرية الامة في عزلة اذا اقتضى الامر لذلك نجد في هذه المواقف فكرا سياسياً يبقي من شأن الحرية والاختيار بالنسبة للانسان ويخرجها من نطاق الذات الفردية إلى نطاق الامة .

٦ ــ **نظرة الاسماعيلية الى الخلافة :**

تعتبر فرقة الاسماعيلية من فرق الامامية التي ظهرت كقوة سياسية في القرن الاول الهجري وقد حافظ التشيع في النصف الاول من القرن الاول الهجري على طبيعته غير الدينية ولم تتأثر بافكار اجتماعية (٤) ودينية لان الخلاف بين المسلمين ينحصر في نقطة واحدة ليست من صميم الدين في شيء انما كان الاختلاف حول الامامة لان الامامية جعلوا الامامة حقاً شرعياً للامام علي بن ابي طالب ولابنائه من بعده ، فمن الطبيعي ان لايعترفوا بغير ذلك فكان الخلاف بين جمهور المسلمين من أهل السنة والشيعة حول الامامة فقط ولكن بمرور الزمن اصبح الخلاف اصلا من اصول العقيدة الشيعية

---

(١) الهمداني : التوحيد والعدل حـ ١٥ ص ٢٥٢ .

(٢) الهمداني : التوحيد والعدل حـ٢٠ القسم الاول ص ٥٢ .

(٣) الاشعري : مقالات الاسلاميين حـ١ ص ٤٦١.

(٤) برنارد لويس : اصول الاسماعيلية ، ص ٨٣ .

وفرضاً من فرائض الدين عندهم (١) . ويرى بعض المؤرخين ان (٢) الحركة الشيعية انتقلت إلى طور آخر يختلف عن طورها الاول عندما اتجهت الحركة الشيعية إلى الموالي الذين التفوا حولها وكان اغلبهم مما لم يصح اسلامهم ولم يدخل الايمان في قلوبهم من الفرس وغيرهم فكان طبيعياً ان يحدث تغيير جوهري من حيث العقائد والاغراض اذ سرعان ما ظهرت معتقدات غريبة في المذهب الشيعي متسللة من المسيحية والايرانية ، واصبحت مقاليد الحركة بيد الموالي . ولما بدأ التمايز العنصري يزول واخذ يحل محله التمايز الاقتصادي بين اصحاب الامتيازات والمحرومين اصبح الشيعة لايمثلون العرب والموالي وحدهم ، بل اصبحوا لسان حال الطبقات المظلومة كلها .

ولذا فقد واجه الشيعة اضطهادات الامويين والعباسيين واصبحوا يرون ضرورة اختيار ابرزهم في الحياة العامة واكبرهم سنا والمعهم شأنا من أبناء الحسين بن علي فقد وجدوا في شخصية جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب (ت١٤٧هـ) فالتفوا حوله واعتبروه واضع اصول العقيدة الشيعية وذلك لشدة ورعه وتدينه بالرغم من انه لم يناد لنفسه اماما للشيعة ولم يقم بثورة ولم يطالب بالحكم مرة ولم يبلغ اولاده ما بلغه جعفر الصادق وانما عاشوا على تراثه الروحي الذي تركه ولذا نجد الشيعة الامامية في العراق وايران والشام يطلقون على انفسهم باصحاب المذهب الجعفري (اي انهم اتباع جعفر الصادق) . .

اعتقد الشيعة بامامة جعفر الصادق ، وان الامام بعده ابنه اسماعيل ، نص عليه باتفاق من اولاده ، واختلفوا في موت اسماعيل (٣) فمنهم من دان بصحة موته وساقوا الامامة بعد اسماعيل إلى ابنه محمد بن اسماعيل ومنهم من قال لم يمت إلا أنه أظهرت موته تقية من خلفاء بني العباس وانه عقد

(١) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ، ص ٤ .
(٢) برنارد لويس : اصول الاسماعيلية ، ص ٨٤ — ٨٥ .
(٣) الشهرستاني : جـ١ ص ١٦٨

(جعفر الصادق) محضراً واشهد عليه بالموت عامل المنصور بالمدينة (١) .

لقد انقسمت الشيعة الجعفرية بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٧ هـ إلى فرقتين وكان انقسامها بسبب الامامة . فالاغلبية نادوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسلسلوا الامامة إلى الامام الثاني عشر وهم محمد بن الحسن العسكري الذي (كما يقولون) دخل سرداباً في سامراء واختفى فيه سنة ٢٦٠هـ خوفاً على نفسه من اضطهاد العباسيين (ويقولون) أنه لايزال إلى الآن حياً وانه سيخرج من سردابه وهو (المهدي المنتظر) الذي سيملأ الدنيا عدلا ويرد الحق إلى أهله (٢) .

أما الفرقة الثانية : فهي فرقة الاسماعيلية الذين قالوا بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق فنسبت اليه الفرقة : تدعي هذه الفرقة أن جعفر الصادق نص على أن يتولى اسماعيل الامامة من بعده . ولكن اسماعيل توفي في حياة أبيه وبذلك انتقلت الامامة إلى ابنه محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق لان الامامة لاتنتقل في الاعقاب من الاب الى الابن عدا الحسن والحسين أبناء علي بن ابي طالب .

وتعتقد الاسماعيلية بوجود الامام المعصوم المنصوص عليه من نسل علي (ويتم النص في الاعقاب أي ينص الاب على امامة ابنه الاكبر) ويعتبرون الامامة ركناً أساسياً من أركان الدين فدعائم الدين هي : الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية ، والولاية هي أفضل هذه الدعائم .

والاسماعيلية يعتبرون من حيث الظاهر ان الأئمة من البشر ، ولكن في التأويلات الباطنية يسبغون عليه (وجه الله) و(يد الله) و(جنب الله) وانه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة وهو الصراط المستقيم والذكر الحكيم (٣) .

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل : ج١ ص ١٦٧ .

(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية : ص ١١ .

(٣) المصدر السابق : ص ٥٠ .

لقد أعطى الاسماعيلية الامامة مركزاً سامياً ومقدساً ويستدل من المصادر الاسماعيلية ان للامام مقاماً ودرجات كانت معروفة لديهم في دور التستر والتقية هي : —

١ — الامام المقيم : هي أعلى مرتبة وارفعها .
٢ — الامام الاساس : هو القائم باعمال الرسالة ومنه يتسلسل الأئمة .
٣ — الامام المتمم : هو الذي أتم الرسالة فهو سابعهم وآخرهم .
٤ — الامام المستقر : وهو صاحب الحق في توريث الامامة لولده .
٥ — الامام المستودع : وهو الذي يتسلم الامامة في الظروف الاستثنائية .
٦ — الامام القائم بالقوة : ناقص في ذاته .
٧ — الامام القائم بالعقل : تام في ذاته وعقله (١) .

ودان الاسماعيلية بالحلول بمعنى حلول اللاهوت في الائمة ولكن لم يصرحوا بها وإنما قالوا : بان الامام خلق من نور الله أو أن نور الله حل به وقد انتشرت فكرة الحلول بين الاسماعيلية في دور السر ثم خفت بعض الشيء في الدور الفاطمي (٢)

ولعل أول حركة اسماعيلية ناجحة هي تلك الحركة التي قامت ببلاد اليمن فان أحد الدعاة المعروف بالحسين بن حوشب الملقب بمنصور اليمن استطاع حوالي ٢٦٦هـ أن يجمع حوله عدداً كبيراً من قبائل اليمن واظهر بينهم الدعوة للامام الاسماعيلي المنتظر فاستطاع بذلك أن يؤسس باسم الامام الاسماعيلي (المنتظر) أول دولة اسماعيلية في التاريخ (٣) . . وفي نفس الفترة تقريباً قامت حركة اسماعيلية

---

(١) المصدر السابق : ص ٥١ .
(٢) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية : ص ٢٢ .
(٣) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٧٢ .

في البحرين عرفت في التاريخ بحركة القرامطة (١) ويرى بعض المستشرقين (٢) أن قرامطة البحرين يكونون حركة مستقلة تختلف عن طوائف الدعوة الاسماعيلية الاخرى من عدة وجوه فقد كان لهم رؤساء وتقاليد محلية تميزهم ولهم تاريخ مستقل ، ثم أصبحت لهم في العهود المتأخرة تنظيمات محلية خاصة كما أن تراث الاسماعيلية ينكر كل اتصال بينهم وبين القرامطة .

وهكذا نجد أن الخلافة كانت مصدر الصراعات السياسية بين المسلمين وسبب نشوء الاحزاب السياسية والفرق الاسلامية المتعددة .

---

(١) القرامطة : نسبة إلى قرمط : وهو حمدان بن الا شعث فيقال انه كان احمر البشرة ، فلقب بقرمط (كرمت) الا جر في لغة الروم مغرب ، وقيل قرمد ثم قرمط (محمد بن مالك بن أبي الفضائل اليماني كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ١٨) وقيل ان قرمط لقب رجل كان يرد الكوفة يحمل غلة السواد على حمار له واسمه حمدان . (ابن الا ثير : الكامل جـ٣ ص ٤٤٦ طبع بيروت ١٩٦٥) .

(٢) برناردلويس : اصول الاسماعيلية ص ١٦٧

الفصل الثالث

الوزارة

أصل الوزارة واشتقاقها
بداية ظهور نظام الوزارة
الوزارة في العصر العباسي
عوامل تولي الفرس الوزارة
صفات الوزير
امتيازات الوزير واختصاصاته
أثر استبداد الأتراك بالنفوذ في ضعف سلطة الوزير
الوزارة في العصر البويهي

نظرية الوزارة:

دراسة نظام الوزارة
١ — وزارة التفويض
اختصاصات وزير التفويض
٢ — وزارة التنفيذ
شروط وصفات وزير التنفيذ

الوزارة (١)

اصل الوزارة واشتقاقها :

اختلف اللغويون والمفسرون والكتاب في اشتقاق لفظ الوزارة على أقوال: فقيل أنه مأخوذ من (الوزر) (٢) (بكسر الواو وسكون الزاي) كما في قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك) (٣) وهو بمعنى الثقل لان الوزير يحمل عن الحكومة أعباء الدولة ويقوم بادارة شؤونها فيقول ابن خلدون : (ان السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلا فلابد من الاستعانة بابناء جنسه ، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده) (٤) وقيل أنه مأخوذ من(الوزر)(٥) (بفتح الواو والزاى) وهو الملجأ والمعتصم كما في قوله تعالى (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر) (٦) لان الخليفة أو السلطان يلجأ إلى رأيه وتدبيره ومعونته عند نزول الشدائد ووقوع النوائب وقيل : ان اللفظ مشتق من (الازر) (٧) وهو الظهر كقوله تعالى على لسان موسى (واجعل لي وزيراً من اهلي هرون أخي أشدد به أزري واشركه في أمري) (٨) وقيل : قد تكون الكلمة مأخوذة من (المؤازرة) (٩) وهي المعاونة لان الوزير عون الملك يحمل ثقلة

---

(١) انظر كتابنا : الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ط ٢ جامعة الموصل ٩٧٦ .
(٢) ابن منظور لسان العرب مادة (وزر) معجم متن اللغة المعجم الوسيط ، تفسير الطبرى ج ١٦ ص ٥٤٠ الفنارى رسالة في الوزارة (مخطوطة) ورقة ٣ و .
(٣) سورة الشرح اية ٩٤ .
(٤) ابن خلدون المقدمة ص ٢٠٨ .
(٥) الفخري ص ١٢١ ، الماوردى : ادب الوزير ص ٩ ، الفيروز ابادى . القاموس المحيط الحموي رسالة في الوزارة (مخطوطة) ورقة ٦ ظ ، احمد الدمنهوري نفح الوزير (مخطوطة ورقة ٢ ظ محمد السهر وردي تحرير الا حكام (ومخطوطة) ورقة ٢٢ والفناري : رسالة في الوزارة ورقة ٣ و .
(٦) سورة القيامة اية ٧٥ .
(٧) ابن منظور ، لسان العرب ، فريد وجدي دائرة المعارف ص ٧٧٤ ، معجم متن اللغة ، القاموس المحيط — القاموس الوسيط .
(٨) سورة طه اية ٢٩ .
(٩) الماوردي : الا حكام السلطانية ص ١٣ .

ويعينه برأيه ويحمل عنه أعباء السياسة (١) وقيل : ان اللفظ فارسي معرب وأصله من (الزور) (٢) وهـو عند الفرس اسم للشدة والقوة فاقتبس منهم وعرب . وكان يطلق على الوزير عند الفرس الساسانيين اسم (بزرك خرم دار) أو (بزرج خرمدار) ومعناه (كبير عوال الدولة) أو رئيس رؤسائها ووزير وزرائها (٣) كما كان اليونان والرومان يطلقون اسم (وزير الملك) على من يدبر أمره ويرجع الملك إلى رأيه وتدبيره (٤) وقد ذهب بعض المستشرقين إلى القول إلى ان اصل كلمة وزير فهلوية (أى فارسية قديمة) وهي مشتقة من لفظ (فيشيرا) Vi – Chira التي تعني الامر أو التقدير أو القاضي أو الحكم(٥) ولكن بين القضاء والوزارة فرقاً واضحاً من حيث طبيعة العمل والمسؤولية مما يحملنا على عدم موافقة المستشرفين على رأيهم في اشتقاق هذا اللفظ من هذا الأصل الفارسي القديم (٦) .

وتشير سورديل (٧) إلى أصل الوزارة فتقول أنها انتقلت إلى إمارة الحيرة فكان اللخميون بمثابة مساعدين للفرس في الحكم . وكانوا يسمون الرديف(٨) ووظيفة القائم بها يأتي بالمرتبة الثانية بعد الملك .

وهناك نص آرامي يمكن اعتباره وسطاً بين العربية والفارسية ويحوى كلمة Gazizoat وتعني (الوزير) . كما أخذ المؤرخون من هذا النص العبارة .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٤٨ ، دائرة المعارف البريطانية (مادة وزير) ج٢٣ ص ٢٢٨ . المقدمة : ابن خلدون ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٤٨ .

(٣) الطبري : تاريخ ج ١ ص ٨٦٩ ، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٨٥ .

(٤) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٩٤ .

(٥) احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٧٢ .

(٦) صبحي الصالح : النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ص ٢٩٤ .

(٧) Sourdel : LeviZirat Abbaside,p.41

(٨) الرديف (جمعها ارداف) وارداف الملوك في الجاهلية الذين كانوا يخلفوهم في القيام بامر المملكة وهم بمنزلة الوزراء في الاسلام . وكان يجلس على يمين الملك فاذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس واذا غزا الملك قعد الردف في موضعه وكان خليفته على الناس حتى يعود (ابن منظور : لسان العرب ج ١١ ص ١٣) .

السريانية (راس الكزير) واطلقوها على (رئيس الشرطة) وان كانت وظيفة (الكزير) لاتعني في الحقيقة أكثر من مساعد لرئيس القرية (١) . ونرى انه لاتوجد اية صلة بين هذه الشخصية وبين الوزير الذى كان يتولى شؤون الوزارة في الدولة الفارسية او في الدول الاسلامية كما ان مفهوم (الوزير) في اللغات الفهلوية والعبرية والارامية يختلف في خصائصه اختلافاً كلياً عن مفهوم الوزير في العصر العباسي (٢) ويتضح مما سبق ذكره ان لفظة وزير (عربية) وقد وردت في القرآن على لسان موسى (واجعل لي وزيرا من اهلي هرون اخي اشدد به ازري واشركه في امري) (٣) .

ومع ان اللفظة قرآنية الا انها بمعناها السياسي مستحدثة في الاسلام وان عرفت عند بني اسرائيل وقدماء المصريين قبل الفرس الفهلويين (٤) وظهر منصب الوزارة عند اللخميين في الحيرة — كما ذكرنا سابقاً — ولكن على نطاق محدود مما دعا اللغويين العرب إلى الاجماع بان لفظة وزير عربية وانها ليست من مستحدثات العصر العباسي الاول ، لان هذه اللفظة وردت في القرآن وفي حديث السقيفة حيث قال ابو بكر الصديق للانصار (منا الامراء ومنكم الوزراء)(٥) ويقول ابن خلدون (كان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون ابا بكر وزيره) (٦).

وقد استعملت هذه اللفظة ايضاً في العصر الاموى حيث يقول ابن الاثير (ان زيادا كان يسمى وزير معاوية) (٧) الا انها لم تستعمل بمفهومها الوظيفي وسلطاتها المعروفة المحددة الا في العصر العباسي الاول .

---

(١) Sonrdel, Apte, Cit, P,45

(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٣) سورة طه آية ٢٩ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٩٧.

(٥) احمد الحموي : مجموع الرسائل (مخطوطة) ورقة ٢٢ ظ ، ابن منظور : لسان العرب ، ابن الاثير الكامل جـ٢ ص ١٢٣ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٨ .

(٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ٢٤٤ .

بداية ظهور نظام الوزارة :

ان وظيفة الوزير قديمة وقد عرفت في عصورها قبل الاسلام كما عرف هذا المعصب عند قدماء المصريين وبني اسرائيل والفرس ، فكان يوسف يحمل لقب (العزيز) ويمكن اعتباره مرادفاً للقب (الوزير) كما كان آصف بن برهنة وزيراً لسليمان بن داود (١).

وكان ملوك العرب قبل الاسلام في اليمن والحيرة والشام يطلقون على من يوازرهم في اعباء الملك ب(الراهن) لانه مرتّهن بالتدبير ، واطلقوا عليه أيضاً اسم (الزعيم) لانه زعيم بصواب الرأى . وسموه أيضاً (الكافي) لانه يكفي الملك مهمات الامور ولقبوه أحياناً (الكامل) لانه يجب ان يكون كامل الفضائل (٢)

وكان هرون وزيراً لموسى ، فقد دعا موسى ربه فقال : (واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي (٣)) . وقال تعالى مستجيباً لموسى (وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) (٤) اى ان الله تعالى شد عضد موسى باخيه ليعينه في تحمل أعباء النبوة.

وكما يقول صاحب كتاب منهاج الوزارة فان (أعلى المناصب وافضل الرتب النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة وان جميع الملوك والسلاطين يحتاجون إلى الوزراء حتى الانبياء والرسل مع علو شأنهم وسمو سلطانهم فانهم يحتاجون اليهم) (٥)

وكان الصحابة في عهد الرسول يعاونونه في ادارة شؤون الدولة المختلفة (فكانوا يقومون بمهام الوزراء وان لم يتلقبوا بهذا اللقب ومن هذه المهام التي قام بها الصحابة كتابة مانزل به الوحي . فمن كتب للرسول علي وعثمان ، كما كان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان يكتبان له بعض الكتب التي ترتبط بمصالح الدولة وكان المغيرة بن شعبة والحسن بن نمر يكتبان الكتب

---

(١) احمد الحموي : مجموعة رسائل (مخطوطة) ورقة ٢٢ و

(٢) محمد احمد : برائق الوزراء العباسيون ص ٤ .

(٣) سورة طه ، اية ٢٩ .

(٤) سورة للفرقان ايه ٢٥ .

(٥) احمد محمود الجيلي : منهاج الوزراء في النصيحة (مخطوط) ورقة ٨ـ

التي تتعلق بمصالح عامة الناس وكتب عبدالله بن الارقم والعلاء بن عقبة الكتب التي تختص بالمداينات والعهود والمعاملات وتولى زيد بن ثابت الكتابة إلى الملوك إلى جانب كتابة مانزل به الوحي وكان حنظلة بن الربيع كاتباً احتياطياً ينوب عن كل كاتب اذ غاب عن عمله (١) .

ويذكر الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس ان رسول الله قال (ان الله ايدني بأربعة وزراء اثنين من اهل السماء جبريل وميكائيل ، واثنين من اهل الارض ابي بكر وعمر (٢) تولى هؤلاء الصحابة مهام الوزير وان لم يكن يطلق عليهم هذا الاسم لذهاب رتبة الملك بسذاجة الاسلام (٣) .

وظهرت الوزارة في صدر الاسلام في صورة غير مباشرة فكان عمر بن الخطاب بمثابة وزير لابي بكر ، بينما كان عثمان وعلي وزيري عمر واصبح مروان بن الحكم بمثابة الوزير في خلافة عثمان (٤) .

وكان الخليفة في صدر الاسلام لايستقل بالسلطة وتصريف الاعمال شأنه في ذلك شأن النبي فقد كان يستعين في ادارة امور الدولة بصحابة رسول الله واعيان المدينة ورؤساء القبائل فكانوا يجتمعون في مسجد المدينة ولا يقطع الخليفة امراً دون استشارتهم فاصبح هؤلاء بمنزلة الوزراء وان لم يطلق عليهم هذا اللقب (٥) .

فلما تولى بنو امية الخلافة واتسعت الدولة الاسلامية احتاجوا الى من يستشيرونهم ويستعينون بهم في امور الدولة السياسية والادارية فاتخذوا بعض المستشارين والمعاونين من الامراء ، والولاة اصبحوا بمثابة الوزراء في العصور

---

(١) برانق : الوزراء العباسيون ص ٣٣ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٢٥ ، احمد الجيلي : منهاج الوزراء ورقة ٩ هـ اسلم أبن سهل الرزاز الواسطي ، تاريخ واسط ص ٢٠٦ ، تحقيق كوركيس عواد مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٧ .

(٣) ابن المقفع : التبر المسبوك (مخطوط) ورقة ٤ ابن خلدون المقدمة : جـ١ ص ٤٢٠

(٤) الشيخ علي بن مجد الدين (مخطوط بالفارسية) تحفة الوزراء في المواعظ ورقة ٢٦ والسيوطي. حسن المحاضرة ص ١٢٥ ، الرافعي : حضارة العرب ص ١٢٢ .

(٥) اليوزبكي : الوزارة في العصر العباسي ص ٢١.

التالية فكانوا ينظرون في شؤون الحكم والادارة والشؤون المالية وديوان الجند (١) .

ولم تظهر الوزارة في العصر الاموي بالصورة التي ظهرت عليها في العصر العباسي فكان للخلفاء الامويين كتاب يتولون الكتابة للخلفاء فكان الكاتب بمثابة (امين سر الخليفة وصاحب ديوانه وسجلاته) (٢) وكان الكاتب من ابرز الموظفين في العصر الاموي وكان بمثابة الوزير ، اذ يعاون الخليفة في شؤون الدولة ويحفظ سره (٣) ولذا كان في مأمن من الاخطار التي هددت الوزير العباسي احياناً .

وبعد ان كان الكاتب في عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين يتولى كتابة الرسائل والحسابات وضبط دواوين الدولة ومراسلاتها اصبح في العصر الاموي يتولى اسرار الدولة وينشيء رسائلها وكان اهل الذمة يتولون وظيفة الكتابة اذ ان اعمال الدواوين كانت في مطلع العصر الاموي تكتب بلغات مختلفة حتى عربت الدواوين في عهد عبدالملك بن مروان (٤) .

وكان يشترط في الكاتب ان يكون ذا ثقافة واسعة في اللغة العربية وآدابها . مطلعاً على سير الاولين واخبار الاقدمين واحوالهم وسياساتهم وقد نبغ في العصر الاموي جماعة من الكتاب (امناء السر) نذكر منهم ، ابا العلاء سالم بن عبدالله كاتب الخليفتين هشام بن عبدالملك والوليد بن يزيد وهو استاذ عبدالحميد الكاتب شيخ الكتاب في العصر الاموي .

ولم يطلق خلفاء بني امية على امين سرهم لقب الوزير بل لقب كاتب او مشير وعليه فلم تظهر الوزارة رسمياً الا في عهد بني العباس (٥) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ١ص ٤٢٢.
(٢) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ص ١٥٨.
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ص ٤٥٢.
(٤) حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ص ١٨٤.
(٥) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة ، ص ٣٢ .

ويشير المسعودى إلى هذا بقوله : كانت ملوك بني امية تنكر ان تخاطب كاتباً لها بالوزارة وتقول : الوزير مشتق من المؤازرة ، والخليفة اجل من ان يحتاج إلى المؤازرة (١) ويذكر العمري في كتابه مسالك الابصار (لم تكن للوزارة رتبة تعرف مدة بني امية وردحاً من دولة السفاح بل كان كل من اعان الخلفاء على امرهم يقال له وزير بمعنى انه مؤازر له لا أنه متولي رتبة خاصة يجرى لها قوانين وتنظم بها دواوين (٢) ولا يستثنى من هذا الا زياد بن ابيه اذ لقبه بعض الناس بالوزير في عهد معاوية بن ابي سفيان (٣).

ولما قامت الدولة العباسية واتسعت دواوينها وتشعبت مصالحها وشؤونها عظم شأن الوزير (وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقابة وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطته في قسم الاعطيات بين الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، واضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون اسرار السلطان . ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الضياع والشياع ورفع اليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة)(٤).

وتحدث صاحب الفخري عن الوزارة في العصر العباسي الاول فقال : (والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس فاما قبل ذلك لم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشية فاذا حدث امر استشار ذوي الحجى والاراء الصائبة فكل منهم يجري مجرى وزير) ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي

---

(١) المسعودي : التنبه و الاشراف ص ٢٩٤.

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة جـ٢ ص١٢٥.

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٣ ص٢٤٤—٢٤٥ اليعقوبي : تاريخ جـ٢ص ٢٥٩

(٤) ابن خلدون : المقدمة جـ ١ ص٤٢٣.

الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً او مشيرا (١) وذكر ابن خلكان انه (لم يكن قبل ابي سلمة الخلال وزير ابي العباس السفاح من يعرف بهذا النعت لافي دولة بني امية ولا في غيرها) (٢).

ومن هذا النص يتضح أن أبا العباس كان أول خليفة أحدث منصب الوزارة وولى بعض الفرس هذا المنصب تقديراً لجهودهم في معاونة بني العباس على اقامة دولتهم (٣) .

واستمر نظام الوزارة في الدولة العباسية ــ كما سنرى ــ وفي بلاد الاندلس والدولة الفاطمية وغيرها من الدول الاسلامية وان اختلف شكل الوزارة وسلطة الوزراء .

الوزارة في العصر العباسي الاول : ١٣٢ ــ ٢١٨ هـ

عوامل تولي الفرس الوزاره .

قاوم الموالي الفرس السياسة العربية التي انتهجتها الخلافة الاموية ، وساندوا كل حركة ثورية ترمي إلى القضاء على الخلافة الاموية العربية ليصبحوا اعمادها وأصحاب النفوذ الحقيقي فيها ومضى الموالي في تدبير خططهم باحكام وسرية تامة من أجل اسقاط الدولة الاموية ، وظهرت الدعوة العباسية في خراسان التي كانت مركزاً للعناصر الفارسية المتطرفة في عدائها للعرب عامة ولبني أمية خاصة لانهم حرموهم من السيطرة على المناصب الخطيرة في الامبراطورية العربية (٤) ومن المساواة مع العرب في الحقوق والواجبات .

ويتضح دور الفرس في قيام الدولة العباسية بالخطبة التي ألقاها داؤد ابن علي العباسي في الكوفة يوم البيعة لابي العباس بالخلافة فقد قال : (ياأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا

(١) ابن طباطبا : الفخري ص١٢١ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص١٢٢ .

(٣) Sourdel , P. 65

(٤) اليوزبكي : الوزراء في الدولة العباسية ص ٢٦ .

من أهل خراسان فاحيا بهم حقنا وابلج بهم حجتنا واظهر بهم دولتنا) (١) .

كانت كراهية الفرس للامويين ترجع إلى نقمتهم على العرب الذين قضوا على الدولة الفارسية والدين المجوسي . وان في أقوال نصر بن سيار التي يخاطب بها القبائل العربية يمانية ونزارية ويحذرهم من الموالي الفرس خير مايؤيد رأينا :ـ

ابلغ ربيعة في مـرو واخـوتهـم فليغضبوا قـبل الا ينفع الغضب

وليغضبوا الحرب ان القوم قد نصبوا حرباً يحرث في حافاتها الحطب

الى ان يقول :

قـوم يـدينون دينا مـاسمعت به عـن الرسـول ولم تنزل به الكتب

فمن يكـن سائلا عـن اصل دينهم فان ديـنـهم ان تقتـل العـرب(٢)

وقد اشترك الفرس بعد قيام الدولة العباسية في الادارة والقيادة جزاء مساهمتهم في قيامها حتى قال الجاحظ : (ان دولة بني أمية عربية،ودولة بني العباس اعجمية) (٣)وكان الخراسانيون يقولون : نحن اهل هذه الدولة واصحاب هذه الدعوة والانصار انصارنا (٤) .

ولم يجد العباسيون بداً من اشراك الفرس في السلطة لتحقيق التوازن بين العرب والفرس وكان تعيين الوزير من الموالي الى جانب الخليفة وهو عربي رمز هذه المشاركة الفعلية (٥) اضافة الى ان للفرس حضارة قديمة وسياسة متوارثة وهم يجيدون معاملة الملوك مما جعل الخلفاء يطمئنون اليهم ويستعينون بهم ويفضلونهم على العرب احياناً (٦) .

(١) الطبري : جـ ٩ ص ٢٧ ، ابن الاثير جـ٥ ص ١٩٧ — ١٩٨

(٢) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٣٦٨ .

(٣) الجاحظ : البيان والتبين جـ ٢ ص ٦٤

(٤) عبد الله الفياض : تاريخ البرامكة ص ٢١ .

(٥) الدوري : الشعوبية ص ٣٨ ، فليب حتي : تاريخ العرب ص ٣٦٥

(٦) برانق : الوزراء العباسيون ص ٥٩ .

وبعد قيام الدولة العباسية اطلق على ابي سلمة الخلال اسم (وزير آل محمد) واصبح وزيراً لابي العباس وقد منحه نقباء الدعوة العباسية هذا اللقب وسلموا اليه الرياسة (١).

(١٣٢ - ١٣٦هـ) = (٧٤٩ - ٧٥٤م) قبل مبايعة السفاح بالخلافة. واصبحت وظيفة الخلال تقارب الى حد كبير وظيفة الكاتب الاموي ويتضح هذا في قول المسعودي (استخارت بنو العباس تسميـة الكاتب وزيراً) (٢) ولم يحدث العباسيون في الحقيقة تغييراً ادارياً جوهرياً. بتسمية الخلال وزيراً، ولكن فكرة الوزارة العباسية واشتراك الفرس في السلطـة ادى بمـرور الزمن الى ظهور نظـام الوزارة على صورتـه الكاملة، والى رسوخه كأساس للادارة العباسيـة (٣). وتاريخ الوزارة في العصر العباسي الاول يدلنـا على ان معظم من اختيروا لمنصب الوزارة كانوا من الفرس وقد روعي في اختيارهم الكفاءة في الكتابة والادارة فكان ابو سلمة الخلال فصيحاً عالماً بالاخبار والاشعار والسير والجدل*. كما اهتم البرامكة بالعلوم والاداب، وقال الموريانى: (ليس من شيء الا وقد نظرت فيه الا الفقه، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب وحتى السحر) (٤).

لقد تأثر خلفاء بني العباس بعد مشاركة الفرس لهم في الحكم بأنظمة الاكاسرة فقد استحدث في بلاط الخلفاء مراسيم اكاسرة الفرس: وظهر الطابع الفارسي في مظاهر الحياة الخاصة والعامة وتضاءلت التقاليد العربية في الادارة والسياسة وحلت محلها الانظمة الفارسية كما اقتبس العباسيون كثيراً من الافكار الساسانية والنظم الاجتماعية والازياء الفارسية (٥).

(١) الجهشياري: ص٨٤.
(٢) المسعودي: التنبيه والاشراف ص ٢٩٤.
(٣) الدوري: العصر العباسي الاول ص ٦٢.
(٤) الجهشياري: ص ٩٧، ابن خلكان: وفيات الاعيان جـ ١ص ٢١٦.
(٥) الطبري: جـ٣ ص ٣٧١ الطبعة الحسينية.

Nicholson :Aliterary history of the Arabs، p 256

ولا ريب في استخدام الفرس في الوزارة كان له الاثر الاكبر في افساح المجال للفرس للاسهام في مناصب الدولة الخطيرة ، واضعاف نفوذ العرب تدريجياً وابعادهم من المراكز السياسية والعسكرية والادارية البارزة واحلال الفرس محلهم ويبدو ان هذا الاتجاه كان نتيجة ميل معظم الوزراء العباسيين إلى اعادة السلطان الفارسي .

وقد كان اختيار الخلفاء وزرائهم من الفرس نتيجة (دوافع سياسية) مثل اختيار يعقوب بن داؤد اذ اعتقد الخليفة المهدي ان استيزار يعقوب وسيلة حسنة لزيادة التفاهم والتعاون مع العلويين ، وربما كان اختيارهم نتيجة كفاءتهم في ميادين الادارة والسياسة او لمشاركة الخليفة احياناً في مجالس اللهو. كما ظهر تدخل النساء في اختيار الوزراء من الفرس اذ كانت بعض امهات الخلفاء العباسيين من امهات الاولاد الفارسيات مما أدى إلى وصول الفرس إلى مراكز الادارة والقيادة والسياسة في الدولة العباسية ، واصبحت عادة استخدام الفرس في الوزارة والمناصب الاخرى في الدولة مألوفة لدى خلفاء العصر العباسي الاول (١) .

صفات الوزير :

يتفق اغلب الكتاب والمؤرخين في تحديد الصفات الواجب توفرها في الوزير فيذكرون انه يجب ان يتصف بالعلم والبلاغة والصدق والامانة والادب وخير نص بين ايدينا مارواه الماوردي عن المأمون انه كتب يحدد صفات الوزير فقال : (اني التمس لاموري رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذاعفه في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب : واحكمته التجارب ، اذا اؤتمن على الاسرار قام بها ، وان قلد مهمات الامور نهض فيها يسكته الحلم وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة ، له صولة الامراء واناة الحكماء وتواضع الحلماء ،وفهم الفقهاء ،ان احسن اليه شكر ، وإن

(١) انظر الوزارة العباسية ص ٣٢.

ابتلى بالاساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه (١) ويشير صاحب الفخري إلى مكـان الوزير ومؤهلاته بقوله : (الوزير وسيط بين الملك ورعيته فيجب ان يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والامانة والصدق رأس ماله . والكفاءة والشهامة من مهماته ، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته ولا يستغنى أن يكون مفضالا مطعاما ليستميل بذلك الاعناق وليكون مشكوراً بكل لسان ، والرفق والاناة والتثبت في الامور والحلم والوقار والتمكن ونفاذ القول مما لابد منه (٢) .

ويضيف اليه صاحب الآثار : النزاهة وعزة النفس وسداد الرأي والفهم والعلم بالامور السياسية والناموسية والضوابط السلطانية والاحوال الديوانية والأمور الحربية ويجب أن يكون قد بلغ اشده وكثرت تجاربه وامنت خيانته وتحققت امانته ، كتوماً للاسرار .... حسن التأني في مخاطبة الملوك ... ومالكا لزمام المنثور والمنظوم ، ماهرا في الاستيفاء والمقابلات قويا في صناعة الحساب ... خبيرا في علم التواريخ والهندسة ، معمر الجهات والاعمار ، مثمراً لاصناف الاموال ... مقتصداً في وجوه صرفها ونفقاتها ، ولا ينبغي أن يكون حسوداً ولا حقوداً ولا غادراً ولا شرها في أكل ولا شرب ولا نكاح (٣) .

وتحدث المسعودي عن صفات الوزير فقال : (فلم تكن الخلفاء والملوك تستوزر إلا الكامل من كتابها ، والأمين من خاصتها ، والناصح الصدوق من رجالها،ومن تأمنه على اسرارها وأموالها ، وتثق بحزمه وفضل رأيهوصحة تدبيره في أمورهـا) (٤) ويحـدد الماوردي ثماني صفـات يجب

---

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢١ ؛ ابي سالم العقد الفريد للملك السعيد ص ١٤٢ .

(٢) الفخري ص ١٢٠ - ١٢١

(٣) الحسن بن عبدالله : اثار الاول ص ٦٢ - ٦٤ احمدالدمنهوري : نفح العزيز (مخطوط) ورقة ٧ -٨ وظ التمثيل والمحاضرة ص ١٦٧ ،الجيلي ورقة ١٥ ظ ابن الخطيب السلماني / اداب السياسة في الوزارة ورقة ١٣و

توفرها في الوزير (أولهـــا الامانة حتى لايخون فيمـــا أؤتمن ، وثانيها صـــدق اللهجـــة حتى يوثـــق بخبره ، وثالثهـــا قلـــة الطمع حتى لايرتشي ، ورابعها أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء . وخامسها أن يكون ذكوراً لما يؤديه للخليفة وعنه ، وسادسها الذكاء والفطنة حتى لاتدلس عليه الامور فتشتبه ، وسابعها أن لايكون من أهل الاهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل ، وثامنها الحنكة والتجربة التي تؤدي به إلى صحة الرأي وصواب التدبير) (١) .

وكان حكماء اليونان يعرفون فضل منصب (الوزارة) ويبرزون أهميتها من الشرائع والسنن ، ويختارون الوزراء من الأسر الشريفة والبيوت العريقة . أما الفرنج فكانوا يشترطون في الوزير أن يكون قديم النعمة ، بعيد الهمة ، ناهراً للهوى ، جليل القدر ، رحيب الصدر ، مشهود العفة ذا خبرة في المدخل والمخرج ، مؤثراً للعامة ، صادعاً بالحق ، حافظاً للاسرار مؤثراً للابرار مبايناً بطبعه لخلق الاشرار (٢) .

وتحدثت كتب العجم عن وزراء الملوك فقالت : (كتاب الملوك عينهم المبصرة وآذانهم الواعية والسنتهم الشاهدة ، لانه ليس أحد أعظم سعادة من وزراء الملوك إذا سعدت الملوك ولا أقرب هلكة من وزراء الملوك إذا هلكت الملوك ، فترتفع التهمة عن الوزراء إذا صارت نصائحهم للملوك نصائحهم لانفسهم ، لان زوال الفتهما زوال نعمتهما ، وان التئام الفتهما صلاح خاصتهما) (٣) .

ومن الآداب التي يجب أن يتصف بها الوزير : ان ليس له أن يذكر في مجلس أمير المؤمنين شيئاً إلا مايسأل عنه أو يورد قولاً في أخبار أو مطالعة إلا ماإستؤذن فيه وسبيله أن يخفف صوته في حديثه ومحاورته ولا يرفعه إلا

(١) الماوردي: الاحكام السلطانية ص٢٦—٢٧، ابو يعلي : الاحكام السلطانية ص١٥.
(٢) ابن الخطيب السلماني: اداب السياسة في الوزارة ورقة ١١—١٣ و ظ
(٣) الابوصيري : آداب الوزارة(مخطوط)ورقة ٦ ظ، ابن قتيبة: عيون الاخبار ح١ص٤٧.

بمقدار السماع الذي لايحتاج معه إلى استفهام أو استعادة ... وأن يقل الالتفات إلى جانبيه ووراثه والتحريك بيديه أو شيئاً من أعضائه أو رفع رجل للاستراحة عند أعيائه ، وأن يغض طرفه عن كل مرأى إلا شخص الخليفة وحده ، وأن لايسار احد في مجلسه ، ولا يشير اليه بيده ولا عينه ، ولا يقرأ رقعة ولا كتاباً يوصلان إليه بين يديه ، إلا مااحتاج إلى قراءته عليه وأن يجعل وقوفه في وضع رتبته اللهم الا أن يدعوه الخليفة إلى سر ... وإذا خرج جعل خروجه تراجعاً إلى ورائه لئلا يوليه ظهره (١) .

لذا وجب على الوزير أن يراعي الملك والرعية لرضاهم ويؤيد ذلك الماوردي بقوله : (الوزير في منصب مختلف الأطراف يدبر غيره من الرعايا ويتدبر بغيره من الملوك ، فهو سائس ومسوس ، يقوم بسياسة رعيته ، وينقاد لطاعة سلطانه فيجمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع فشطر فكره جاذب لمن يسوسه وشطره مجذوب بمن يطيعه ، لان الناس بين سائس ومسوس ، وجامع بينها الوزير ، وله هذه الرتبة الجامعة فهو يجمع ماأئتلف من أحكامها ويستكمل ماتباين من أقسامها ، وبيده تدبير مملكته ، صلاحها مستحق عليه وفسادها منسوب اليه يؤخذ بالاساءة ولا يقيد له بالاحسان ، تلان له المبادىء بالارتحاب وتشدد عليه الغايات بالاعتاب (٢) . فبهذه الصفات والاداب يستطيع الوزير أن ينال القرب والرضى من السلطان والرعية معاً .

امتيازات الوزير واختصاصاته :

اتصفت مراسيم تعيين الوزير في العصر العباسي الاول بالفخامة والعظمة فاذا رشح أحدهم للوزارة ،أرسل الخليفة اليه مرسوماً مكتوباً ، يحمله غالباً أميران من أمـــراء الدولة ، فيقصد الوزير بعد استلامه المرسوم إلى دار الخلافة وبين يديه القواد والحجاب والغلمان ويقف الوزير عند (باب الحجرة) (٣)في قصر

(١) الصابىء : اداب الوزارة (مخطوط) ورقة ٦ ظ ،ابن قتيبة عيون الاخبار ج١ ص ٤٧ سنة ١٩٦٦ ، ابن المقفع : التبر المسبوك (مخطوط) ورقة ٣ ظ

(٢) الابوصيري : اداب الوزارة(مخطوط) ورقة ٧ و ٠

(٣) باب الحجرة : هي موضع بدار الخلافة وهي دار عظيمة الشأن عجيبة البنيان فيها يخلع على الوزراء واليها يحضرون في ايام المواسم للهناء (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص ٤٤٤)

الخلافة فيقدمه الحاجب إلى الخليفة ويمثل بين يديه فيؤدي فروض الطاعة (وهو أشبه باليمين حالياً أمام رئيس الدولة) ويتجاذب الحديث مع الخليفة لفترة قصيرة ثم يتجه إلى حجرة أخرى حيث يرتدي (الخلع السلطانية) التي كانت بمثابة (زي الوزارة) ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف ، فاذا بلغ الباب وجد فرساً شهرياً (١) بمركب مذهب (٢) ومزين بانتظاره فيمتطيه إلى دار الوزارة، ويسير في موكبه كبار الموظفين وقادة الجيش والامراء وموظفو البلاط والحجاب والحرس فاذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال وجلس يتقبل التهاني بالمنصب الوزاري ، ثم يقرأ على الناس مرسوم الخليفة بتقليده مهام هذا المنصب (٣) .

وكان اول من ابتدع منح الوزراء ثياب التشريف (زي الوزارة) . الخليفة المنصور العباسي ولم تتبع هذه المراسيم في جميع العصور العباسية (٤)

وبين ايدينا نسخ من هذه المراسيم منحت في فترات متعددة منها نسخة انشأها أبو الحسن محمد بن جعفر بن ثوابه ، وهي فصل من كتاب التولية وهذه مقتطفات منها : (ولما لم يجد أمير المؤمنين غنى عنه ولا للملك بدأ منه ، وكان كتاب الدواوين على اختلاف اقدارهم وتفاوت ما بين افكارهم مقرين برئاسته ، معترفين بكفاءته ، متحاكمين اليه اذا اختلفوا واقفين عند غايته اذا استبقوا مذعنين بأنه الحول والقلب المحنك المجرب ، العالم بدرة الحال كيف تحلب ، ووجوهه كيف تطلب ، افتضاه من غمده فعاد مع عرف من جده ، فنفذ الاعمال وكأن لم يغب عنها ، ودبر الامور وكأن لم يخل منها (٥) .

ومن الامتيازات التي يتمتع بها الوزير بعد مراسيم الاستيزار ان يبعث اليه الخليفة بالهدايا وغالباً ماتكون من الطعام والشراب والالبسة (٦) والعطور

---

(١) الشهري: وهي الفرس الفاره النادره، جمعها الشهارى .

(٢) الصابيء: رسوم دار الخلافة ص٩٦ .

(٣) ادم متز : الحضارة الاسلامية ج١ص١٥٠ ، أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص٣٥٦ .

(٤) اليوزبكي : الوزارة ص٤١ .

(٥) مسكوية : تجارب الامم ج١ ص ٤٢ .

(٦) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٣١ .

والاثاث الثمينة والثلج (١) . وكان للوزير دار مفردة في دار الخلافة وهي (دار الوزارة) يجلس فيها لمزاولة أعماله وبين يديه خاصته وحاشيته وكان يعاونه في أعمال الديوان أربعة من الكتاب (٢) . وفي مقر الوزارة عدد من الحرس لحماية الوزير والوثائق والسجلات الرسمية وكانت هذه الوثائق المحفوظة في دار الوزارة تسلم جميعها إلى الوزير الجديد . (٣)

وكان للوزير في الاوقات التي يكون فيها بدار الخلافة نائب له يقوم بدار الوزير لمهم عساه يعرض (٤) . أو في حالة غيابه يضطلع بتتميم نقصه ويتيقظ في سهوه..حتى تبرز المملكة في أتم صورتها،وتبلغ الكمال بمقتضى ضرورتها .(٥)

ومن الامتيازات التي شرف بها الوزير في العصر العباسي الاول ماخصصه له الخليفة من دار خاصة يسكنها ، واذا عزل تركها للوزير الجديد (٦) وكذلك الحرس ، فقد كان يقف على باب دار الوزير كثير من الحرس يزيد عددهم على الثلاثين في النوبة الواحدة (٧) وكان في مجلسه غلمان مسلحون يسيرون بين يدي الوجوه من الناس ويخرجون من بين يدي الوزير حاملين سيوفهـــم (٨) .

وكان خلفاء بني العباس يقطعون وزراءهم الاقطاعيات بدلا من المرتبات وبلغت ايراداتها أحياناً مائة وسبعين الف دينار (٩) . واختلفت مرتبات الوزير باختلاف العصور والوزراء والخلفاء . ولم تكن هذه الاموال عادة تكفي

---

(١) Sourdel, Levizirat Abbaside P.676.

(٢) ابن الاثير : الكامل جـ٨ ص٦ ـ ٧ ،الصابي : الوزراء ص٢٩١ ، مؤلف مجهول كتاب الحدائق والعيون ص٥٥٩ .

(٣) اليوزبكي :الوزارة ص٤٣ .

(٤) الفخري ص٣٩٢ ، المقريزي : المواعظ والاعتبار جا ص١٥٦ .

(٥) ابن الخطيب السلماني آداب السياسة (مخطوط) ورقة ١٤ و.

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جا ص ١٠٥ – ١٠٦

(٧) الجهشياري ص١٢١ ، ص١٢٢ .

(٨) الهمداني : تكملة تاريخ الطبري ص٦٥ ، متز : الحضارة الاسلامية ص١٥٥

(٩) الصابيء : الوزارة ص٢٥ .

لنفقاتهم الكثيرة اذ حاول الوزراء التشبه بالخلفاء في العظمة والفخامة والانفاق . ولذا كان بعض الوزراء يلجأون للحصول على الاموال بطرق غير مشروعة .
وكان الخليفة يخصص بالاضافة للوزراء مرتبات لاولادهم واخوتهم وحاشيتهم فمثلا كان القاسم بن الوزير عبيد الله بن سليمان يتسلم خمسمائة دينار مشاهرة . وكان ولد الوزير الخاقاني وولد الوزير الخصيبي وولد الوزير علي بن عيسى يتسلمون ٢٤ الف دينار في السنة (١) .

والدلالة على ثراء الوزراء ان الرشيد عندما نكب البرامكة واستصفى أموالهم عدا القصور والضياع والاقطاعيات وما انفقوه لبذخهم بلغت من الاموال ٢/٤٠٠ مليون درهم فقد استصفى ٦٠٠ الف من يحيى و ١/٢٠٠ مليون من جعفر و ٦٠٠ الف من الفضل (٢) ومن امتيازات الوزير (الالقاب) وقد اختلفت باختلاف العصور والوزراء والخلفاء وأول من اشتهر بحمل الكنية أو اللقب أبو سلمة الخلال الذي لقب بوزير آل محمد (٣) . ولقب الخليفة المهدي وزيره يعقوب بن داؤد (الاخ في الله) (٤) وكان من مظاهر تعظيم الرشيد لوزيره جعفر البرمكي ان لقبه ب(السلطان) (٥) ولقب الفضل بن الربيع بلقب (مولى أمير المؤمنين) وكان هذا اللقب يحمله ابوه قبلا . ولقب الوزير علي بن عيسى وابن مقلة وابن الفرات به ايضاً ، وكان حامد بن العباس يحمل لقب (المولى والوزير) (٦) ولقب المأمون وزيره الفضل بن سهل (بذي الرئاستين) ولقب أخاه الحسن بن سهل ب(ذا الكفايتين) (٧) ولقب المعتمد على الله وزيره صاعد بن مخلد ب(ذا الوزارتين) اشارة إلى وزارة المعتمد والموفق (٨) وقد

---

(١) مسكويه : تجارب الامم ج١ ص١٥٤، ص١٥٩ .
(٢) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ج٢ ص١٤٤ .
(٣) الصابىء : رسوم دار الخلافة ص١٢٩ .
(٤) الاخ في الله : ولعل استعمال هذا اللقب ربما جاء من الاية الكريمة (انما المؤمنون اخوة) وهو اعتبار الجمع بين العباسين والعلويين الذين هم بحكم الاسلام اخوة .
(٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج٥ ص٤٤٨ ،ج٩ص٤٠٣ - ٤٠٤ .
(٦) الصابىء : رسوم دار الخلافة ص١٣٠ .
(٧) المصدر السابق ، القلقشندي ج٥ص٤٤١ .
(٨) حسن الباشا :الالقاب الاسلامية ص٦٠ .

تلقب كل من القاسم وابنه الحسين بلقب (والي الدولة وعميد الدولة) بسبب خدماتهما للدولة (وقد نقش هذ اللقب على الدراهم والدنانير وكان اول وزير نقش اسمه على السكة هو جعفر البرمكي الذي كان يشرف على دار سك النقود (١)

ففي سنة ٣١١هـ كان مؤنس الخادم يتمتع بنفوذ كبير أيام خلافة المقتدر في الشؤون الادارية والعسكرية ولقبه الخليفة (بالمظفر) . (٢)

وفي أواخر القرن الرابع الهجري تعددت القاب التفخيم والتعظيم للوزراء ففي عام ٤١١هـ أكرم الخليفة وزيره ولقبه بوزيرالوزراء (٣) وفي سنة ٤١٦هـ خلع جلال الدولة البويهي ببغداد على وزيره ولقبه (علم الدين سعد الدولة أمين الله شرف الملك) (٤) وكان هذا الوزير أول من حمل كثيراً من الالقاب . ومع ذلك لم يبلغوا من القوة ماكان عليه الوزير في العصر العباسي الاول .

وكان من مظاهر تكريم الخليفة لوزيره أن يعوده في داره في حالة مرضه فقد عاد الخليفة المهدي وزيره ابا عبيد الله ، كما زار الخليفة المتوكل وزيره عبيد الله بن يحيى وهذه الزيارة في الواقع مظهر لتقدير الخليفة لوزيره (٥) .

وكان الوزير يتحدث باسم الخليفة خلال زيارة وفود وسفراء الدول الأجنبية ويجلس بالقرب منه في الاحتفالات الرسمية والشعبية ويرافقه في سفره ويحضر معه الاجتماعات والمحاورات الفلسفية (٦) .

هذه الامتيازات جعلت من الوزير الشخص الثاني في الدولة ، فكان يتمتع بها دون سائر موظفي الدولة ولهذا ارتفعت منزلته وزاد نفوذه بحيث أخذ ينافس الخليفة احياناً في القوة والسلطان مما جعل بعض الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم (٧) .

---

(١) Sourdel P. 679

(٢) الصابىء : رسوم ص١٣١ ، حسن الباشا : الالقاب ص٦١ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم جـ٥ ص١٦٨ .

(٤) المصدر السابق جـ٥ ص١٧٣ .

(٥) Sourdel, P. 682

(٦) Jaseph Hell, The Arab Civilization. P. 73

(٧) اليوزبكي : الوزارة ص٥٠

لم يظهر نظام الوزارة في شكله الكامل في أول العصر العباسي بل كانت سلطات الوزير لاتتعدى المشورة وابداء الرأي وتنفيذ أوامر الخليفة ثم نمت وتطورت واصبح الوزير يشرف على الشؤون المالية وعلى الدواوين والجيش (١) .

ويحدد ابو يعلى اختصاصات الوزير وواجباته بقوله : (والوزير وسيط بينه (الخليفة) وبين الرعايا والولاة يؤدي عنه ماأمر وينفذ ماذكر ويمضي ماحكم ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش والحماة ، ويعرض عليه ماورد من مهم وتجدد من حدث ملم ليعملوا فيه بما يؤمر به فهو معين في تنفيذ الامور ، وليس بوال عليها ولا متقلد لها ، فان شورك في الرأي كان باسم الوزارة اخص وأن لم يشترك فيه كان باسم الوساطة والسفارة اشبه) (٢) .

اختلفت ابعاد وحدود سلطة الوزراء تبعاً لشخصية الخلفاء ، وكان كثير من الوزراء على جانب كبير من النفوذ والسلطة حتى اصبح الوزير هو المرجع الاعلى لشؤون الدولة (٣) . وكان معظم الخلفاء يفوضون وزراءهم في حكم الدولة فكان الوزير يقوم بتدبير الملك وعرض الجيوش وتوفير الاموال والاشراف على الجباية واجراء رسوم الخلافة واقامة العدل والاشراف على الادارة (٤) .

كانت هذه هي اختصاصات الوزير في مطلع العصر العباسي الاول وقد تطورت هذه الاختصاصات باستقرار نظام الخلافة وتطور النظم الادارية وفي ذلك يقول ابن خلدون فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ،وتعينت مرتبته في الدولة ،وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في الحسبان لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه واضيف اليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون اسرار

---

(١) اليوزبكي : الوزارة ص ٥٠

(٢) ابو يعلى : الاحكام السلطانية ١٥

(٣) Sourdel, P. 73

(٤) لوبون : حضارة العرب ص١٧٣ ، السلماني آداب السياسة ورقة ٣و.

السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الضياع والشياع ،ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعي جعفر البرمكي (بالسلطان) أيام الرشيد مما يبرز ازدياد نفوذه .(١)

اثر استبداد الاتراك بالنفوذ في ضعف سلطة الوزراء :

يعتبر عصر المعتصم سنة ٢١٨ – ٢٢٧هـ=٨٣٣ – ٨٤٢م بداية النفوذ التركي في الدولة العباسية وكانت الظروف السياسية هي التي أوحت إلى المعتصم استخدام الاتراك في الجيش ومصالح الدولة ،وكثر عددهم وقويت شكيمتهم حتى بلغوا سبعين ألفاً (٢). وكانوا قد قدموا من بلاد التركستان وأدت سذاجتهم وبدائيتهم إلى الاستخفاف بسلطان الخلافة وصاروا يستهترون بارواح الناس مما اضطر المعتصم إلى بناء سامراء فسكنها بعسكره سنة ٢٢١هـ وادى التغاضي عن عبثهم واستمرار أذاهم للناس إلى ازدياد نفوذهم حتى أصبحوا قوة خطيرة واصبح الوضع ينذر بسوء الحال (٣)

وبدأ نفوذ الخلفاء يتقلص بسبب اتساع سلطان الاتراك في شؤون الدولة فاستبدوا بالخليفة حتى أخذوا يتدخلون في اختيار الخلفاء ووزرائهم وعزل بعضهم أحياناً (٤).

ظهر الاتراك كقوة سياسية وعسكرية فعالة في اختيار المتوكل واصبح أمر اصطدامهم بخليفة قوي كالمتوكل أمراً محتماً (٥) وحاول المتوكل الحد من نفوذ الاتراك ولكنهم اغتالوه فاعتبر مقتله فاتحة عهد أسود للخلافة العباسية واستمر

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج١ص٤٢٢ .

(٢) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص١٦٠ – ١٦١ .

(٣) اليوزبكي : الوزارة ص١٢٧ – ١٤٨.

(٤) العدوي : الدولتان الاسلام والروم ص١١٧

(٥) الدوري : العصور العباسية المتأخرة ص٤١ .

فيما بعد إلى عهد البويهيين (١). فقد لقي الخلفاء على يد الاتراك القتل والاعتداء والاضطهاد والتعذيب وسمل العيون وادى تسلطهم على الخلافة في العصر العباسي الثاني إلى ضعف مركز الوزير وانتقلت السلطة الفعلية إل زعماء الاتراك ومع ذلك فقد لعب الوزراء في هذا العصر دوراً خطيراً في العلاقة بين الخلفاء والقواد الاتراك وفي تسيير دفة الحكم رغم تعرضهم الدائم لسخط الخلفاء أو القواد الاتراك ذلك الدور الذي ينتهي غالباً بقتلهم .

فقد ضعفت سلطة الوزير السياسية والعسكرية نتيجة استبدادهم بالحكم ولم تعد سيطرة الوزير إلا الجباية والاشراف على الامور الادارية هذا تعيين الولاةالذين اصبح امر تعينهم يتوقف على رغبة الاتراك وعلى مقدار مايقدموه من رشوةلهم(٢) واصبح منصب الوزارة من الضعف بحيث تولاه كل من يدفع مالا أكثر فتضاءلت هيبة الوزراء واصبح نظام الادارة من أفسد النظم نتيجة تسلط النساء والجواري والاتراك على شؤون الدولة ونتيجة تعدد الوزراء إذ لم يكن اختيارهم في الحقيقة قائماً على أساس الكفاءة والمقدرة الادارية والمالية (٣) ويشير ابن الجوزي إلى ضعف منصب الوزير فيقول (فما مضت الا سنوات) حتى ابتدأت الوزارة تتضعضع ويتقلدها من ليس باهل ولاعلم لهم بها (٤) :

وضعف شأن الوزارة في عصر امرة الأمراء فلم يكن ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الاعمال وماكان له غير اسم الوزارة فقط وعليه أن يحضر في أيام المواكب إلى دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة بينما أصبح أمير الامراء وكاتبه ينظران في جميع الامور واصبح منصب الوزير فخرياً شرفياً واعتبر أحد أفراد حاشية الخليفة (٥) واصبح الوزير بعد احداث منصب امير

---

(١) احمد شلبي : التاريخ الاسلامي ج٤ص٢٩ .

(٢) اليوزبكي: الوزارة ص١٣٥ – ١٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص١٦٧ .

(٤) ابن الجوزي المنتظم ج٦ص١٩١ .

(٥) اليوزبكي : الوزارة ص١٩٤ .

الامراء مجرد كاتب يتولى الامور المالية للخليفة وحده في حين انتقلت سلطات الوزير والخليفة إلى أمير الامراء وصار له الحق في اختيار وزير للخليفة (١).

الوزارة في العصر البويهي :

لما استولى بنوبويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ قضوا على نفوذ الخلفاء العباسين وجردوهم من صلاحياتهم وامتيازاتهم، فاضطربت ادارة الدولة ونظمهاوزال نفوذ الوزراء ويؤيد ذلك ماروواه صاحب الفخري بقوله: (ولم يبق لها رونق ولا وزارة وتملك البويهيون وصارت الوزارة من جهتهم والاعمال اليهم) (٢) ويقول ابن العبري: (وفي سنة ٣٣٤ هـ ازداد أمر الخلافة ادبار ولم يبق للخليفة وزير وانما كان له كاتب يديراقطاعاتهواخراجاته(٣)وبعد أن كان للخليفة وزير وللاميركاتب انعكس الوضع فيالعصرالبويهي(٤) وتدخل البويهيون حتى في تعيين كاتب الخليفة(٥) ويؤيد المقريزي هذه الحقيقة حيث يقول (وفي خلافة المطيع لم يجعل له معز الدولة أمراً ولانهياً ولارأياً ولامكنه من اقامة وزير بل صارت الوزارة اليه يستوزر لنفسه من يريد) (٦).

ولم يكن وزراء بني بويهجميعاً ممن تتوفر فيهم القدرة الادارية والمالية والسياسية بل تولت الوزارة شخصيات ضعيفة بحيث لم يكونوا يختلفون عمن سبقهم من الوزراء في العصر التركي من حيث احتجازهم الاموال واستخدامهم أساليب المساومة والمنافسة للحصول على منصب الوزارة فاضطربت الامور وانتشرت الرشوة واستولى الوزراء على أموال الناس بالباطل وسيطروا على ضياع الخلفاء والمستثمرين .وعلى حقوق بيت المال واستولوا على ضياع الرعية (٧).

---

(١) المصدر السابق ص١٩٦ .
(٢) الفخري ص٢٣٢ .
(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٩١ .
(٤) ابن الاثير : الكامل ج٧ص١٤٧ .
(٥) متز : الحضارة الاسلامية ج٢ص٢٢.
(٦) المقريزي : السلوك ج١ص٢٧.
(٧) مسكوية : تجارب الامم ج٢ص٩٦.

وهكذا نجد أن العصر البويهي من العهود المظلمة في تاريخ الوزارة حيث لم يكن أغلب الوزراء ممن يتصفون بالكفاءة الادارية والكتابية والمالية لذلك أسرف امراء آل بويه في تولية الوزراء وعزلهم في فترات قصيرة من حكمهم حتى أنه لم يتجاوز فترة وزارة بعضهم أياماً قليلة (١).

نظرية الوزارة :

تناول الماوردي في كتابه الموسوم (الاحكام السلطانية) النظم السياسية والادارية في العصور الاسلامية من خلافة ووزارة ودواوين من وجهة النظر الاسلامية ويصبح القول أنه وضع نظرية الخلافة والوزارة بما تتفق والنظرة السنية.

ولما كان نظام الوزارة مرتبطاً بالخلافة وان الخلافة كانت تعد أساساً للنظام السياسي الاسلامي فقد رأى الفقهاء أن يضعوا أسساً شرعية للنظم السياسية والادارية المختلفة. وقد بنى الماوردي (نظرية الوزارة) على آراء من يسبقه من الباحثين وعلى تطور نظام الوزارة خلال العصور الاسلامية السابقة فنظمها ووسع حدودها لكي يوفق في ذلك بين آرائه المستمدة من الشريعة الاسلامية وواقع الامة الاسلامية.

وبين أيدينا كتاب آخر يحمل نفس الاسم (الاحكام السلطانية) للقاضي ابي يعلى محمد بن الحسين الحنبلي وهو يتفق تماماً في نظريته عن الخلافة والوزارة مع نظرية الماوردي مما يحملنا على الاعتقاد أن هذه النظرية مقتبسة من الماوردي ولو رجعنا إلى تاريخها لوجدنا أنهما توفيا في فترة متقاربة حيث توفي الماوردي سنة ٤٥٠هـ بينما توفي ابو يعلى سنة ٤٥٨هـ(١) وانهما بدأ بتأليف كتابيهما في فترة الحكم البويهي .

دراسة نظام الوزارة :

تبدأ دراستنا لنظام الوزارة كما ورد في الكتابين اللذين أشرنا اليهما بدراسة الشروط الواجب توفرها في الوزير وواجباته . ولما كانت الوزارة غير قادرة

---

(١) اليوزبكي : الوزاره ص٢٦٥ .

(٢) اليوزبكي : الوزارة ص٢٨٠ – ٢٨١ .

كالامامة أن تجمع بيدها أمور الدين والدنيا لذا أصبحت سلطات الوزير قاصرة على معاونة الخليفة في الاشراف على أموال الدولة وادارة الحكومة (١).

تحدث الماوردي وأبويعلى عن وزارتي التفويض والتنفيذ:

والحقيقة أنه من العسير معرفة أصل العبارتين حيث أن الماوردي وأبا يعلى وغيرهم من الفقهاء والكتاب لم يدرسوا اصلهما والظروف والدوافع التي أحاطت بهما فكلاهما يقول : —

ان وزير الدولة لايخلو أن يكون وزير تفويض أو وزير تنفيذ فان لكل من هذين القسمين حكماً يخصه ووضعاً يلزمه (٢).

وتقليد الوزارة جائز للخليفة من الوجهة الشرعية وذلك استناداً الى قوله تعالى على لسان موسى (واجعل لي وزيراً من أهلي هرون اخي اشدد به ازري واشركه في امري) (٣) . فاذا جاز ذلك في النبوة كان في الامامة اجوز . لان ماوكل الى الامام من تدبير الامة لايقدر على مباشرة جميعه الا باستنابة ، ونيابة الوزير المشارك له في التدبير اصح في تنفيذ الامور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه وبها يكون ابعد من الزلل وامنع من الخلل (٤) .

١. **وزارة التفويض :**

وزير التفويض : هو الذي يستوزره الامام ويفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضائها على اجتهاده .

ويعتبر في تقليد هذه الوزارة شروط الامامة (٥) الا (النسب) وحده ويحتاج (الوزير) فيها الى شرط زائد على شروط الامامة ، وهو ان يكون

---

(١) Rosonthel: Political Thought in medievel Islam P.47

(٢) اليوربكي : الوزارة ص٢٨١،ص٢٨٢.

(٣) سورة طه اية ٢٩ .

(٤) الماوردي الاحكام ص١٢ ، ابو يعلى الاحكام ص١٣ ، السهروردي تحرير الاحكام ورقة ٢٢ ظ .

(٥) شروط الامامة : الايمان . العلم . العدالة . الكفاية . سلامة الحواس والاعضاء والنسب القرشي .

من اهل الكفاية فيما وكل اليه من امري الحرب والخراج ، له خبرة بها ومعرفة بتفصيلها (١) .

اختصاصات وزير التفويض :

١. يجوز لوزير التفويض : ان يحكم بنفسه ، وان يقلد الحكام ، كما يجوز ذلك للامام .
٢. ويجوز ان ينظر في المظالم ويستنيب فيها لان شروط المظالم فيه معتبرة .
٣. ويجوز ان يتولى الجهاد بنفسه وان يقلد من يتولاه لان شروط الحرب فيه معتبرة ،
٤. ويجوز أن يباشر تنفيذ الامور التي دبرها ويستنيب في تنفيذها لان شروط الرأي والتدبير فيه معتبرة .
٥. وكل ماصح من الامام صح من وزير التفويض الا ثلاثة اشياء :

الاول : ــ ولاية العهد : فان للامام ان يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير .

الثاني : ــ ان للامام ان يستعفي الامة من الامامة وليس ذلك للوزير .

والثالث : ــ ان للامام ان يعزل من قلده الوزير ، وليس للوزير ان يعزل من قلده الامام . وما سوى هذه الثلاثة فحكم التفويض اليه يقتضي جواز فعله (٢) .

٢ ــ وزارة التنفيذ :

اما وزير التنفيذ فحكمه اضعف من وزير التفويض ، وشروطه اقل ، لان النظر فيه مقصور على رأي الامام وتدبيره ، ووزير التنفيذ وسيط بين الامام والرعية والولاة يؤدي عنه ماامر وينفذ عنهم ماذكر ويمضي ماحكم ، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش

(١) الماوردي ص٢٢ ، ابو يعلي ص١٣ .
(٢) الماوردي ص٢٥ ، ابو يعلى ص١٤ .

والحماة ، ويعرض عليه ماورد من مهم ، وتجدد من حدث ملم ليعمل فيه مايؤمر به ، فهو معين في تنفيذ الامور وليس بوال عليها ولا متقلد لها فان شورك في الرأي كان باسم الوزارة اخص ، وان لم يشارك فيه كان باسم الوساطة والسفارة اشبه (١) ولا تفتقر وزارة التنفيذ إلى تقليد ، وانما يُراعى فيها مجرد الاذن ومطلق الاسم ، ولا يعتبر في المؤهل لها الحرية الا العلم لانه ليس له ان ينفرد بولاية ولا تقليد فتعتبر فيه الحرية ولا يجوز له ان يحكم فيعتبر فيه العلم انما هو مقصور النظر على امرين :

احداهما : — ان يؤدي إلى الخليفة .

الثـانـي : — ان يؤدي عنه .

شروط وصفات وزير التنفيذ :

١. الامانة حتى لايخون فيما ائتمن فيه ، ولا يغش فيما قد استنصح فيه .
٢. صدق اللهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤديه ، ويعمل على قوله فيما ينهيه .
٣. قلة الطمع حتى لايرتشي فيمايل ، ولا ينخدع فيتساهل .
٤. ان يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء لان العداوة تمنع من التعاطف .
٥. ان يكون ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة وعنه ، لانه شاهد له وعليه .
٦. الذكاء والفطنة حتى لاتدلس عليه الأمور فتشتبه .
٧. ان لايكون من اهل الاهواء فيخرجه الهوى عن الحق إلى الباطل ويتدلس عليه المحق من المبطل .
٨. الحنكة والتجربة التي تؤدي إلى صحة الرأي وصواب التدبير ، فان في التجارب خبرة بعواقب الامور (٢) .
٩. ويجوز لوزير التنفيذ ان يكون من (اهل الذمة) ولا يجوز ذلك لوزير التفويض .

---

(١) الماوردي ص٢٥، ابو يعلى ص١٥ ، السهروردي : تحرير الاحكام ورقة ٢٤ ‌أ .
الماوردي ص٢٧ ، ابو يعلى ص١٥ .

(٢) الماوردي ص ٢٧ ، ابو يعلى ص ١٥ .

الفصل الرابع

نظام الامارة ـــ الولاية

الامارة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

الامارة في العهد الأموي

الامارة في العصر العباسي

نظرة الفقهاء إلى الامارة

نظام الامارة (الولاية) :

يرجع نظام الامارة إلى العصور الجاهلية أيام قيام الممالك العربية في جنوب الجزيرة العربية في اليمن وحضرموت وعمان ، فكان ملوك سبأ ومعين وحمير يبعثون الولاة لحكم الولايات التابعة لهم ،وكان هؤلاء الولاة يختارون من الاسرة المالكة ،وكانت صلاحياتهم تتحدد في ادارة أمور الولاية المختلفة وفي حماية الامن وقيادة الجيوش ،وقد ظل هذا النظام قائماً حتى سقوط هذه الممالك إذحل النظام القبلي محله وساد الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام.

فلما ظهر الرسول في مكة لم يستطع أن يضع نظاماً ادارياً لعدم امكانية قيام دولة فيها ، ولما هاجر إلى المدينة استطاع أن يؤسس حكومة فيها ، فجمع بيده السلطتين الدينية والسياسية ، وبعد تنظيمه لادارة الدولة الجديدة واقرار الامن اتجه إلى توسيع حركة انتشار الاسلام خارج المدينة فارسل البعوث من الشخصيات الاسلامية إلى القبائل المختلفة في الجزيرة العربية في الحجاز واليمن لترسيخ مفاهيم الاسلام ومبادئه، ولم تكن لهذهالشخصيات سلطات ادارية وسياسية وانما كانت أعمالهم تنحصر بالدرجة الاولى في نشر الاسلام ولتعليم الناس مبادىء الاسلام وجمع الزكاة والصدقات والامارة على الصلاة ،فقد عين الرسول عتاب بن اسيد والياً على مكة وخصه بدرهم واحد كل يوم (١) .

الامارة في عصر الخلفاء الراشدين :

ولما تولى أبوبكر الخلافة اتجه أول الامر إلى اقرار سلطان الاسلام فيالجزيرة العربية بالقضاء على الحركات المعادية للاسلام ولسلطة قريش والتي اطلق عليها خطأً في التاريخ الاسلامي بحروب الردة ، إذ لم يكن أغلب زعماء هذه الحركات قد دانوا بالاسلام وارتدوا عنه بعد وفاة الرسول .ثم عين حكاماً على الولايات في الجزيرة العربية ليسهل ادارتها ، فقسمها إلى عدة ولايات ،وعين على كل ولاية

(١) ابن هشام : السيرة ج٢ص٥٠٠ تحقيق السقا

والياً يرتبط بالعاصمة مباشرة وهي مكة والطائف وصنعاء وحضرموت ونجران وجرش والبحرين (١).

واتجه ابو بكر أيضاً إلى نشر الاسلام خارج الجزيرة العربية تحت شعار (الجهاد في سبيل الله)وتم في عهده فتح جزء من العراق وبلاد الشام فاخذ يعين الولاة على الامصار الاسلامية المفتوحة من قادة الجند ، ومنحهم سلطات ادارية كولاة بالاضافة إلى السلطات العسكرية .

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة اتسعت في عهده الدولة الاسلامية بتوسيع الفتوحات إذ تم فتح العراق وفارس والشام ومصر ،فتطلب منه الوضع الجديدأن يضع نظاماً ادارياً دقيقاً ليسهل عليه ادارة الدولة الواسعة و الاشراف على تنظيم مواردها ،واهم هذه الولايات ولاية الاحواز والبحرين ،وولاية سجستان، ومكران .وولاية طبرستان، وولاية خراسان وولاية الكوفة ، وولاية البصرة ، وولاية الموصل ،وولاية حمص ،وولاية دمشق ، وولاية فلسطين ،وولايةمصر..

وكان عمر يختار اولئك الولاة من العرب لاتعظيماً لعرقهم أو جنسهم ولكن لمقدرتهم على فهم اصول الشريعة وتعاليمها فان عليهم أن يقيموا بالناس الصلاة ويقضوا بينهم بالحق ويقسموا بينهم الاموال والغنائم والعشور (٢) ويجمع الزكاة والجزية والخراج .وهم من الشخصيات التي تتصف بالمقدرة الادارية وقيادة الجيش .وكان عمر يوصي اولئك الولاة بحسن معاملة الرعية والرفق بهم وعدم تكليفهم فوق طاقتهم ، ويحملهم مسؤولية تطبيق الاسلام وسننه فقال موضحاً واجباتهم (أيها الناس اني والله ماأرسل اليكم عمالا ليضربوا ابشاركم(جلودكم) ولا ليأخذوا أعشاركم(أموالكم) ولكن ارسلهم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفس عمر بيده لأقصن له منه) (٣) وكان عمر يسأل الرعية إذا اوفدت اليه في موسم الحج عن حال امرائهم وسيرتهم فيهم فيقول لهم : هل يعود مرضاكم ،هل يعول العبيد ، كيف صنيعه بالضعيف

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص١٢٠ .
(٢) صبحي الصالح والنظم الاسلامية ص٣٠٩
(٣) الطبري : تاريخ ج٦ص٢٠

وهل يجلس على بابه ؟ فان قالوا لخصلة منها لاعزله(١). ويسأل القضاة ويستحلفهم عن مدى تطبيق الوالي للعدل .وسار عثمان سيرة عمر في أيامه الاولى الا أنه في أواخر أيامه اعتمد على عشيرته واقربائه فتذمرت الرعية في مختلف الولايات وادت إلى الفتنة التي انتهت بمصرعه ،ولما جاء علي بن ابي طالب بادر إلى عزل ولاة عثمان منعاً لاستمرار التذمر والشكوى فكان عزل بعضهم وخاصة معاوية عاملا مهماً من عوامل استمرار الفتنة التي انتهت بمصرعه أيضاً ،

الامارة في العهد الاموي :

اهتم خلفاء بني امية في اختيار ولاتهم من العناصر العربية الموالية لهم ومن افراد البيت الاموي لعظم مساحة الامبراطورية ولقوة العناصر المعارضة لسيادتهم من علويين وموالي فكان لابد لهم ان يسندوا امارة الولايات إلى العناصر المخلصة والقوية والكفوءة وقد تهيأ لهم نخبة طيبة من القادة والعسكريين والاداريين لادارة الولايات البعيدة عن مركز الامبراطورية الاموية التي قامت بمهمة توسيع الفتوحات والقضاء على الحركات المناوئة للخلافة الاموية . كزياد بن ابيه وعمرو بن العاص والحجاج بن يوسف الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن قاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد وعبدالعزيز بن موسى بن نصير وغيرهم من الشخصيات العربية التي كانت تتمتع بعبقرية فذة في القيادة والادارة والسياسة .

لقد ضعف منصب الامارة نتيجة لضعف النظام الاداري في اواخر العصر الاموي عندما سمح الخلفاء المتأخرون لولاة الاقاليم ان يقيموا في العاصمة بعيداً عن ولاياتهم ، وينيبون عنهم ولاة يحكمون الولاية باسمهم ، وما ترتب على ذلك من اختيار عناصر ضعيفة اهملت احوال الرعية ، وانصرفت إلى جمع المال والاثراء على حساب الرعية (٢) .

---

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٣٠١ .

(٢) امير علي: مختصر تأريخ العرب والتمدن الاسلامي ص١٦٧، ص١٩٠ النسخة الانكليزية

الامارة في العصر العباسي :

ورث العباسيون النظام الاداري الذي كان سائداً في العصر الاموي ، الا انهم لم يراعوا في اختيار الولاة من العناصر العربية بل آثروا استخدام الموالي وبعض افراد البيت المالك ، الذين كانوا يقيمون في العاصمة بعيداً عن ولاياتهم .

وقد تقلصت صلاحيات الوالي في العصر العباسي ، وضعفت منزلته بسبب استحداث منصب الوزير في العصر العباسي ،وأصبح الوالي يأتي بالمرتبة الثانية بعد الوزير ، وقد تعرض الولاة بين الحين والآخر إلى العزل والمصادرة واستخدمت الرشوة في اختيارهم منذ فترة النفوذ التركي والبويهي ، وادى الوضع إلى تداعي نظام الادارة ، ويشير محمد كرد علي إلى ذلك بقولة : (... ومن اهم الدواعي إلى هذا الانحطاط فساد الادارة واختلال احوال القضاء ، ونشأ ذلك عن شراهة نفوس الوزراء والعمال واضاعة الحقوق (١)) .

ومن عوامل ضعف مكانة الوالي استبداد الوزراء بالسلطة والنفوذ ، واصبحت ابرز اعمال الوزير ادارة الامور المالية في الدولة ، والاشراف على تنظيم ادارة الدولة ، وجباية الضرائب والاموال ، وتولية وعزل الولاة في ارجاء الامبراطورية العباسية (٢) وادى ذلك إلى مجيء ولاة ضعفاء ، حيث اخذت مناصب الولاية يتولاها من يدفع اعلى رشوة للوزير ففي خلافة المقتدر مثلا تولى ابو علي محمد بن عبيدالله الخاقاني واسرف في تولية العمال حتى انه ولى على الكوفة في خلال عشرين يوماً سبعة من العمال دفع كل واحد منهم رشوة كبيرة له ، كما ولى بادور ايا خلال احد عشر شهراً عاملا (٣). اخذ من كل واحد منهم رشوة كبيرة وقيلت فيه اشعار كثيرة منها (٤).

---

(١) محمد كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ص١٦٧ .
(٢) اليوزبكي : الوزارة ص١٦٤
(٣) اليوزبكي : الوزارة ص٢١٩
(٤) عريب : صلة الطبري ج١٢ص٢٣

وزير مايفيــق مــن الــرقــابولي ثــم يعــة عــزل بعد ســاعـــة
اذا اهــل الــرشـــا صــاروا اليه فاحظى القــوم اوفرهــم بضاعة

وادى هذا الاسلوب إلى حرمان الدولة من ولاة اكفاء ، وماصحب ذلك من انتعاش النزعة الاقليمية وظهور دويلات صغيرة انفصلت عن جسم الدولة العباسية ، ويشير إلى ذلك ابن الاثير بقوله : (ولم يبق للخليفة الراضي (٣٢٢ — ٣٢٩هـ) غير بغداد واعمالها فكانت البصرة وخوزستان ، وفارس وكرمان ، والري والجبل واصبهان ، والموصل وديار بكر ومضر ، ومصر والشام والمغرب وافريقيا ، وخراسان وما وراء النهر ، وطبرستان وجرجان، والبحرين واليمامة) (١) قد انفصلت عن الدولة العباسية ، يحكمها ولاة مستقلون استقلالا رسمياً او فعلياً عن الخلافة العباسية .

كان حكام الولايات يسمون اول الامر : العمال (جمع عامل) ويدل هذا المعنى على ان صاحبه لم يكن مطلق التصرف في شؤون الولاية وقد تطورت صلاحيات العامل وتوسعت سلطاته بمرور الزمن فسمي بـ(الوالي) ثم لقب بـ(الامير) وهذا اللقب يدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة ، ويقول متز في ذلك: (كان حكام الاقاليم والولايات يلقبون بلقب امير ، ذلك اللقب الذي كان قد اطلق على امراء الجيش، وظل ليدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة) .

كان الوالي او العامل او الامير يجعل من المسجد داراً للحكم وديواناً للاجتماع ، ففيه تلقى الخطب الدينية والسياسية ، ومنه تصدر الاخبار ، وتعقد فيه الوية الجهاد وغيرها .

لقد وضع الفقهاء اسس نظرية الامارة على البلدان ، وحددوا انواعها واختصاصاتها من وجهة النظر الشرعية . فقد ذكر الماوردي في احكامه انواع الامارة واختصاصاتها كل امير فقال: واذا قلد الخليفة اميرا على اقليم او بلد كانت امارته على ضربين عامة وخاصة : —

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص١١٢ — ١١٣

فاما العامة : فعلى ضربين : امارة استكفاء وامارة استيلاء ، فاما امارة الاستكفاء : فهي ان يفوض اليه الخليفة امارة بلد او اقليم على جميع اهله فيشتمل نظره فيه على ثمانية امور : —

أحدها : النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير ارزاقهم .

الثاني : النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام .

الثالث : جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال (عمال الخراج والصدقات) .

الرابع : حماية الدين والذود عن الحريم ومراعاة الدين .

الخامس : اقامة الحدود في حق الله وحقوق الرعية .

السادس : الامامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها او يستخلف عليها

السابع : تسيير الحجيج .

الثامن : اذا كان الاقليم ثغراً متاخماً للعدو فعليه جهاد من يليه من الاعداء وقسم الغنائم في المقاتلة واخذ خمسها لاهل الخمس (١).

اما الامارة الخاصة : فهو ان يكون الامير مقصور الامارة على تدبير الجيوش ، وسياسة الرعية وحماية البيضة والذود عن الحريم ، وليس له ان يتعرض للقضاء والاحكام ولجباية الخراج والصدقات (٢).

والامارة عن استيلاء (او اضطراب) وهي التي يأخذها الوالي ويقر ها الخليفة ، وفيها يكون الوالي مستبداً بالسياسة والتدبير ، ولكن المسائل المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة فلا يمكنه ان يغض النظر عن بدعه .

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص٣٠ — ٣١، ١٩٦٦ مطبعة البابي الحلبي

(٢) المصدر السابق ص٣٢ .

الفصل الخامس

النظم الإدارية

الدواوين
نشأة الديوان
الدواوين في العصر الأموي
تعريب الدواوين والسكة
الدواوين في العصر العباسي

النظم الادارية

الدواوين : —

نشأة الديوان : ترجع نشأة الديوان إلى رواية ابي يوسف مفادها (انه لما قدم ابو هريرة من البحرين ومعه خمسمائة الف درهم خطب عمر بن الخطاب في الناس وقال لهم : انه قد جاء مال كثير فان شئتم ان نكيل لكم كلانا وان شئتم ان نعد لكم عددنا ، وان شئتم ان نزن لكم وزنا لكم فقال رجل من القوم : يا امير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها فدون عمر الديوان (١) وذكر ابو يعلى (٢) : (ان الديوان بالفارسية اسم للشياطين فسمي الكتاب باسمهم لحذقهم بالامور ووقوفهم على الجلي والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقيل (ديوان) . كما تذكر رواية اخرى ان احد الأشخاص لما راى تردد عمر بن الخطاب في كيفية توزيع الاموال اخبره انه كان لملوك الشام ديوان دونو فيه اسماء الجند الاموال ونصحه بتدوين الديوان وتجنيد الجند (٣).

ومهما يكن من أصل الكلمة فان عمر بن الخطاب اول من وضع اسس التنظيم الاداري للدولة الاسلامية بادخاله نظام الدواوين (٤) . وعبر الماوردي عن اهمية خطوة عمر بن الخطاب في استحداث الديوان لكونه (موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال (٥).

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص٤٥

(٢) ابو يعلى : الاحكام السلطانية ص٢٢١

(٣) الطبري : تاريخ ج٤ص٢٠٩ .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص١٦ ، الماوردي ؛ الاحكام السلطانية ص١٩٩

(٥) الماوردي / الاحكام ص١٩٩ .

ومن روايةابي يوسف يظهر ان سبب احداثه يعود لكثرة الاموال الواردة من الفتوحات ، ورغبة عمر في تنظيم توزيعها وتثبيت مقاديرها باسماء مستحقيها وتوفير مازاد عن حاجة المسلمين للضرورات المقبلة . فلما استقر ترتيب الناس في الديوان وضعهم بحسب القرابة من الرسول والسابقة في الاسلام والخدمة للاسلام والحاجة فقال : (لاأجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه) (١) وقد سار عمر بن الخطاب على سياسة التفضيل في العطاء بينما سوى ابي بكر الصديق بين الناس في العطاء (٢) وقد سار عثمان بن عفان بسيرة عمر اما علي ابن ابي طالب فقد عاد إلى سياسة ابي بكر في التسوية في العطاء (٣) فالخليفة عمر بن الخطاب وان حافظ على فكرة الاسلام الجوهرية القاضية بالمساواة بين الناس بغض النظر عن انسابهم لكنه اصر على المفاضلة بينهم من حيث الايمان ومن هنا كانت القرابة من الرسول والسبق إلى الاسلام عاملين اساسيين في تحديد مركز المؤمن (٤).

وعلى اية حال فان الخلفاء الراشدين عملوا باجتهادهم لخدمة المسلمين . وقد تضمن ديوان عمر اسماء المقاتلة واعطياتهم وارزاقهم واهليهم :

وكان ديوان عمر يعني السجل الذي حفظ فيه اسماء المقاتلين واعطياتهم ثم صار يعني المكان الذي يحفظ فيه السجل فذكر القلقشندي (٥) بانه (اسم الموضع الذي يجلس فيه الكتاب) .

---

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص١٩٩ — ٢٠١ ،
(٢) ابن الاثير : الكامل ج٢ص٤٢٢ .
(٣) ابو يعلى : الاحكام ص٢٢٢ .
(٤) جورتيبارم جوستاف : حضارة الاسلام ص٢١٩ القاهرة ١٩٥٦ .
(٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج١ص٩٠

ويرى بعض المؤرخين (١) ان استحداث عمر للديوان انما اراد به أن يجعل من العرب امة عسكرية ليوجهها للجهاد في سبيل الاسلام فاراد ان يخصص للمقاتلة رواتب واعطيات من بيت المال تكفيهم مؤونة العمل ، بان يحفظ سجلا باسماء المحاربين واهليهم فكون (ديوان الجند) وان اطلق عليه انذاك اسم (الديوان) لانه كان الديوان الوحيد .

ولم يسجل عمر بن الخطاب جميع العرب في الديوان ، كما لم يفرض لهم جميعاً العطاء بل سجل أهل المدينة وهم نواة الامة الاسلامية ثم القبائل المقاتلة التي اشتركت في الفتوحات ومن لحق بهم من القبائل لتعزيز قوة المسلمين العسكرية ، ولم يدخل اهل مكة في الديوان لعدم اشتراكهم في الفتوحات كما لم يدخل الاعراب الذين بقوا في الجزيرة ولم يشتركوا في الحروب بل كان يوزع على المحتاجين منهم من اموال الصدقات (٢) والزكاة . ويروي البلاذري (٣) : ان عمر سأل بمن ابدأ؟ قال عبدالرحمن بن عوف : ابدأ بنفسك فقال : لا ولكن ابدأ ببني هاشم فبدأ بالاقرب من رسول الله ففرض للعباس ثم لعلي ...) .

وقد ساوى عمر بن الخطاب بين العرب والموالي في العطاء بحسب الاسس التي وضعها ، كما ساوى بين المهاجرين ومواليهم وبين الانصار ومواليهم(٤) وكتب إلى امراء الجيوش والاقاليم (ومن اعتقتم من الحمراء (الاعاجم) فاسلموا فالحقوهم بمواليهم ، لهم مالهم وعليهم ما عليهم) (٥).

اما زمن تدوين الديوان فتذكر بعض المصادر التاريخية انه كان في سنة ١٥هـ (٦) وتجعل روايات اخرى زمن التدوين في أوائل سنة ٢٠ هـ (٧) .

---

(١) الدوري : النظم الاسلامية ص١٨٧

(٢) الدوري : النظم الاسلامية ص١٩٠

(٣) البلاذري : فتوح البلدان

(٤) ابن سلام : الاموال ص٢٣٤ — ٢٣٥

(٥) المصدر السابق نفسه ص٢٣٥

(٦) الطبري : تاريخ ج٤ص١٦٢

(٧) المقريزي : الخطط ص١٤٨ ، اليعقوبي : تاريخ ج٢ص١٣٠

وقد كان عمر بن الخطاب يميل في التنظيم الاداري إلى المركزية ولذلك ربط الجند بالمركز (العاصمة) حين انشأ ديوان الجند ، وصاروا يطلقون اسم الديوان على ديوان الجند نفسه لانه كان الوحيد في زمن عمر (١) .

لقد أبقى عمر بن الخطاب الدواوين التي كانت موجودة في البلاد المفتوحة في العراق وفارس والشام ومصر وبقيت تستعمل لغاتها المحلية كالفارسية في العراق وفارس والرومية في الشام والقبطية في مصر واستمرت كذلك إلى خلافة عبدالملك بن مروان فنقل ديوان الشام إلى العربية سنة ٨١هـ (٢) واتم الوليد بن عبدالملك تعريب الدواوين الاخرى في الاقاليم الاسلامية .

الدواوين في العصر الاموي :

لما استتب الحكم للامويين واقتضت الحاجة إلى تطوير طبيعة الدواوين المختلفة الموجودة ، وإلى احداث دواوين جديدة تتناسب وحاجة الدولة لتنظيم شؤونها المختلفة . استحدث الامويون دواوين جديدة بصورة تدريجية يصعب تحديد بدايات نشوء اغلبها . كما ان هذه الدواوين لم تصل درجة التنظيم والاستقرار الا في العصر العباسي .

واهم هذه الدواوين :

١. **ديوان الجند :**

وهو الديوان الذي وضع اسسه الخليفة عمر بن الخطاب لحفظ اسماء الجند وتحديد اعطياتهم ومرتباتهم ،وقد تطورت طبيعة هذا الديوان، فبعد ان كان يتولى الانفاق على الجند ومن شملهم العطاء ، أصبح في العصر الاموي يقوم بوظيفة احصاء اسماء الجند وتسجيل مقدار اعطياتهم :

---

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٣١٣

(٢ الماوردي : الاحكام السلطانية ص٢٠٢

٢. ديوان الخراج :

ويتولى امور تنظيم الخراج وكيفية جباية اموال الخراج،وهو من الدواوين المحلية التي كانت موجودة في بلاد الشام، وقد احدثه البيزنطيون،وكانت لغته يونانية (١) .

٣ . ديوان الرسائل:

وهو أول ديوان استحدث في الاسلام،ويمكن أن نعتبر بدايات تكوينه إلى مراسلات النبي إلى الملوك والامراء يدعوهم إلى الاسلام ويكتب إلى القادة والامراء من الصحابة (٢).

واصبح هذا الديوان في العصر الاموي يتولى مكاتبات الخليفة مع الولاة والقواد في الامصار ، كما يتولى الاشراف على مكاتبات الخليفة مع الدول الاجنبية. ويشير الجهشياري (٣) إلى ان كتابه كانوا من العرب والموالي ، ويبدو انه بلغ درجة من التنظيم في عهد عبد الملك .

٤ . ديوان البريد :

لقد اهتم العرب بتأمين طرق مواصلاتهم، وكانت احدى المميزات المهمة في تفوقهم العسكري على اعدائهم. وقد كانت للطبيعة الجغرافية دور مهم في تحديد وسائل الاتصال والانتقال ولاسيما في فترات الفتح العربي الاسلامي او في فترات مقاومة الحركات المناهضة للدولة .

وقد عنى الجغرافيون العرب بوصف الطرق ووسائل النقل كما حددوا الطرق التي تربط بين ديار المسلمين وبلاد الروم وكان من الع الجغرافيين العرب الذين عنو بذكر الطرق ومسالكها الجغرافي المشهور ابن خرداذبه (٤) .

كما عنى العرب بأنشاء القناطر والجسور لربط الطرق وتسهيل مهمة النقل لذلك فقد استحدثوا نظام البريد لربط اجزاء الدولة بالعاصمة، ونقل المعلومات والاخبار اليها.

(١) الجهشياري :ص٢٤
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج١ص٩١
(٣) الجهشياري : ص٣٥
(٤) انظر المسالك والممالك : ص١٠١ – ١٠٤ .

وعلى الرغم من ان البريد كانت مهمته لنقل الرسائل في ارجاء الدولة الاسلامية الا أنه كان يقوم بنقل الوفود والسفراء العرب والاجانب كما يتبادل الرسائل بين الدول المجاورة. وكانت محطات البريد في اوقات الحروب تشحن بالمقاتلين لحماية الطرق ومن هنا اصبح للبريد اهميته الحربية، فكان صاحب البريد هو صاحب الاخبار ويقوم حالياً مقام مدير المخابرات العسكرية وكانت له عيون يوافونه بكل حدث وخبر جديد وعنى الخلفاء الامويون به لضمان سلامة الدولة وامنها. وفي عهد العباسيين كانت الظروف تستلزم الاكثار من العيون في سرعة جمع المعلومات وايصالها عن الحركات المناهضة للدولة في الداخل وتتابع القتال مع الروم (١) وقد اعتمد الخلفاء في نقل الاخبار بواسطة البريد الجوي فقد ذكر المسعودي ان الحمام الزاجل استخدم لنقل الاخبار سنة ٢١٢هـ — ٨٣٧م حين نقل الحمام إلى المعتصم نبأ الظفر ببابك الخرمي (فاطلقت الطيور إلى المعتصم وكتب اليه بالفتح) (٢) واستخدموا ايضاً سفن البريد لنقل الاخبار في المناطق التي تقع على مجاري الانهار، وكانت حاجة الدولة احياناً تدعو إلى استخدام الفدائيين لايصال الاخبار (٣) واستعمل العرب المسلمون النار في الاشارات لنقل الرسائل والاخبار فكتب عمر بن الخطاب لمعاوية في الشام في (اقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها (٤).

وكان صاحب البريد عيناً على العمال في الولايات اضافة إلى انه كان يرسل العيون والجواسيس من الرجال والنساء ينتقلون في البلاد على شكل سواح او فقراء او حجاج لجمع الاخبار ليس في داخل الدولة وانما من الدول المجاورة. وقد غدا للعرب نظام جيد للجاسوسية منذ ايام معاوية، فكانوا يقدمون المعلومات عن قوة العدو ونقطة ضعفه وتخطيط حصونه، وغير ذلك. وقد فرض صاحب

---

(١) انظر : نظير سعداوي : نظام البريد في الدولة الاسلامية ص٥٣ وما بعدها .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج٢ص٣٥١ .

(٣) العدوى : الحمام الزاجل في العصور الوسطى المجلة التاريخية م٢ ج١مايو ١٩٤٩ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص١٣٤

البريد رقابة محكمة على الاجانب الذين يدخلون الدولة الاسلامية، وفرض معاوية رقابة دقيقة على افراد الجاليات واسرهم وعين موظفاً عربياً في كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين واستمر هذا النظام قائماً في عهد العباسيين(١).

وما يجب على صاحب البريد معرفته هو حال الخراج والضياع وحال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، وما يجرى في امور الرعية فيما يعاملونه من الانصاف والرفق والجور والعسف فيكتب به شروحاً، وما يعرف ماعليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم وبفرد لكل مايكتب فيه من اصناف الاخبار كتباً (٢).

وقد نصح ابو يوسف الرشيد بأن يكتب اليه صاحب البريد بكل مايحدث، وان يتوعد الخليفة عمال البريد على ستر الاخبار عنه ويحذر ميلهم مع العمال على الرعية ، وطلب اليه ان يدر لرجال البريد الرزق من بيت المال لكي لايرتشوا (٣).

٥. ديوان المستغلات :

وكان هذا الديوان يدير ممتلكات الدولة واموالها غير المنقولة كالاراضي والابنية والعمارات (٤).

٦. ديوان النفقات :

مهمته النظر في الانفاق على الجيش (٥) كما يتولى توفير الاموال لنفقات الجهاز الاداري .

٧. ديوان الصدقات :

ومهمته النظر في موارد الصدقات والزكاة وفي تحديد مستحقيها وكيفية توزيعها حسبما جاء في القرآن (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل)

(١) البلاذري : ص ١٥٦ - ١٥٧، ص١٦٠ -ص١٦٦ .
(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص١١٢ .
(٣) ابو يوسف : الخراج ص١٨٥ - ١٨١ .
(٤) الجهشياري : ص٤٧
(٥) الجهشياري : ص٣٥

ويرد ذكر هذا الديوان لاول مرة في خلافة هشام بن عبدالملك (١) .

٨. ديوان الخاتم :

وقد استحدث هذا الديوان في ، خلافة معاوية بن ابي سفيان على أثر تزوير حدث في احدى رسائله إلى زيادبن ابيه امره فيها باعطاء حاملها مائة الف درهم فبدل حاملها المقدار إلى مائتي الف درهم وعلى اثر ذلك امر معاوية بان تحفظ نسخة من اوامره في مكان امين وامر كذلك بان تخرم النسخة الاصلية بالخيط وتختم بالشمع الاحمر (٢) بختم صاحب الديوان وهي تقابل في العصر الحاصر دوائر الحفظ او امانة سر ديوان الدولة . وبقي هذا الديوان حتى اواسط الدولة العباسية ثم تحولت اختصاصاته إلى الوزراء .

٩. ديوان الطراز :(٣)

وهو الذى يقوم بانتاج الملابس والازياء الرسمية والاعلام وشارات الدولة وهو ما يصح تسميته بـ(معامل الطراز) ويرى الدوري (٤) انه نشأ في خلافة عبدالملك على ان الجهشياري (٥) يشير اليه في خلافة هشام بن عبدالملك . وقد كان قبل ذلك عند الفرس والروم الا ان المسلمين لم يستخدموا الصور التي كانت تزين ملابسهم لتحريمها في الاسلام فاستعاضوا عنها بكتابة آيات من القرآن وكتابة اسمائهم عليها .

تعريب الدواوين :

كانت الدواوين في الدولة الاموية تكتب بلغاتها المحلية السائدة قبل الفتح الاسلامي ، الفارسية في العراق وفارس ، والرومية في الشام ، والقبطية في مصر ،وبقيت كذلك حتى زمن عبد الملك بن مروان حيث شعر بأهمية استكمال سيادة الدولة بسيادة لغتها .

---

(١) الجهشياري : ص٦٠ (٢) الجهشياري : ص ٢٢ .

(٣) الطراز : وهي ان تكتب اسماء الخلفاء والسلاطين وعلاماتهم وشاراتهم على اثوابهم من الحرير او الديباج (ابن خلدون : المقدمة)

(٤) الدوري : النظم الاسلامية ص١٩٧ . (٥) الجهشياري : ص٦٠

اما الدواوين الاولى (الجند وبيت المال) فقد كانت باللغة العربية منذ نشأتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١) . اما الدواوين التي وجدت في البلاد المفتوحة فقد ابقاها العرب على حالها ، وهـي المختصة بالجباية . وحساباتها فظلت حتى زمن عبدالملك . ويبدو ان تعريب الدواوين المالية كان يقصد منه ضبط اعمالها والاشراف عليها منعاً من الغش والتزوير (٢). وادى إجراء (التعريب) إلى ايجاد طبقة جديدة من الكتاب والى نهضة لغوية ادبية رائعة (٣). .

بدأ عبدالملك بعمله الجليل هذا بتعريب دواوين الشام وامر كاتبة على الرسائل سليمان بن سعد الخشني . ان يحول الديوان من الرومية إلى العربية (٤). وكان ذلك سنة ٨١هـ وقد طلب عبدالملك ان يجعل له خراج الاردن في مقابل العمل وقد بلغ يومئذ ١٨٠ الف دينار (٥) .

اما دواوين العراق فقد عربت ايام ولاية الحجاج بن يوسف عليه فقد عهد إلى صالح بن عبدالرحمن بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية ، وكان صالح يحذق الفارسية والعربية معاً، وجعل له اجلا لذلك ، فأتم صالح مهمته بنجاح وقيل : ان مراد نشاه بن ذاذان فروخ كاتب الحجاج بذل له مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن هذا العمل ويمسك عنه فابى فدعا عليه اذ انه قطع اصل الفارسية (٦).

وقد عربت الدواوين المصرية في ولاية عبدالله بن عبدالملك في خلافة الوليد سنة ٨٧هـ وصرف (انشناس) عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص (٧). غير ان الدواوين المالية في خراسان لم تعرب وبقيت بالفارسية

(١) الدميري : حياة الحيوان جـ١ص٧٦
(٢) امير علي : مختصر تاريخ العرب ص١٦٦
(٣) الريس : الخراج والنظم المالية ص٢٢٧
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص٢٠١الجهشياري : الوزراء ص٤٠
(٥) المصدر السابق والصحيفة
(٦) المصدر السابق نفسه ص٣٠٨ – ٣٠٩
(٧) المقريزي : الخطط جـ١ص٩٨ .

وكان اكثر كتابها من المجوس حتى كتب يوسف بن عمر في سنة ١٢٤هـ إلى نصر بن سيار عاملة على خراسان يأمره بنقله إلى العربية ولا يستعان فبه من الكتاب بغير المسلمين وقام بعملية التعريب هناك اسحاق بن طليق الكاتب — وهو من بني نهشل —وقد كان مع نصر بن سيار فأصبح خاصاً بالديوان(١)

وكان للتعريب أثر عظيم فقد أصبحت العربية لغة الدواوين مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة ، وساعد ذلك على انتقال كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية إلى العربية ، وساعد على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالي واهل الذمة (٢). فأصبحت لغة السياسة والادارة والاقتصاد بالاضافة إلى لغة الدين .

تعريب السكة :

ولقد دفع نجاح عملية تعريب الدواوين في عهد عبدالملك بن مروان إلى أقدامه سنة ٨٣هـ على تعريب النقود ، بسك عملة عربية اسلامية،بعد أن كان العرب يتعاملون حتى هذا التأريخ بالدنانير الذهبية البيزنطية والدراهم الفضية الفارسية .

ويرى بعض المؤرخين ان من عوامل تعريب السكة وجود صلة بين سوء العلاقات بين دولتي الاسلام والروم وبين تفكير عبدالملك في وضع عملة مستقلة (٣) .

ويعلل Gibbon (٤) هذا الاجراء بسبب ان الحرب أدت إلى إنقطاع التجارة وقلة النقد مما دعا عبدالملك إلى الشروع في اصدار عملة خاصة ليحقق للدولة استقلالها الاقتصادى فأنشأ داراً للضرب . وقيل: ان قيام الحرب اقترنت بمسألة خطيرة أدت إلى سوء العلاقات لمساسها بالدين والمصلحة الاقتصادية وهي مسألة (القراطيس) (ورق الكتابة) التي ذكرتها المصادر العربية . وخلاصة هذه المسألة كما ذكرها البلاذري (٥): ان القراطيس كانت

(١) الجهشياري : الوزراء ص٦٧

(٢) الدوري : النظم الاسلامية ص١٩٩، علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٥١٩

(٣) الريس : الخراج والنظم المالية ص٢٢١ ، الاتليدي : اعلام الناس ص٢٧٤

(٤) E. Gibbon, The Decline and fall the Roman Empire vol 5. P.388.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص٤٤٩ .

تؤخذ من مصر الى بلاد الروم التي تضرب منها الدنانير وكانت الاقباط تكتب في رؤوس الطوامير (العمق) عبارات تنسب الربوبية إلى المسيح كما ترسم في صدرها الصليب فأمر عبدالملك ان يكتب في مكانها آية (قل هو الله احد) وغيرها من ذكر الله فكره ذلك ملك الروم واشتد عليه وكتب إلى الخليفة : (انكم احدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه فأن تركتموه والا اتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه ، قال : فكبر ذلك في صدر عبدالملك لأنه كره ان يدع سنة حسنة سنها ، وازاء هذا التهديد استشار من حوله فأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية بأن يحرم دنانيرهم ويمنع التعامل بها ويضرب للناس سككاً ، ويمنع ان يدخل من بلاد الروم شيء من القراطيس (فمكث حيناً لاتحمل اليهم) فانقطعت التجارة التي كان بها يتم التبادل بالاوراق والدنانير . ويبدو ان السبب المباشر الذي دفع عبد الملك إلى تعريب النقود يعود إلى توقف التجارة وانقطاع النقود ورغبته في تحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة فأنشأ داراً للضرب (١). ويعلل أمير علي (٢) هذا الاجراء بقوله : ان الدولة الاسلامية التي مضى عليها اكثر من نصف قرن منذ أيام الفتح الاولى لايمكنها ان تظل معتمدة في نشاطها الاقتصادى المتزايد على النقد الاجنبي كما ان العملة الفارسية كانت مغشوشة ومضطربة لفساد الوضع في الدولة الفارسية أدى إلى وضع نظام ثابت للنقد فاصبحت النقود عربية صرفة ، وبعث بها عبدالملك إلى الحجاج بن يوسف والي العراق حتى اذا فرغ من ضربه بعث بالسكة إلى سائر الامصار لتضرب الدراهم بها وكان قد ضرب في دمشق دنانير من الذهب سنة ٧٣ هـ بعد ان كانت كلها حتى ذلك التأريخ رومية (٣).

وكتب عبدالملك إلى عماله في الأمصار يأمرهم بأن يقسروا الناس على التعامل بالسكة الجديدة ، وان يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة ، وان يجمعوا النقود القديمة المتداولة حتى يحولها إلى سكة اسلامية (٥)

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج١ص٩٨

(٢) امير علي : مختصر تاريخ العرب ص١٦٤ — ١٦٥

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص٤٧٢ ، ٤٧٣

(٤) الدميري : حياة الحيوان ج١ص٧٦

الدواوين في العصر العباسي :

لم يحدث تغيير كبير في نظم الادارة في العصر العباسي ، فقد استفادوا — بعد اشراكهم الفرس في ادارة الدولة — من خبرة الفرس الادارية ، فحدث تطور في بعض دواوين الدولة ومؤسساتها ، واوجدوا دواوين جديدة بصورة تدريجية وبحسب مقتضيات الحاجة وزادوا في الاشراف عليها باستحداث منصب الوزارة فأصبح الوزير هو المهيمن على جميع دواوين الدولة .

واما التطورات التي أحدثها العباسيون ، فقد نظم أبو العباس السفاح دواوين الدولة وجعل سجلات الدواوين في دفاتر بدلا من صحف متفرقة . يذكر الجهشياري (١) أن خالد البرمكي قام بجمع ما في الدواوين في صحف وجعلها في دفاتر . وانشأ المنصور ديواناً خاصاً لحفظ أسماء من صودرت اموالهم من بني أمية وسمي بديوان المصادرات (٢).

ويبدو ان المصادرة كانت بالدرجة الاولى من اموال وضياع بني امية التي صودرت منذ عهد ابي العباس السفاح .

واحدث المهدي دواوين الازمة سنة ١٦٢هـ (٣) وهي دواوين صغيرة تشرف على أعمال الدواوين الاخرى وضبط حساباتها وتدقيقها وانشأ المهدي ديوان زمام الازمة سنة ١٦٨هـ للاشراف على دواوين الازمة (٤) ثم انشأ المهدي ديوان المظالم للنظر في شكوى الرعية من الولاة من ظلمهم وتعسفهم في الجباية ، وكان يغلب على هذا الديوان ان ينظر في غلاء الاسعار وفي كثرة ايداع الناس السجون من غير تدقيق في دعاويهم ، واحياناً كان ينظر فيما وقع ظلماً من مصادرة املاك بعض الناس (٥) .

---

(١) الجهشياري : ص٩٨
(٢) اليعقوبي : تاريخ جـ٣ ص١٢٧ ، الفخري ص١١٥
(٣) الجهشياري ص١٤٦
(٤) الجهشياري ص١٦٨
(٥) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٣١٧

واحدث الرشيد في عهده دواوين جديدة أهمها ديوان الصوافي ، ومهمته النظر في امور الاراضي التابعة للدولة (١). ويبدو أنه الديوان الذي استحدث في خلافة عمر بن الخطاب في العراق لادارة املاك الدولة التي استصفاها الفاتحون من ممتلكات كسرى ومرازبته واراضي من قتل عنها أهلها اوهرب.

كما استحدث ايضاً ديوان الضياع ، ومهمته ادارة ضياع الخليفة الخاصة واسرته ، وهي ضياع واسعة منتشرة في ارجاء الامبراطورية العباسية (٢).

ويرد ذكر ديوان الجهبذة في عصر المامون ، ويظهر انه كان شعبة من بيت المال ، ومهمته تدقيق حسابات بيت المال وتدقيق نوعية موارده (٣). وقد اكثر المعتصم من استخدام الغلمان الاتراك وقد حمله كثرتهم ورغبته في ابتياعهم إلى احداث ديوان الموالي والغلمان ، ويبدو ان هذا الديوان ينظر اضافة إلى ذلك في شؤون الجواري والموالي المتصلين بالبلاط .

وظهر في العصر العباسي الثاني ماسمي بديوان الاستخراج ، ومهمته متابعة اخبار الوزراء والكتاب والحجاب والعمال والولاة المتهمين بالرشوة والمحسوبية لكي تحصى اسماؤهم ، وتحدد اوضاعهم ، ثم تصادر اموالهم التي جمعوها من الحرام بأمر من الخليفة . (٤)

وهكذا وجدنا ان الدواوين نشأت بالاصل من الدواوين الاموية ثم تطورت وتوسعت بسبب حاجة الدولة وتوسيع اعمالها ادى إلى استحداث دواوين جديدة خلال العصور العباسية .

---

(١) الجهشياري : ص١٦٦

(٢) الجهشياري ص٢٧٧ ، الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٥ – ٢٧

(٣) الدوري : النظم ص٢٠١

(٤) صبحي الصالح : النظم ص٣١٧

الفصل السادس

النظم المالية

تنظيمات عمر بن الخطاب المالية
مالية الدولة الاسلامية

أ ـ بيت المال
ب ـ الضرائب

١ ـ الجزية
٢ ـ الخراج
٣ ـ عشور التجارة
٤ ـ الزكاة والصدقة
٥ ـ الفيء والغنيمة

ج ـ النفقات (العطاء).

النظم المالية

(تنظيمات عمر بن الخطاب المالية)

مالية الدولة الأسلامية

أ- بيت المال

أ - **بيت المال:** - بدأت حركة الفتوح الاسلامية منذ خلافة ابي بكر الصديق حيث وجه الجيوش العربية إلى جبهتين العراق والشام، وقبل وفاته كانت معظم الاراضي الواقعة غرب الفرات قد فتحت وقسم من مناطق الشام، وفي خلافة عمر بن الخطاب نشطت الفتوحات ففي عهده فتحت الشام عام ١٣هـ/ ٦٣٤م (١) وفتحت فلسطين عام ١٥هـ/ ٦٣٦م (٢) وبعد معركة القادسية بين عامي ١٤ - ١٥هـ فتح العراق (٣). واستمرت الفتوح حتى شملت اكثر اقاليم الفرس والروم حيث فتحت مصر ثم افريقيا (٤) كما فتحت الجزيرة والجبل وارمينية والري واذربيجان واصبهان (٥). وبسبب هذه الفتوح فقد تدفقت الاموال على المسلمين وكان لابد لهذه الاموال من نظام يتحكم فيها وينظم توزيعها ويحفظ مازاد منها. لذلك بدأت التنظيمات الاسلامية بالتبلور نتيجة الحاجة الماسة اليها (٦) واتخذت نظماً تنسجم مع واقع العرب والدين الاسلامي فاستحدث ديوان بيت المال.

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص١٢٨ .

(٢) ن . م ص ١٦٤ .

(٣) ن . م ص١٩٥ .

(٤) ن . م ص٢٤٩ .

(٥) المقدسي : المطهر بن طاهر البدء والتاريخ جه ص١٦٨ نشر كلمان هوار ١٩٠٧ .

(٦) خولة شاكر : بيت المال نشأته وتطوره ص٢٦ مطبعة وزارة الاوقاف - بغداد ١٩٧٦ .

وديوان بيت المال: هو الاصطلاح الذي اطلق على المؤسسة التي قامت بالاشراف على مايرد من الاموال وما يخرج منها في اوجه النفقات المختلفة. ويسمى ايضاً (بيت مال المسلمين) وهذه العبارة تبين الاتجاه الديني للاموال، اما تسمية (بيت مال العامه) فنلاحظها في العصور المتأخرة حيث استحدث بين المال الخاص، وقد استخدم هذا التعبير للتفريق بين بيت المال وبيت المال الخاص، والتسميتان الاوليتان كثيراً ماتردان في نص واحد للدلالة على نفس المسمى (١).

وكان بيت المال احد الدواوين العظيمة الاهمية في الدولة الاسلامية حتى سمي بـ (الديوان السامي) لانه (اصل الدواوين ومرجعها اليه) (٢). ويعتبره ابن خلدون من اهم وظائف الدولة لانها تهتم بحفظ حقوق الدولة في دخلها وخرجها (وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحسبان لايقوم به الا المهره من اهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان) (٣).

مصادر بيت المال: — تتكون مصادر بيت المال حسبما حددها الخلفاء الراشدون وفقهاء المسلمين فيما بعد من كل مال استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم حقاً من حقوق بيت المال (٤) وكذلك التي يستحقها المسلمون — من الناحية الشرعية — من اوجه ثلاث هي:

الفيئ، الخمس من الغنيمة والصدقه (الزكاة) (٥) ويعتبر الفيئ من حقوق بيت المال لان صرفه منوط براى الامام واجتهاده، في حين ان الغنيمة (٦) ليست كلها من حقوق بيت المال وانما قسم منها يكون من حقوق بيت المال وهو

---

(١) خولة شاكر /بيت المال ص١٤ .

(٢) الحسن بن عبد الله : اثار الاول ترتيب الدول ص٧٤ القاهرة / بولاق ١٢٩٥ هـ.

(٣) ابن خلدون . المقدمة جـ٢ص١٥ تحقيق أ. م كاترمير بيروت ١٩٧٠ .

(٤) الماوردي : الاحكام ص٢١٣ط١ القاهرة ١٩٦٠ .

(٥) الماوردي : الاحكام ص٢١٣ .

(٦) (الغنيمة) قال تعالى (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكن وابن السبيل) .

سهم الله وسهم (للرسول) الذي يصرف في مصالح المسلمين بحسب اجتهاد الامام. اما الصدقة (الزكاة) فقد ميز الفقهاء بين نوعين ، صدقة المال الباطن (أي المخفي) ولا يترتب لبيت المال فيها من حقوق لان اصحابه يقومون بأخراج زكاته في وجوهها الشرعية ، والثاني : صدقة المال الظاهر كزكاة (الزروع والثمار والمواشي) (١) وهي التي يقوم والي الصدقات بجبايتها لمصلحة بيت المال (٢).

وهناك مصادر اخرى كانت ترد بيت المال من الضرائب السائدة في البلاد المفتوحة قبل الفتح الاسلامي كضرائب النوروز والمهرجان ، ومن واردات الصوافي (التي استصفاها عمر بن الخطاب من املاك ملوك الفرس وحاشيتهم) ومن ضرائب المكوس (عشور التجارة) ومن اموال الجزية والخراج . حيث كانت تشكل موارد ضخمة ترد إلى بيت المال.

ب الضرائب

الجزية (٣): وهي الضريبة التي فرضها الروم على اهل الشام ومصر كما فرضها ملوك الفرس على عامة اهل العراق واعفوا منها الامراء والمرازبة (٤) والاساورة (٥) والموابذة (٦) والهرابذة (٧) والدهاقين (٨) ومن في خدمتهم.

---

(١) الماوردي : الاحكام ص٢١٤ ، ابو يعلى الاحكام ص٢٣٦ .

(٢) الماوردي : الاحكام ص٢١٥ .

(٣) الجزية : يذكر أبو يوسف أصل كلمة الجزية من لفظة الجوالي (جمع جالية) ، واصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطناً اخر وفيه قيل : لأهل الذمة (الذين اجلاهم عمر من جزيرة العرب (جالية) ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التي أخذت منهم ، ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وان لم يكن صاحبها جلا من وطنه (أبو يوسف : الخراج ص ٣) انظر رسائل الصابيء ص ١٤٥ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة جزية) ج٦ ص ٤٥٤ .

(٤) المرازبة : رؤساء الفرس

(٥) الأساورة: قواد الفرس ومجيدو الرمي بالسهام

(٦) الموابذة : جمع موبذ وهو قاضي المجوس فارسي معرب (الجاحظ البيان ج ٣ ص ١٣)

(٧) الهرابذة : جمع هربذ ، وهم قومة بيوت النار يديرون المراسيم الدينية فيها ، فارسي معرب (الجاحظ ج ٣ ص ١٣)

(٨) الدهاقين : جمع دهقان وهو زعيم فلاحي العجم ورئيس الاقليم ، وهو لفظ فارسي معرب (الدينوري : الاخبار الطوال ص ٤٧)

ولما تم فتح العراق وفارس والشام ومصر فرض عمر بن الخطاب الجزية على غير المسلمين ماعدا نصارى تغلب واهل نجران (١) حيث فرضت عليهم ضريبة واحدة بدل الجزية والخراج.

فالجزية: مايؤخذ من اهل الذمة. وقيل: هي الخراج المضروب على رؤوس اهل الذمة (٢) وتؤخذ ممن دخل الذمة من اهل الكتاب والمجوس والصابئة لقاء الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين كما في قول النبي (أحفظوني في ذمتي) (٣) وقد اوجبت الجزية على اهل الذمة استناداً إلى ماجاء القرآن والسنة والاجماع.

قال تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) (٤).

وقد اجمع الفقهاء على اخذها من اهل الكتاب ومن المجوس، فقد اخذها الرسول من مجوس هجر، كما اخذها عمر بن الخطاب من مجوس العراق(٥) وقيل ان عمر تردد اول الامر ثم قال: ماأدري كيف اصنع بالمجوس ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : اشهد اني لسمعت رسول الله يقول: سنوا بهم سنة اهل الكتاب (٦) وقد اختلف الفقهاء ممن تؤخذ الجزية بعد اتفاقهم على اخذها من اهل الكتاب والمجوس فقال ابو حنيفة : تؤخذ من اهل الكتاب والمجوس وعبدة الأوثان من العجم ، ولاتؤخذ من عبدة الاوثان من العرب ، واما كيفية اخذها فقد اختلفوا في تفسير قوله تعالى: (يعطوا الجزيةعن يد وهم صاغرون) والمعنى حتى يعطوا الجزية عن رقابهم، واختلف في اشتقاقها فقال الماوردي(٧) (ت ٤٥٠هـ) وابو يعلى (ت ٤٥٨هـ) : اسمها مشتق من الجزاء إما جزاء

(١) ابو يوسف : الخراج ص ٦٩

(٢) المصدر السابق والصحيفة

(٣) الماوردي : الاحكام ص ١٤٣

(٤) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٥) الطبري : اختلاف الفقهاء ص ١٩٩ ، ابو عبيدة : الأموال ص ٣٣

(٦) ابن القيم : أحكام أهل الذمة ص ٢ ، الصولي : أدب الكتاب ص ٢١٤

(٧) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٤٢ ، ابو يعلى : الاحكام السلطانية ص ١٣٧ .

على كفرهم لاخذها منهم صغاراً او جزاء على أماننا لهم لاخذها منهم رفقاً. وقيل: هي مشتقة من جزاه بمعنى قضاه (١) لقوله تعالى: (لاتجزي نفس عن نفس شيئاً) فتكون الجزية في هذه الحالة مثل الفدية.

ويبدو ان الرأي الاول هو الاصح، حيث ثبت ماورد في القرآن ومن احكام الرسول والخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم انهم كانوا يأخذون الجزية (امانا) من اهل الذمة لقاء تعهد المسلمين بالمحافظة على ارواحهم واموالهم وعباداتهم ولقاء اعفائهم من مهمة الدفاع عن البلاد عن طريق الخدمة في الجيش (٢).

وتجب الجزية على الذكور العقلاء والبالغين، ولاتجب على الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان والمجانين والمرضى والعميان (٣).

ولما كانت نصرة اهل الذمة للمسلمين يشك فيها لاتفاقهم في الاعتقاد مع اعداء المسلمين (اهل دار الحرب) وان الجهاد فرض على المسلمين فقط فاوجب الشرع على غير المسلمين المساهمة في نفقات الحرب عن طريق الجزية التي تؤخذ منهم وتصرف على المقاتلين من المسلمين (فتكون خلفاً عن النصرة) (٤) كما انها تستخدم لسد نفقات وارزاق الجند في المنطقة المفتوحة (٥). ويؤيد ذلك مارواه ابن القيم في احكامه (انما تؤخذ الجزية منهم سنة بسنة جزاء تأمينهم واقرارهم على دينهم يتصرفون في جوار المسلمين وذمتهم آمنين) (٦)

والواقع ان الجزية لاتعتبر عقوبة في حق الذمي لبقائه على دينه وانما هي مساهمة مادية منه بالدفاع عن بلاده التي يسكنها وهي (دار الاسلام) فلو كانت

---

(١) ابن قدامة المقدسي : المغني ج ١٠ ص ٥٦٧ ، الماوردي : الأحكام ص ١٣٦.

(٢) اليوزبكي : تاريخ اهل الذمة في العراق ص ٦٣.

(٣) ابو عبيدة : الأموال ص ٥١ ، أبو يوسف : الخراج ص ١٢٢، الشافعي : الام ج٤ ص ٩٨ القرطبي : تفسير ج٤ ص ٩٨.

(٤) انظر : زيدان احكام الذميين ص ١٤٣.

(٥) انظر : فان فلوتن : السيادة العربية ص ٥٠.

(٦) ابن القيم : أحكام اهل الذمة ص ١٧.

الجزية عقوبة لوجبت على جميع اهل الذمة دون استثناء ولفرضت بالدرجة الاولى على رجال دينهم باعتبارهم اصحاب الدين المخالف للاسلام ، ومما يؤكد على انها كانت تدفع بدل الخدمة العسكرية انها تسقط حال اشتراك الذمي مع المسلم في مهمة الدفاع عن بلاد الاسلام، او في حالة عجز المسلمين عن حمايتهم، ومما يؤكد انها كانت تدفع بدل الخدمة العسكرية اعفاء من اشترك من اهل الذمة بالقتال مع المسلمين فقد سالمت قبيلة الجراجمة — وهي قبيلة مسيحية بجوار انطاكية — المسلمين وتعهدت بالقتال معهم على الا تؤخذ منهم الجزية وان تعطي نصيبها من الغنائم (١) ولانؤيد ماذهب اليه بعض الفقهاء من ان الجزية تؤخذ من اهل الذمة بالاذلال لهم والشدة معهم عند اخذها.

وتسقط الجزية عن الذمي في حالة اسلامه او موته او عجزه او فقره او عجز المسلمين عن حمايته او التحاقه بأهل دار الحرب (٢). ونورد مثلا على صحة ذلك: فلما حشد الامبراطور البيزنطي هرقل جيشاً ضخماً لمهاجمة المسلمين لبعض المدن المفتوحة في بلاد الشام كتب ابو عبيدة بن الجراح إلى عمال المدن المفتوحة يأمرهم بأن يردوا اليهم الجزية بقوله: (انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ماجمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وانا لانقدر على ذلك وقد رددنا عليكم مااخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليكم) (٣) .

اما وقت جباية الجزية ففي المحرم ابتداء السنة الهجرية او في آخرها وكانت احياناً تقسط إلى اقسام حسب امكانيات دافعها.

واما مقادير الجزية فقد اختلفت بأختلاف ائمة المسلمين في تقديرها: فقد وضع الرسول الجزية على من بالمدينة ومكة وخيبر واليمن ونجران من النصارى

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٥٩ طبعة ليدن ١٨٦٦ .
(٢) انظر اليوزبكي : تأريخ اهل الذمة ص ٦٤ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٨١، القاهرة ١٣٠٢هـ

واليهود والمجوس وجعلها على الرجل ديناراً واحداً واستثنى من ذلك النساء والصبيان (١) ثم جعلها عمر بن الخطاب على اهل السواد في العراق ديناراً (اثني عشر درهماً) على الطبقة السفلى وعلى الوسطى دينارين (اربعة وعشرين درهماً) وعلى العليا اربعة دنانير (ثمانية واربعين درهماً) واسقط ذلك عن النساء والصبيان والشيوخ والرهبان (٢). وفعل ذلك على قدر الطاقة واليسار. ويبدو ان الخليفة عمر اراد من هذا الاجراء ان يجعل من هذا التقسيم نظاماً ثابتاً يسير عليه المسلمون فيما بعد.

ويؤكد الماوردي (٣) ماذهبنا اليه فيقول: وجعلها عمر نظاماً ثابتاً يسير عليه الولاة في سائر الامصار ليمنع اجتهادهم، فكتب بذلك عمر بن الخطاب إلى عماله في الامصار (ولا يوضع عليهم اكثر من ذلك، ومن عجز منهم خفف عنه) (٤).

ولايتعين في الجزية ذهب و فضة بل يجوز اخذها مما يتيسر من اموالهم من ثياب وسلاح ومواشي وحبوب وغير ذلك (٥) وروي عن علي بن ابي طالب انه كان يأخذ الجزية من صاحب البر، براً ومن صاحب المال مالاً ومن صاحب الحبال حبالا ولايأخذ فيها خمراً ولاخنازير، ولايباع في الجزية بقرهم ولا حميرهم ولامواشيهم (٦).

وفي العصر الاموي ازداد عدد الداخلين في الاسلام وادى هذا إلى قلة الوارد من الجزية إلى بيت المال في الوقت الذي ازدادت حاجة الدولة إلى الاموال بسبب توسع الفتوحات وتعاظم نفقات الدولة والخليفة ففرض الحجاج في ولايته على العراق الجزية على من اسلم من الموالي، وادت هذه السياسة إلى قلة الداخلين في الاسلام

(١) الصولي : أديب الكتاب ص٢١٤
(٢) ابن القيم : أحكام ص ٢٨، الصولي ص٢١٥
(٣) الماوردي : الأحكام ص ١٣٨
(٤) ابن آدم : الخراج ج١ ص ٩
(٥) ابن القيم: احكام ص ٢٩، الصولي : أديب الكتاب ص ٢١٥
(٦) الصولي : أديب الكتاب ص ٢١٥
(٧) أبو يوسف: الخراج ص١٣١

وإلى نقمة الموالي على الامويين بسبب استمرارهم في دفع الجزية رغم ان الاسلام يعفي المسلم من دفع الجزية واستمر هذا الوضع حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز عام ٩٩هـ فقد رفع شعار (ان الله بعث محمداً داعياً إلى الاسلام ولم يبعثه جابياً) (١) امر عمر باسقاط الجزية عمن اسلم من اهل الذمة فقال : (انما امر ان تؤخذ الجزية ممن رغب عن الاسلام ، واختار الكفر عتياً وخسراناً مبيناً فضع الجزية على من اطاق حملها وخل بينهم وبين عماره الارض فان في ذلك صلاحاً لمعاشر المسلمين وقوة على عدوهم ، وقال : بلغني ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب مر بشيخ من اهل الذمة يسأل على ابواب الناس فقال له عمر : (ماانصفناك ان كنا اخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك قال ثم اجرى عليه من بيت المال مايصلحه) (٢).

الخراج (٣):

هو مايخرج من غلة الارض ، ومعناه المال المضروب على الارض،والجمع أخراج وأخرجه(٤)وفي اصطلاح الفقهاء الخراج ماوضع على رقاب الارضين من حقوق تؤدى عنها(٥) وقد ورد على لسان الفقهاء استعمال الخراج بمعنى الجزية

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٣١ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٦ ، أبو عبيدة : الأموال ص ٤٥ .

(٣) الخراج : كلمة عربية استعارها العرب من مصطلحات الروم الادارية ، ولعلها مأخوذة من الكلمة اليونانية (Kornia) أو (خورنيا) ومعناها بصفة عامة الضريبة التي فرضت على غير المسلمين في دار الاسلام وهي (تماثل الجزية سواء بسواء) وظلت كلمة خراج تدل على هذا المعنى العام نفسه في كتب الفقه المتاخرة ،ولعل كلمة (خراج) قد اعتبرت عربية الأصل بمعنى (خراج الأرض) وقد جرت العادة قبل ذلك بأن يدفعوا ضريبة من هذا القبيل في تلك الربوع أيام خضوعها لحكم الروم والفرس ، واحتفظ العرب بكثير من تفاصيل النظام القديم في جبايتها (دائرة المعارف الاسلامية) (مادة خراج) جـ٨ ص ٢٨٠ ومابعدها)

(٤) المنجد ص ١٦٩ ، وفي المصباح المنير : الخراج والخرج مايحصل من غلة الأرض جـ١ص ٢٢٧

(٥) الماوردي : الأحكام ص ٤١ ، أبو يعلى : الأحكام ص ١٤٦ .

فمما قال ابو حنيفة(ولايترك ذمي في دار الاسلام بغير خراج رأسه).(١) .

ولكن المعنى الشائع في استعمال كلمة الخراج عند الفقهاء والمؤرخين هو مايفرض على الارض من ضريبة مالية واراضيها تسمى بالاراضي الخراجية (٢) واول من فرضها الرسول على اهل هجر على كل فرد ذكر كان او انثى (٣) وفعل عمر بن الخطاب عند فتحه العراق مافعله الرسول ، فكانت اغلب اراضي السواد في العراق قد فتحت عنوة عدا عدة قرى فتحت صلحاً فقد تركها عمر بيد اصحابها مقابل مقدار معين من المال (٤) وتسمى اراضي الصلح وجعل بدل الجزية والخراج فكانت ضريبة واحدة كما فعل مع نصارى تغلب عندما ضاعف الصدقة فهو خراج في الحقيقة (٥).

اما الاراضي التي فتحت عنوة (بالحرب) فقد ابقاها بيد اصحابها مقابل مقدار من الخراج عليها ، وابقى الجزية (٦) عليهم ، وحجة عمر في ابقاء الارض بيد اصحابها وتركها لهم قوله تعالى (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً)فتلا عليهم حتى بلغ قوله تعالى (والذين جاؤا من بعدهم) فاجمع على تركه وجمع خراجه وقرره في ايدي اهله ووضع الخراج على اراضيهم (٧) .

اما الاراضي العشرية التي يمتلكها الذمي فهي عند ابي حنيفة تصبح خراجية وعند ابي يوسف تبقى عشرية وعليه ان يدفع مصاعفاً كما هو الحال بالنسبة لنصارى تغلب (٨) .

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٣٢.
(٢) اليوزبكي : تأريخ أهل الذمة ص ٦٧.
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٩.
(٤) الكاساني : بدائع الصنائع جـ٢ ص ٥٨.
(٥) المصدر السابق والصحيفة.
(٦) ابو يوسف: الخراج ص ٤٤.
(٧) ابو يوسف : الخراج ص ٣٥.
(٨) الكاساني : بدائع الصنائع جـ٢ ص ٥٤.

وتتميز الاراضي الخراجية عن اراضي العشر في الامور التالية : — (١)

١. الاراضي الميتة والتي احياها المسلمون هي ارض عشرية لايجوز ان يوضع عليها الخراج .

٢. ما اسلم عليها اصحابها فهم أحق به فتكون ارض عشرية وليست خراجية.

٣. ما ملك من المشركين عنوة وقسم بين الفاتحين ارض عشرية.

٤. ما صولح عليها اهلها فهي ارض صلح يقع عليها العشر وليس الخراج.

اما في جباية الخراج فقد اتخذت طريقتين .

الاولى : مايفرض على مساحة الارض كما فعل عمر بن الخطاب في اراضي السواد (٢) في العراق بعد فتحها فقد تركها بايدي اهلها ، وفرض على كل جريب (٣) ارض صالحة للزراعة قفيزا (٤) وما يزرع فيها ودرهما .

اما الثانية : مايؤخذ بالمقاسمة وهو اخذ نسبة معينة من الحاصل نحو الخمس أو السدس وما اشبه ذلك (٥) .

ويؤخذ الخراج مرة واحدة في السنة اذا كان حسب المساحة ، واما خراج المقاسمة فيتكرر اخذه بتكرار الارض (٦). وبذلك يكون قرار عمر بابقاء الأرض بايدي اصحابها من أهل الذمة ان تحول حكم الارض للسواد من الغنيمة إلى الصلح دون أن يكون بين اهل الارض والمسلمين عهد او شرط

---

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ .

(٢) ارض السواد : والسواد ماحوالي الكوفة والبصرة من القرى والرساتيق وقيل : انما سمي بالسواد لكثرة النخل والشجر ولخضرته واسوداده ، ولان الخضرة تقاريب السواد ، ولان العرب تسمي الاسود أخضر والأخضر اسود (ابن منظور : لسان العرب ج٤ ص ٢٠٩)

(٣) الجريب = ١٣٦٦ متر

(٤) القفيز = ٢/٧٥١ كغم (الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ٢٧٧)

(٥) الكاساني : بدائع الصنائع ج٢ ص ٦٣ .

(٦) ابن عابدين : : رد المحتار على الدر المختار ج٣ ص ٣٦٥ .

صلح اتفقوا عليها (١) وقد راعى المسلمون في فرض الخراج بحسب كثافة الأرض وخصوبتها ونوعية الانتاج واثمانه وطريقة السقي وموقع الارض من المدن والاسواق (٢). وعدم تكاليف صاحبها فوق طاقته ، ويتجلى هذا في قول عمر بن الخطاب لحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف لما مسحا سواد العراق ، ووضعنا عليه الخراج قال عمر لهما : (لعلكما حملتما الارض مالا تطيق) قالا لابل حملناها ماتطيق : ولو زدنا لاطاقت) (٣).

وقد اتبع علي بن ابي طالب السياسة التي رسمها عمر بن الخطاب بالنسبة للخراج والتزم بها معظم خلفاء بني امية وولاتهم في العراق ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة قائلا له (...... وامرتك الا تطرق عليهم أرضيهم والا تحمل خرابها على عامرة ولا عامراً على خراب ، ولا تأخذ من الخراب الا ما يطيق ، ولا من العامر الا وظيفة الخراج في رفق ،وتسكين لاهل الارض،وامرتك الا تأخذ في الخراج اجور الضرابين ولا اذابة الفضة ولا هدية النيروز والمهرجان ولاثمن الصحف ، ولا اجور البيوت ولادراهم (٤) النكاح ، ولاخراج من اسلم من اهل الذمة) (٥) .

وكان الخراج حتى خلافة المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧هـ) يؤخذ في ايام النيروز الذي كان معمولا به ايام الفرس ، واقتدى بهم ملوك الاسلام فامر المتوكل بتأخير الخراج حتى يتم نضوج الحاصل (٦) رفقاً بالرعية .

---

(١) الراوي : العراق في العصر الاموي ص ٦٠ .

(٢) الماوردي : ص ١٤٣ ، ص ١٤٤ ، أبو يعلى ص ١٥١ .

(٣) الكاساني ج٢ ص ٦٢. ٦٣، يحيى بن آدم : الخراج ج١ ص ٩ .

(٤) دراهم النكاح : بقايا يراد بها بغايا كان يؤخذ منهن الخراج .

(٥) ابو عبيدة : الاموال ص ٦٥ ، ابن القيم ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٦) البيروني : الاثار الباقية عن القرون الخالية ص ٣١ .

عشور التجارة :

العشر : هو مقدار الضريبة المفروضة على أموال أهل الذمة المعدة للتجارة ، والمنقولة من دار الحرب الى دار السلام وبالعكس ، ويزيد هذا المقدار وينقص بناء على قاعدة المعاملة بالمثل(١) (خذوا منهم ما يأخذون منا)(٢) والاموال الخاضعة لضرائب التجارة وجميع عروض التجارة من حبوب وحيوانات ، وثياب وامتعة واطعمة ، وكذلك الذهب والفضة نقودا كانت او معدناً وغيرهم (٣) .

وقد حدد عمر بن الخطاب الضرائب المفروضة على التجارة بقوله : (خذوا من المسلم ربع العشر ومن الذمي نصف العشر ومن الحربي العشر (٤) .

ويشترط في المال الخاضع لضريبة العشر ان يبلغ النصاب ، وان يكون معدا للتجارة واختلف في تحديد نصاب المال وهو يتراوح بين ١٠ — ٢٠ دينارا ، ولا تجب ضريبة العشر على الذمي والمسلم اذا انتقل بتجارته من بلد إلى اخر بدار الاسلام (٥) وتستوفى ضريبة العشر من الذمي والمسلم والحربي مرة واحدة في السنة مهما تكررت مرات التجارة (٦). فاذا ازداد المال اخذ من الزيادة وحدها لأنها لم تعشر (٧). ويعفى الذمي من ضريبة العشر ان كان عليه دين بقدر مامعه او ينقص عن النصاب فيمنع أخذ العشر منه ولا يقبل منه الا ببينة من المسلمين (٨) ويعفى ايضاً من ضريبة التجارة كل من دخل بميرة والناس اليها بحاجة ليكثروها على المسلمين (٩) ويعفى العبد من ضريبة التجارة على البضاعة ان كانت ملكاً له (١٠).

---

(١) اليوزبكي : تاريخ اهل الذمة في العراق ص ٦٩ .
(٢) السرخسي الحنفي : شرح السير الكبير جـ٤ ص ٢٨٣ .
(٣) ابو يوسف : الخراج ص ٢٣٣ ، ص ١٣٤ .
(٤) أبو عبيدة : الاموال ص ٥٣٣ ، ص ٥٣٤ ، أبو يوسف : الخراج ص ١٣٥ ، ابن القيم : احكام ص ١٦٦ .
(٥) أبو يوسف : الخراج ص ١٣٣ .
(٦) أبو عبيدة : الاموال ص ٥٣٣ ، ص ٥٣٨
(٧) ابن القيم : احكام ص ١٦١ .
(٨) المصدر السابق ص ١٦٥ .
(٩) المصدر نفسه ص ١٦٧ .
(١٠) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء جـ٢ ص ٢٦٢ .

اما العشور على تجارة الخمور والخنازير فاختلف الفقهاء في جبايتها فمنهم من فرضها على الخمور دون الخنازير ومنهم من فرضها على الاثنين معاً (١) . لاستوائهما في المالية اما الضريبة على تجارة العبيد فكانت تبلغ عشرة دراهم على كل فرد وعلى الخيل ثمانية دراهم (٢) .

ولم تفرض العشور على التجارة الداخلية ويؤيد ذلك الماوردي بقوله : (واما اعشار الأموال المتنقلة في دار الاسلام من بلد إلى بلد فمحرمة لايبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ، ولا هي من سياسات العدل ولا من قضايا النصفة ، وقل ما تكون الا في البلاد الجائرة) (٣) .

الزكاة او الصدقة (٤)

الزكاة والصدقة هي اول ضريبة اسلامية فرضت على الاغنياء والقادرين من المسلمين على الاموال المرصدة للنماء اما بنفسها او بالعمل فيها طهرة لاهله ، والزكاة والصدقة تأتي بمعنى واحد ، وتجبى مرة واحدة في السنة ، وقد كانت اول الامر اختيارية استناداً الى قوله تعالى : (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) (٥) ثم اصبحت فيما بعد اجبارية بدليل قوله تعالى : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم) (٦) لان إخراج شيء من مال المسلم والتصدق به على فقراء المسلمين يطهر المال ويبعد عن صاحبه

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٣١ .

(٢) الشافعي : الام جـ٤ ص ١٢٥ .

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٨٣ .

(٤) الزكاة : مأخوذة من زكاة الشيء يزكو اذا نما وازداد فيقال : زكا الزرع والمال يزكو ان كثر وزاد ، وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ، فكأن الخراج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعله الله للمساكين (القرطبي تفسير اية الزكاة)

(٥) سورة المعراج اية ٢٤ — ٢٥ .

(٦) سورة التوبة اية ١٠٣ .

الحسد والحقد ، ويخلق من صاحبه الرحمة ، ويذهب عنه البخل والاثرة .

توزع اموال الزكاة والصدقات على ثمانية اصناف من الناس ، ذكرهم القرآن فقال تعالى : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) (١) . اما مقادير الزكاة والصدقات فقد حددها الرسول لعدم وجود نص قرآني يحدد مقاديرها ، وقد فرضت الزكاة على اموال التجارة وعلى الذهب والفضة وعلى الزروع وعلى المواشي والمعادن (الركاز).

كان جباة الخراج يشرفون على جباية الزكاة والصدقات ، والذين كانوا يسيئون استعمال صلاحياتهم في جبايتها . فقد اشار ابو يوسف في كتابه الخراج بقوله (وقد بلغني ان عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون مايحل ولا يسع) (٢) فاقترح ابو يوسف على الخليفة الرشيد ضرورة تعيين موظفين امناء للاشراف على جباية الزكاة والصدقات ويشترط في المال الخاضع للزكاة شرطان :—

١. ان يبلغ النصاب : ويختلف بحسب اختلاف الاموال .

٢. ان يبقى في حوزة صاحبه حولا كاملا .

وقد وضع الفقهاء مقادير الزكاة على الاموال المختلفة فجعلوا ضريبة الزكاة على اموال التجارة ٢,٥٪ وعلى الذهب والفضة ٢٠ درهماً أوللفضة و ٢٠ مثقالا للذهب ومقدارها ٢,٥٪ ايضا. اما الزكاة على الزروع والثمار فاختلفت باختلاف طريقة السقي ، فوضعوا على الزروع التي تسقى سيحا او بصورة طبيعية ١٠٪ وعلى الزروع التي تسقى بآلة $\frac{١}{٢٠}$ ، وليس على الخضر ولا على الاعلاف

---

(١) سورة التوبة اية ٦٠ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٩٥ .

ولا على العشب عشر (١) .

اما زكاة المواشي ، فعلى الابل والغنم والبقر خمس في الابل وثلاثون في البقر واربعون في الغنم ، واشترط فيها ان تكون سائحة في المراعي وغير مشتغلة في شيء . اما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها الا أذا كانت من اموال التجارة فيزكي صاحبها عنها بقيمتها النقدية . وقد فرض الفقهاء الزكاة على المعادن (الركاز) وهو ماوجد تحت الارض او في البحر كالمعادن والكنوز فقال الحسن البصري : ماكان من ركاز في ارض الحرب ففيه الخمس ، وما كان في ارض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر .

الفيء والغنيمة : الفيء هو مايحصل عليه المسلم دون قتال ويقسم خمسة اخماس كما جاء في القرآن (ماافاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (٢) والاربعة اخماس الباقية من الفيء تقسم بين الجند وفي شراء الاسلحة والمعدات الحربية (٣).

الغنيمة : — ماحصل عليها المسلمون عن طريق الحرب ، وتقسم إلى خمسة اخماس ، وتوزع حسبما جاء في القرآن (واعلموا ان ماغنمتم من شي فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (٤) .

ويختلف (المالان الفيء والغنيمة) في حكمهما وهما مخالفان لاموال الصدقات من اربعه اوجه (٥) احدهما : ان الصدقات مأخوذة من المسلمين تطهيرا لهم والفيء والغنيمة مأخوذان من الكفار .

والثاني : ان مصرف الصدقات منصوص عليه ليس للائمة اجتهاد فيه ، وفي اموال الفيء والغنيمة مايقف مصرفه على اجتهاد الائمة.

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ص ٥٩

(٢) سورة الحشر اية ٧ .

(٣) الماوردي : الاحكام ص ١٢٧ .

(٤) سورة الانفال اية ٤١ .

(٥) الماوردي : الاحكام ص ١٢٦ .

والثالث : ان اموال الصدقات يجوز ان ينفرد اربابها بقسمتها في اهلها ولايجوز لاهل الفيء والغنيمة ان ينفردوا بوضعه في مستحقه حتى يتولاه اهل الاجتهاد من الولاة . والرابع : اختلاف المصرفين حسبما جاء في القرآن .

الضرائب غير الشرعية (المستحدثة)

اشرنا إلى اهم الضرائب الشرعية التي ورد ذكرها في القرآن ، واما الضرائب المستحدثة او (غير الشرعية) فقد اوجدها الخلفاء فيما بعد ، فقد ارجع الامويون بعض الضرائب الساسانية التي الغاها الخليفة عمر بن الخطاب (هدايا النوروز والمهرجان) وهي ضرائب اعتاد الناس تقديمها باسم هدايا للملوك الساسانيين في عيدي النوروز والمهرجان ، وكان ذلك منذ خلافة معاوية بن ابي سفيان إذ أنه (طالب اهل السؤد ان يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا ذلك فبلغ عشرة الاف درهم (١) وقد ابطلها الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز ثم اعيدت من بعده ، وقد وردت اشارات إلى وجودها في العصر العباسي ايضاً فقد ذكر الفخري (٢) . ان بعض الناس قد اهدى خالد بن برمك في يوم نيروز هدايا من فضة وذهب . وروى ايضاً (٣) ان احمد بن يوسف وزير المامون اهدى للخليفة يوم نيروز هدية قيمتها معليون درهم . ويذكر المسعودي (٤) الهدايا التي قدمت للخليفة العباسي المتوكل يوم النيروز

ويفهم من هذه النصوص ان هدايا النوروز في العصر العباسي لم تكن تؤخذ من عامة الشعب ، وانما تقدم للخليفة ووزيره من قبل كبار رجال الدولة والحاشية. وهناك ضرائب اخرى فرضت في فترات متباينة في العصر الاموي والعباسي فقد روى بندلي (٥) جوزى : ان الامويين وضعوا ضرائب على الصناعات والحرف ، وان هذه الضرائب

(١) أبو يوسف: الخراج ص ٢٣ — ٢٤ .
(٢) ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية ص ١٤٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص ٢٧٩ .
(٥) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ٤٢ .

لم تكن محدودة ، بل كانت تعتمد على رغبة العمال ، ولذا فقد تكون اشد وطأة من الجزية والخراج . وقد فرض الخليفة العباسي المهدي ضريبة على الاسواق والحوانيت كما فرضت ضرائب (١) على الطواحين فذكر اليعقوبي (٢) ان (اجرة الاسواق ببغداد جميعاً ومن رحى البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثنا عشر مليون درهم) .

ومن الضرائب الاخرى (الغرامات) التي تأخذها الشرطة من الجناة فيقول الجهشياري . (٣) (قلد المهدي عمارة بن حمزة الخراج بالبصرة فكتب اليه ان يضم الاحداث الى الخراج ففعل ذلك) .

وفرض المتوكل الضرائب على الاموال المدفونة والكنوز كما فرض الخمس على ما يستخرج من البحر مثل العنبر واللؤلؤ والاحجار الكريمة وما يؤخذ من اللصوص من الاموال والامتعة اذا لم يعرف اصحابها . وفرضت ضريبة المواريث وهي مائؤخذ من مواريث من يموت ولا يخلف (٤) وارثاً له .

ولما ازدادت حاجة الخليفة اخذ يصادر الوزراء والكتاب ، فكان الواثق اول خليفة صادر كتابه ووزراءه بغية الحصول على الاموال (٥) . وهناك ضرائب فرضت على الدور (تدعى ضريبة العرصة) ولعلها فرضت على الدور المنشأة على ارض حكومية وفرضت عامة احياناً (٦) . وفرضت ضرائب على مايباع في الاسواق من المواد الغذائية كالدقيق والخضر والفواكه

---

(١) ابن الجوزي : مناقب بغداد ص ١٣ — ١٤ .
(٢) اليعقوبي : البلدان ص ٤٢ ، ص ٣٠ .
(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٤٩ .
(٤) متز : الحضارة الاسلامية ج١ ص ١٨٩ .
(٥) انظر الطبري ، حوادث سنة ٢٢٧ هـ .
(٦) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص ٢٠٢ — ٢٠٤ .

وعلى مايباع من المواشي وكذلك فرضت على بيع الخمور . وفرضت ضرائب ايضاً على الارزاق والرواتب في اواخر القرن الرابع الهجري (١).

ويبدو ان تعدد هذه الضرائب وتنوعها كان بسبب قلة الموارد المالية للدولة واضطراب الوضع السياسي وسيطرة العناصر الاجنبية على الحكم من اتراك وبويهيين وانفاقهم اموال بيت المال على بذخهم وترفهم .

جـ - النفقات (والعطاء)

يعتبر الفيء والغنيمة من المصادر المالية المهمة للدولة الاسلامية ، وينطلق تنظيم توزيعها حسبما جاء في آية الغنائم (٢) التي تقتضي توزيع غنائم الحرب إلى خمسة أخماس يعطى الخمس إلى من ذكر في الآية الكريمة ويوزع أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلين ، وينسب إلى عمر بن الخطاب ، تقرير مبدأ أن ماوقع في أيدي المحاربين من أموال منقولة وأسرى حرب انما هو داخل في الغنيمة ، وهو من نصيب المقاتلين . اما الاراضي والعقارات والدور (الاموال غير المنقولة) فليس كذلك اذ هي من حق جمهور المسلمين وهي فيئهم . وللدولة حتى الاشراف عليها وجباية غلتها بوساطة موظفيها وتنفق مواردها لصالح المسلمين . ان هذا النهج ناتج عن قدرة الخليفة عمر في تأويل النصوص وتطبيقها بما يخدم مصلحة الامة ، وقد برر عمر بن الخطاب موقفه هذا بقوله ، فاذا قسمت ارض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذه البلد وبغيره فقالوا الرأي رأيك (٣) . وقد استقر رأي عمر على هذا التدبير بعد أن استشار كبار الصحابة الذين اختلفوا في الرأي (فاما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم (٤) ووافقه الزبير بن العوام (٥) وكان رأي عثمان وعلي وطلحة وابن عمر

---

(١) المصدر السابق نفسه: ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .
(٢) انظر سورة الانفال اية ٤١ .
(٣) ابو يوسف : الخراج ص ٢٤ - ٢٥ .
(٤) البلاذري : فتوح ص ٢١٨ .
(٥) ابو يوسف : الخراج ص ١٥)

رأي عمر (١) ويذكر اليعقوبي أن علياً عارض قسمة الارض وقال لعمر : (أن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجئ بعدنا شئ ولكن نقرها في أيديهم يعملونها فتكون لنا وطن بعدنا((٢) .

ومن هذا الاساس أورد أبو يوسف حكمه في الأرض المفتوحة بقوله : (وأيما ارض افتتحها الامام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها فان راى ان ذلك أفضل فهو في سنة من ذلك – وهي ارض عشر – وأن لم ير قسمتها ورأى الصلاح في اقرارها في أيدي أهلها كما فعل عمر بن الخطاب في أرض السواد فله ذلك – وهي ارض خراج – وليس له ان يأخذها بعد ذلك منهم وهي ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفوا من ذلك مالا يطيقون (٣)

وقد اوضح عمر بن الخطاب سياسته المالية في توزيع العطاء أمام صحابة رسول الله فقال لهم ماترون : فاني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة ، وأجمع المال فانه أعظم للبركة فوافقوه اكثرهم ، ففرض الاعطيات ، واستشارهم في ترتيب الناس على منازلهم وقال : (لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه) (٤) وقد عبر عن هذا المنطلق بقوله : (ما أحد الا وله في هذا المال حق اعطيه أو أمنعه ، وما أحد أحق من أحد ، وما أنافيه الا كاحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاءه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته) (٥) .

وعلى هذا الاساس فقد ساوى عمر بن الخطاب كل طبقة في العطاء قويهم

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٤ .
(٢) اليعقوبي : تاريخ ج٢ ص ١٢٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥ – ٢٧، ص ٦٣، ٦٩ .
(٤) الماوردى : الاحكام ص ١٩٠ .
(٥) الطبري : ج ص ٢٣ – ٢٤ ، أبو يوسف الخراج ص ٤٦ .

وضعيفهم عربهم ومواليهم فكتب إلى امراء الاجناد (ومن اعتقهم من الحمراء فاسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم وأن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم اسوتهم في العطاء (١) وميز عمر بن الخطاب نساء النبي في العطاء ففرض لامهات المؤمنين ستة الاف أو عشرة الاف درهم – على اختلاف الروايات – ثم سوى بين النساء بحسب طبقتها وجعل للمرأة عشر اعطيت زوجها وفرض للمهاجرين خمسة الاف درهم في السنة وللبدريين (الذين شهدوا معركة بدر) أربعة الاف درهم . وفرض لكل مولود مائة درهم فاذا ترعرع بلغ به مئتي درهم ، فاذا بلغ رشده زاد له في العطاء ، ولم يكن يفرض للمولود أول الامر حتى يفطم ، ثم امر مناديه ان يهيب بالناس (أن لاتعجلوا بفطام أولادكم ، فانا نفرض لكل مولود في الاسلام) (٢) .

(١) الطبري جـ٤ ص١٦٢ ١٦٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ص٤٦٤ ، ابو يوسف الخراج ص٤٢.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٦٤ .

الفصل السابع

النظم العسكرية

١ ـ الجيش

الجيش عند العرب قبل الاسلام
الجيش في عصر الرسول (التطوع باسم الجهاد)
الجيش في عصر الخلفاء الراشدين (نظام التجنيد الالزامي)
الجيش في العصر الاموي والعباسي

٢ ـ البحرية

نشأة البحرية الاسلامية
البحرية في العصر الاموي والعباسي
السفن الحربية (انواعها واصنافها)

٣ ـ الشرطه

نشأة نظام الشرطة
صلاحيات وواجبات الشرطة
رتب الشرطة

النظم العسكرية :

١ ـ الجيش

لم يكن لدى العرب في الجاهلية جيش نظامي كجيوش الفرس والروم ، بل أن مهمة القتال والدفاع عن القبيلة تقع على عاتق جميع أفرادها ، واذا ماانتهى داعي القتال عادوا إلى اعمالهم .

ولما جاء الاسلام جعل للقتال غاية ، وقضى على العصبية القبلية ووحدهم ووجههم في سبيل نشر الاسلام . وقد اعتمد الرسول لنشر رسالته اسلوب الصبر وتحمل الاذى ، واتبع وسائل المناقشة والاقناع ، ولما اشتد اذى قريش للمسلمين وعدوانهم على المستضعفين اذن لهم بالقتال استناداً إلى مانزل على النبي (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) (١) .

وقد عمل النبي على تعليم أتباعه فنون القتال وتدريبهم على استعمال السلاح ، وحث القرآن على ذلك بقوله تعالى (واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ...) غير أن الرسول لم يكره المسلمين على الاشتراك في القتال فكان يقول للمسلمين قبل كل معركة (لايخرجن معنا الا راغب في الجهاد) (٢) .

وقد سار الخليفة الأول أبو بكر على نهج الرسول في عدم اكراه المسلمين على الاشتراك في القتال ، فكتب إلى قواده عند فتح العراق والشام (أن يأذنوا لمن شاء بالرجوع ولا يستفتحوا بمتكاره) (٣) .

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة اتجه بثقل المسلمين إلى الجهاد والفتوح ، وتطلب منه الامر أن يضع نظاماً للجيش ينسجم مع خطة الفتوحات الواسعة التي شرع بتطبيقها ففرض التجنيد الاجباري بعد أن وجد الناس يتشاغلون

(١) سورة الحج آية ٣٩ – ٤٠

(٢) ابن سعد : الطبقات جـ٢ ص ٢٧

(٣) الطبري : تاريخ جـ٤ ص ٢٩

بكسب المال عن القتال ، وأمر عماله في الجزيرة العربية باحضار كل فارس وذي نجدة أو رأي أو فرس أو سلاح وآلات وقذف فيه بالفتوح فان جاء طائعاً والا حشروه حشراً وقادوه مقاداً (١) . قائلا لهم (لاتدعوا احدا إلا وجهتموه الي والعجل العجل) (٢) وبهذا التخطيط السليم استطاع أن يكون الجيوش العظيمة ، التي استطاع بها ان يفتح العراق وفارس والشام ومصر . ولضمان سير هذه الجيوش وحرصاً على تجهيزها وتموينها انشأ ديوان الجند الذي سجل فيه أسماء المقاتلين ووجهتهم ومقدار اعطياتهم وارزاقهم ، واقتضى الامر أيضاً انشاء ديوان بيت المال لتوفير الاموال اللازمة لنفقات الفتوح . وأقام لهذه الجيوش المعسكرات والحصون فبنى المدن كالبصرة والكوفة والفسطاط لاتخاذها معسكرات لاقامة الحاميات العسكرية وعوائل المقاتلين فيها .

ولما ولي عثمان الخلافة اقتدى بسياسة عمر في فرض التجنيد الالزامي الا أنه عندما اذن لمعاوية بالغزو بحراً أمره أن يخير الناس ولايكرههم على القتال (٣) بحراً ، ولما حدثت الفتنة في أواخر أيامه وانقسم المسلمون على أنفسهم انشغل في اخمادها ، خمدت جذوة الجهاد وتوقفت الفتوحات .

وفي خلافة علي توسعت شقة الخلاف بين المسلمين ، وأصبح القتال في سبيل الدفاع عن الرأي الذي يراه كل مسلم صالحاً لاستقامة الامور ضعف وازع القتال في سبيل نشر الدين بالنسبة لما كان عليه الحال أيام عمر بن الخطاب ، فخفت الروح العسكرية ووهنت عزائم الناس في القتال لانهم منشغلون في الحروب الأهلية والاسلامية ولم يكن أغلبهم مقتنعاً بحل الحرب التي يخوض المسلمين غمارها ويريقون في ساحاتها دماء المسلمين (٤) .

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ٦٣

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص ٨٢

(٣) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٤٨٩

(٤) المصدر السابق والصحيفة .

اضف إلى ذلك قيام الصراعات السياسية على الخلافة وظهور الخوارج كحزب سياسي ثالث في النزاع بين علي ومعاوية مما زاد في ضعف روح الجهاد في سبيل الله ، وانشغل الخليفة في مقاومة اعدائه ومنافسيه مما أقعده عن التفكير في مواصلة الفتوحات .

ولما استقر الامر للامويين وجدوا تقاعس المسلمين عن الجهاد والفتوح وانصرافهم عن القتال فارغموهم عليه بأن أدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الاجباري اضافة إلى الجند المرتزقة (١) والمتطوعة ، واستخدم الامويون — لغرض توفير الجيوش للفتح — اسلوب التهجير ، فرحل الحجاج بن يوسف الثقفي في ولايته على العراق سبعين الف عائلة من الكوفة والبصرة وأسكنهم خراسان لمواصلة الفتوحات .

أما في العصر العباسي : فقد استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نمواً عظيماً بمن دخل فيه من الموالي وخاصة الفرس ، الذين ساهموا في قيام الدولة العباسية . وكانت سياسة الخلفاء العباسيين تنحصر في حفظ التوازن بين عنصري الجيش العرب والفرس ، الا أن هذا التوازن بدأ يختل نتيجة للصراع السياسي الذي اخذت تظهر بوادره خلال العصر العباسي الاول بين العرب والفرس ، وقد أوحى هذا الاختلال الذي حدث بين عنصري الجيش والظروف السياسية التي عاشتها الدولة العباسية إلى الخليفة العباسي المعتصم بالتفكير بالاعتماد على عنصر ثالث في الجيش فاستخدم الاتراك ، ولم يعد العباسيون يطمئنون إلى العرب ، وأساؤا الظن بهم على اعتبار أنهم أنصار الامويين (٢) . ولا إلى الفرس لطموحهم ولمحاولتهم استعادة مجدهم المندثر . وتعتبر هذه السياسة خطيرة بالنسبة للعرب وخروجاً على سياسة المنصور التقليدية في حفظ التوازن في الجيش بين الفرق العربية والاعجمية (٣) .

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٩٦

(٢) محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية ص ١٩

(٣) اليوزبكي : الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص ١٢٠ ط (٢) ١٩٧٦ .

وكثر عدد الجند الاتراك في الجيش ، وقويت شكيمتهم ، حتى بلغ عددهم سبعين ألفاً ويشير إلى ذلك علي بن الجهم بقوله (١) .

امامي من له سبعون الفا   من الاتراك مسرعة السهام

وأدخل العباسيون نظام المرتزقة ، وهم الجند الذين يقبضون رواتب معينة ثابتة ، ويدربون باستمرار ليكونوا متأهبين للحرب دوماً ، اضافة إلى المتطوعة الذين كانوا ينضمون في صفوف الجيش رغبة في الجهاد أو طمعاً في الغنيمة .

دوافع القتال ونظمه :

لقد شرع الاسلام القتال للمسلمين باسم الجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام ، ووضع له حدوده وأسسه يخير فيها غير المسلم بين الاسلام أو الجزية أو القتال فقال تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون بدين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (٢) يضاف إلى ذلك أن فكرة الاخرة التي أكد عليها القرآن كانت تدفع المسلمين إلى الاستماتة بارواحهم في القتال والصمود في المعارك فقد جاء في القرآن (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ...) (٣) اذن كان للدافع الديني الاثر الاكبر في حث العرب على الانخراط في الجيوش الاسلامية والاسهام بالفتوحات .

وكان الدافع الاقتصادي عاملا مشجعاً في اقبال المسلمين على تلبية نداء الجهاد فقدعادت الفتوحات عليهم بالغنائم الكثيرة ونورد مثلا للدلالة على عظم الاموال الواردة من الفتوحات قال عمر للمسلمين مخاطباً : قد جاء مال كثير فان شئتم ان نكيل لكم كلنا ، وان شئتم ان نعد لكم عددنا ، وان شئتم ان نزن لكم وزنا ...) (٤) .

---

(١) الاربلي : خلاصة الذهب المسبوك ص ١٦٠ ، ياقوت : معجم البلدان (مادة سر من ر)

(٢) سورة التوبة آية ٢٩

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٤٥

ومن العوامل التي حققت الانتصار للمسلمين في حروبهم مع الدولتين الفارسية والبيزنطية نظم القتال واساليبه فقد تعود العرب في جزيرتهم على شظف العيش وتحمل المشاق واحتمال قسوة المناخ فمكنتهم من الحرب في مختلف البلاد ، كما أن الحروب الكثيرة والغزوات بين القبائل العربية كانت لهم بمثابة التدريب العسكري وكذلك طريقتهم في القتال اعانتهم على النصر لانهم كانوا يقاتلون بطريقة الكر والفر (الهجوم المفاجئ والانسحاب المفاجئ) وكذلك سرعة الحركة والتنقل فكان الفرسان يردفون للراجلة في تقدمهم للمعارك وهم بهذا اقدر على التقدم والهجوم من الجيوش الفارسية والبيزنطية ، مما أوجد نوعاً من المباغتة لهذه الجيوش التي لم تكن قد تدربت على هذا النوع من القتال والتعبئـة .

وأدخل الرسول نظام القتال في صفوف متراصة يسند بعضها بعضا .

وفي عصر الراشدين دخلت تغييرات على نظم الجيش بتقسيمه إلى خمسة اقســام وهــي : القلب في الوسط وهو موضع القائد وحاشيته للاشراف على سير القتال ثم الجناحان (الميمنة والميسرة) ويقود كل منها أحد القواد المساعدين وتتكون عادة من الخيالة والفرسان . ثم المقدمة في الامام وهم المشاة . والمؤخرة أو الساقة في الخلف للحماية وللعناية بالجرحى وفيها المؤن والتجهيزات العسكرية وعوائل المقاتلين .

وقد حوفظ على الوحدات القبلية ضمن هذا التقسيم فكان لكل قبيلة قائد هو شيخها بالاضافة إلى القواد الذين يعينهم الخليفة لقيادة أقسام الجيش الرئيسة ومن القيم الاخلاقية العسكرية عند المسلمين ألا يقاتلوا الاعزل والمحايد (غير المقاتل) وأن يقبلوا السلم والصلح مستوحين هذه المبادئ من القيم العربية والمبادئ الاسلامية في قوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (١) . وقد أكد الخلفاء الراشدون في وصاياهم لقوادهم بحسن معاملة أهل البلاد المفتوحة وعدم قتل النساء والاطفال والشيوخ والرهبان وتدمير الحرث فجاء

(١) سورة الأنفال : آية ٦١

في وصية ابي بكر لقواده (أو صيكم بعشر فاحفظوها عني الا تخونوا ولاتغلوا ولاتغدروا ولا تمثلوا (أي لاتقتلوا) طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لاكلة ، وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له ... (١) .

ومن المبادئ السامية التي مارسها المسلمون في الحروب انهم احترموا العهود والمواثيق مستندين بذلك إلى ماجاء به القرآن (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) (٢) .

وحدات الجيش واصنافه :

لم يكن نظام وحدات الجيش ثابتاً طوال العصور الاسلامية ، ففي عهد الرسول (ص) استخدم نظام العرفاء في الجيش وجعل على كل عشرة جنود عريفاً (٣) وعلى كل عشرة عرفاء نقيباً . ولما جاء أبو بكر اتبع نظام الرسول (ص) فقد كتب إلى سعد بن ابي وقاص قبل معركة القادسية يقول : (اذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر عليهم اخيارهم وعبئهم ، ومر رؤساء القوم فليشهدوا .. واجعل على الرايات رجالا من أهل السابقة (٤)).

وقد اجرى عمر بن الخطاب تعديلات على النظام العسكري (نظام العرافات) فبعد أن كان العريف ينوب عن عشرة من الجنود اصبح العريف ينوب عن قبيلة ، وجعل رتبة خليفة على خمسين جندياً ، والقائد على مائة ، واميرالكردوس على الف ، واميرالجيش على عشرة الاف (٥) وفي العصر العباسي صار العريف لكل عشرة جنود ، والنقيب لكل عشرة عرفاء ، والقائد لكل عشرة نقباء، والامير لكل عشرة قواد ، والخليفة اميراً للجيوش .

---

(١) الطبري : ج٣ ص ٢١٣ ، ابن سعد : الطبقات ج٢ ص ١٢٧ ، دائرة المعارف البريطانية ج١١ ص ١٨٤

(٢) سورة النحل آية ٩

(٣) الطبري : ج٤ ص ١٨٧

(٤) المصدر السابق ج٤ ص ١٨٨

(٥) ابن خلدون : تاريخ ج٣ ص ٢٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ج٢ ص ٢٠٠

أما أصناف الجيش فيتكون من المشاة ، وأسلحتهم الاقواس والسهام ، وهم يحملون السيوف معلقة على الاكتاف اليمنى ، ويستعملون الحراب ويلبسون الدروع . وكذلك الخيالة : وأسلحتهم السيوف والرماح والفؤوس وفي العصر العباسي أوجدوا فرقاً من النشابين وهم الرماة ومنهم النفاطون لرمي المواد المحرقة. كما استخدموا المهندسين الذين كانوا يتولون عمليات الحصار وبناء الجسور وحفر الخنادق .

اسلحة الجيش :

استخدم المسلمون في حروبهم الاولى الاسلحة المعروفة انذاك وأشهرها السيوف وقد برع العرب في صنعها واستعمالها — واستعملوا أنواع الرماح والقوس والنشاب ، كما استعملوا الدروع بأشكالها المختلفة لتغطية البدن وقد ورد ذكرها في القرآن باسم (السابغات) كما استخدموا الترس ليقيهم ضربات العدو يصنع من الخشب ويغلف بالجلد . واستعملوا المنجنيق ، استخدمه الرسول في حصار يهود خيبر ورمى أهل الطائف به بالحجارة على اسوارها (١) وقد ادخلت عليه تحسينات كثيرة طيلة العصور الاسلامية بحيث اصبح في العصر العباسي من أهم الاسلحة الثقيلة والمدمرة ، وقذفوا به قذائف النفط المحترق واستخدموا به النار الاغريقية (٢) .

واستعمل المسلمون في القرن الاول للهجرة من الاسلحة (الصنبر) والذي أطلق عليه (الدبابة) وهي على هيئة برج مربع له سقف من الخشب مغلف بالجلد تتسع لعشر جنود وتقف بجوار الاسوار بداخلها سلالم لصعود الرجال إلى شرفات الحصون (٣) واستعملوا العدادة (رأس الكبش) وهي كالدبابة على شكل برج خشبي يلتصق بالسور لاحداث الثغرات فيه واستعملها خالد بن الوليد في فتح أسوار دمشق (٤) .

(١) الطبري : تأريخ ج٣ ص ١٣٣
(٢) عبدالرزاق : الفن الحربي في صدر الاسلام ص ١٦٧
(٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج١ ص ١٧٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج٢ ص ١٨٠

واستعمل العرب المسلمون في حروبهم وفتوحاتهم الخيول والجمال وهي المعول عليها في القتال والحركة المريعة ، واعتنوا كثيراً بأصولها وأنسابها ، وكان الفرسان هم طلائع الجيوش الاسلامية ، وقد أسهم الفارس بثلاثة أسهم فجعلوا له سهماً وسهمين لفرسه ، كما استعملوا الجمال في نقل العدد الحربيـة والذخائر والمـــؤن العسكرية لقدرتها على السير لمسافات طويلة ولتحملها العطش والمشاق .

واستخدم خلفاء بني العباس نظام الجاسوسية من الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى بلاد الاعداء متنكرين في ازياء التجار والاطباء وغيرها لجمع الاخبار ونقلها إلى الدولة .

٢ ـ البحرية :

نشأة البحرية الاسلامية :

لم يعتد العرب القتال في البحر لعدم تطلعهم إلى الخروج خارج حدود جزيرتهم في طريق البحر ، وظلت حروبهم مقصورة على البر داخل الجزيرة العربية وعلى اطرافها الشمالية . وواصل العرب عدم اهتمامهم بالبحر طيلة حياة الرسول وخلافة ابي بكر الذي ابتدأت الفتوحات في عهده ووصلت اوج عظمتهافي خلافة عمر بن الخطاب وكانت كلها فتوحات اقاليم تتصل بجزيرة العرب برا وكان عمر يكره على المسلمين ركوب البحر بعد توسع الفتوحات ووصول حدود الدولة الاسلامية إلى سواحل البحر المتوسط كما كان ينهي قواده عن القتال فيه ولما بلغه ان العلاء بن الحضرمي وعرفجه بن هرثمة ركبا البحر (الخليج العربي) عنفهما وعاقبهما (١) . ولما الح معاوية بن ابي سفيان على الخليفة عمر محاولا اقناعه بانشاء الاسطول لغزو الروم بحرا لقربها من بلاد الشام كتب عمر إلى واليه على مصر عمرو بن العاص ان يصف له البحر فكتب قائلا : (ليس الا السماء والماء ان ركد احزن القلوب وان ثار ازاغ العقول .. ان مال غرق وان نجا برق) فرفض عمر طلب معاوية وكتب اليه (لا والذي بعث محمدا بالحق لأحمل

(١) الطبري : جـ٤ ص ٢١٢ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٢١١

فيه سلماً ابداً) (١) ويعلل ابن خلدون (٢) سبب امتناع العرب عن ركوب البحر قائلا : (والسبب في ذلك ان العرب ابداوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والفرنجة لممارستهم احواله ومرباهم في التقلب على اعواده مرنوا عليه فاحكموا الدراية بثقافته ، فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت امم البحر خولا لهم وتحت ايديهم ، وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النوتية في حاجاتهم البحرية امماً ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا ابصراء بها (اي بالبحرية) فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وانشأوا السفن فيه والشواني وهي (احدى انواع السفن الحربية) وشحنوا الاساطيل بالرجال وامطوها للعساكر المقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ماكان اقرب إلى هذا البحر وعلى حافته ، مثل الشام وافريقيا والمغرب والاندلس ولما جاء عثمـان اقتنع بان الوقت قد حان لإنشاء الاسطول ، واشترط الا يغزو فيه احد مكرهـا فالى عثمان بن عفان والى واليه على مصر عبدالله بن سعد بن ابي سرح يعود الفضل في انشاء الاسطول العربي ، وكان المركز الرئيسي له الفسطاط حيث اقيمت دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة على النيل ثم انشأ مركزاً اخر في بلاد الشام واسطولا ثالثاً في القلزم (السويس) ويظهر ان الاسطول الثالث لم تكن الغاية منه الحرب بل كان اسطولا لنقل المواد الغذائية إلى الحجاز اذ لم نسمع بانه قام باى دور في الحروب البحرية .

و من العوامل الاخرى التي شجعت على بناء الاسطول العربي وجود الاخشاب في غابات لبنان ومصر ووجود ملاحين من الروم والاقباط وتكون الحملات البحرية عادة في الربيع والصيف اما الشتاء فتجري فيه الاستعدادات للحملات البحرية .

لقد اخذ الاسطول العربي بالتفوق بحرياً على الاسطول البيزنطي ابتداء من سنة ٢٨ هـ ، وقد اخذ المبادرة من الروم ، واستطاع ان يقوم بعدة هجمات

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ١٧٧
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٠ – ٢٢٢

على جزر البحر المتوسط ، واهم هذه الهجمات هي الحملة التي قام بها ضد قبرص سنة ٢٨ هـ (١) .

لذلك كان اول ماقام به معاوية بعد أن شعر بقوة الاسطول الاسلامي هو احتلال هذه الجزيرة ، ثم ارسل معاوية حملات عسكرية اخرى لاحتلال جزيرة ارواد — وهي جزيرة صغيرة قريبة من الساحل السوري — فاستولى عليها سنة ٢٩ هـ وتوالت هجمات العرب البحرية على جزر البحر المتوسط فاحتلوا رودس سنة ٣٣ هـ كما هاجموا جزيرة كريت واخذ الاسطول العربي يتجول في الارخبيل اليوناني .

لقد ادرك الروم خطر القوة البحرية العربية فجمعوا اسطولا قوياً بلغ عدد سفنه خمسمائة سفينة وتقدموا به مصممين على تحطيم الاسطول العربي واسترجاع السيادة لهم في البحر المتوسط . اما العرب فارسلوا سنة ٣٤ هـ اسطولا قوياً من سوريا واخر من مصر بقيادة عبدالله بن سعد ابن سرح واجتمع الاسطولان ولقيا الاسطول البيزنطي في شمال رودس واشتبكا معه بمعركة دامية قتل فيها من الروم على مايقال ٢٠ الفا ودمر معظم الاسطول البيزنطي ، واحتفظ العرب بالسيادة في البحر المتوسط وبلغ عدد سفن الاسطول العربي في عهد معاوية مايقارب ١٧٠٠ سفينة (٢) حربية واستمر الاسطول العربي في القوة والازدهار . وبلغ الذروة في عهد الوليد بن عبد الملك الذي ارسل حملة بحرية لاحتلال القسطنطينية واودع قيادتها إلى اخيه مسلمة بن عبد الملك ، غير ان الوليد توفي ، فقادها سليمان بن عبد الملك وكانت مؤلفة من ٢٠٠ الف جندي و ٥ الاف سفينة ، وحاصروها مدة اكثر من ستة اشهر . لم يستطع العرب ان يحدثوا ثغرة في اسوارها ثم قاسى الجيش الضخم نقص الاغذية وانتشار الوباء مما اضطر مسلمة بن عبد الملك ان ينسحب ، ومنذ ذلك الوقت اصبح الاسطول العربي اسطولا دفاعياً ؛ وبقيت البحرية العربية محتفظة بقوتها طيلة العصر الاموي والعصر العباسي الاول حتى بدأ الضعف يدب في

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم ص ٢١٩
(٢) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٥١٣

جسم الدولة العباسية في الشرق والغرب فاخذت القوة البحرية في الضعف (١)

انواع السفن : كانت السفن الحربية مختلفة الانواع ، فمنها الصغير للحركات السريعة والمناورات والاستطلاع ، ومنها سفن كبيرة تسمى القلاع ، وتستخدم لنقل الجنود والذخائر والمؤن والاعتدة ، وسفن متوسطة الحجم تستخدم في رمي قذائف النفط المشتعلة على سفن الاعداء وتسمى (الحراقات) .

٣ ــ الشرطة :

اصل الكلمة لغة : جاء في لسان العرب (٢) : أن الشّرطة جاءت من كلمة شَرَطي او شُرَطي والجمع شُرَّط، سموا بذلك لأنهم اعدوا لذلك واعلموا انفسهم بعلامات خاصة، والشرطة حسبما جاء في دائرة المعارف الاسلامية (٣) الرجال المختارون الذين يبدأون القتال او (الحرس الخاص) ثم استخدم اللفظ بمعنى رجل الامن وواجباته في هذه الحالة تتفق وواجبات الشرطة في عصرنا الحاضر .

وقيل : جاءت من الشرط (بالفتح) وهو رذال الحال ، لأنهم يتحدثون في ارذال الناس وشقاتهم ممن لامال لهم من اللصوص ونحوهم .

نشأة الشرطة :

لم ينشأ نظام الشرطة بصلاحياته واختصاصاته مرة واحدة بالصورة التي وجدناها في العصور المتأخرة . ويعود نشأتها إلى عهد الراشدين فكان نظام العسس نواة هذا النظام فقد ذكر بعض المؤرخين (٤) : ان تأسيسه يرجع إلى ايام ابي بكر

---

(١) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ١٩٠ – ١٩١ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب جـ٩ ص ٢٠٢ – ٢٠٣

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة (شرطة) المجلد الثالث عشر ص ١٩٢

(٤) أنور رفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه الادارية والسياسية ص ١٤٨

فقد عين عبدالله بن مسعود اميراً على العسس ، ويرى اخرون انه نشأ منذ ايام عمر بن الخطاب فكان هو يتولى العسس ويصطحب معه مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف يطارد شاربي الخمر ولاعبي الميسر (١) وقد وجد هذا النظام ايضاً في الامصار الاسلامية يذكر الطبري: انه اوكل إلى اربعمائة منهم حراسة بيت المال والسجن في البصرة منذ زمن ابي موسى الاشعري وان علياً أبن ابي طالب ولى شرطة الكوفة قيس بن سعد الانصاري .

والمرجح انه ظهر في اواخر خلافة علي واوائل الدولة الاموية ، ويعلل بعض من المؤرخين عوامل ظهورها بازدياد عدد سكان الكوفة بهجرة اخلاط الناس من عرب وغير عرب ، وتعقد المجتمع وزيادة مشاكل الناس فاحتاج الخليفة إلى من يعاونه في ضبط الامور، ولكن ظهور صاحب الشرطة في اوائل العصر الاموي كان اكثر وضوحاً لتعقيب المجرمين والقضاء على الحركات المعارضة لحكم الدولة الاموية (٢) . ويذكر الطبري (٣) : ان زياد بن ابيه في ولايته على البصرة جعل الشرط اربعة الاف ، عليهم بن حصن حتى مات وولى الجعد أبن قيس التميمي امر الفساق .

صلاحيات وواجبات الشرطة :

لم تكن سلطة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس ، وانما كان حكمهم على الدهماء ، واهل الريب ، والضرب على ايدي الرعاع والفجرة (٤) ويرى بعض المؤرخين (٥) : انها من توابع القضاء لان المراد بها تنفيذ احكام القضاة

(١) أحمد شبلي : السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ص ١٧٣

(٢) ثابت الراوي : العراق في العصر الأموي ص ٥٣

(٣) الطبري : تأريخ ج٧ ص ٧٦ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ج٢ ص ٧٩٥ .

(٥) جرجي زيدان : تأريخ التمدن الاسلامي ج١ ص ٢٥٢

او فرض العقوبات الزاجرة ، واقامة التقرير والتأديب ، وهي تساعد القاضي في تنفيذ الحكم ، ويتولى صاحب الشرطة ايضاً اقامة الحدود على الزنا وشرب الخمور وغيرها من الامور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها ويساهم الشرطة ايضاً في معاونة عمال الحسبة في أخذ الناس في امور الدين ونهيهم عن المنكرات وتأديبهم ، وتنفيذ اوامر السلطان ، ومساعدة عمال الخراج ، كما انيطت بصاحب الشرطة ادارة السجون .

وكان يتولى ديوان الشرطة موظف كبير يدعى بـ (صاحب الشرطة) ويقوم بتدبير الحرس السلطاني ، وقد اسند اليه في العصور المتأخرة منصب الوزارة (١) .

رتب الشرطة

١ . صاحب الشرطة : تتفق المصادر التاريخية على ان صاحب الشرطة هو القائد لهذه القوات وهو الذي يساعد السلطة في تطبيق الامن وتنفيذ اجراءات القاضي وحماية الاخلاق ، ويختار صاحب الشرطة من كبار رجال الدولة ومن افرادها البارزين ، وينبغي ان يكون حليماً مهيباً دائم الصوت طويل الفكر بعيد الغور ... وان يكون غليظاً على اهل الريب في تصاريف الحيل شديد الفطنة ... وان يكون طاهر السيرة غير عجول ويكون قليل التبسم (٢)

وكان يختار من ذوي القوة والعصبية لانه يختار افراد شرطته من اعوانه وبني عمومته ليساعدوه على مطاردة الجناة والمفسدين ، وتحقيق الامن ، وحفظ النظام بالتعاون بين اولئك النفر وبين رئيسهم (٣) .

٢. النقيب : يلي مرتبة صاحب الشرطة النقيب ، وهي في اللغة شاهد القوم وضمينهم وسيدهم ، وسمي بذلك لانه ينقب عن امور الناس ، وكان النقيب في الدولة العباسية على مائة رجل من الشرطة (٤) .

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب مطول ص ٣٩٨

(٢) أنور رفاعي : الاسلام في حضارته ص ١٥٤

(٣) الجومرد : هارون الرشيد جـ٢ ص ٣٤٨

(٤) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي جـ١ ص ١٧٤

٣. **العريف** : ويأتي بالمرتبة الثانية بعد النقيب ، وهو في اللغة العالم بالشيء او القيم بامر القوم .

اسلحة الشرطة :

لم يرد في كتب التاريخ الاسلحة التي كان يستخدمها الشرطة خلال العصور التأريخية المختلفة سوى اشارة الى انهم كانوا يحملون آلة من السلاح يطلق عليها اسم (الطبرزين) وهي عبارة عن سكينة طويلة يحملونها معلقة ويقومون بالطواف طوال الليل إلى صلاة الفجر (١) .

ولم تشر المصادر إلى مقادير مرتبات الشرطة ويبدو من منزلة صاحب الشرطة انه كان يتقاضى رواتب عالية .

---

(١) أنور رفاعي : الاسلامي جـ١ ص ١٥٣

الفصل الثامن

النظام القضائي

النظام القضائي

١ ـ القضاء :

معنى القضاء : (١)

القضاء لغة : (الانقطاع) وجاءت كلمة القضاء من (قضى) بمعنى مات وانقطع ، قال تعالى (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) او اراد امرا (واذا قضى امرا) او بمعنى اكتفى (فلما قضى زيد منها وطرا) وتأتي بمعنى الحكم (... فاقض ماانت قاض) والمعنى الاخير في الاية هو المقصود في القضاء .

واما معناه اصطلاحا : فيقول ابن خلدون : (القضاء منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للنزاع ، ويقول الجرجاني في (التعريفات) : (القضاء في الخصومة اظهار ماهو ثابت) .

لم يكن الظام القضائي الذي وجدناه في عصر صدر الاسلام معروفاً لدى العرب في الجاهلية اذ كان النظام السياسي والاجتماعي عند العرب في الجاهلية قائماً على اساس القبيلة ، ولم يساعد هذا النظام على ايجاد سلطة تشريعية فيها بل سادت القبيلة العادات والتقاليد وكان للعرف اكبر الاثر في ذلك .

كان لكل قبيلة حاكم يحكم بين من تنازع من أفرادها بحسب تقاليدهم وتجاربهم وكانت بعض القبائل تحتكم إلى شيخها او كانوا يحتكمون احياناً الى الكهان والعرافين ، فكانوا كلما عرفوا رجلا بسداد الرأي وصحة الحكم ووفرة العلم احتكموا له ،وكان المتخاصمون غير ملتزمين بتنفيذ احكامهم . (٢)

القضاء في العصر الجاهلي :

كانت حكومة قريش تقوم بشبه مايقوم به القضاء فقد كان يحتكم اليها القريشيون وغيرهم من قبائل العرب فيما كان يقع بينهم من الخصومات ، وممن تولى القضاء فيها في الجاهلية هاشم بن عبد مناف ، وابو لهب ،وقس بن ساعدة الايادي وامية بن ابي الصلت ، وزهير بن ابي سلمى .

(١) انظر خيرالله طلفاح : القضاء عند العرب ص ٩

(٢) احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٧٧

القضاء في عصر الرسول :

فلما جاء الاسلام تولى الرسول ﷺ في المدينة الفصل في الخصومات بدليل قوله تعالى (فاحكم بينهم بما أنزل الله) وفرض نفسه حاكماً أعلى وقاضياً بموجب ماجاء في احدى بنود الصحيفة الذي عقده الرسول بين المسلمين وبين أهل المدينة من اليهود والمشركين جاء فيه (وانه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله) (١)

وكان النبي ينيب عنه أحياناً أحد أصحابه للنظر في الخصومات ، كما كان يرسل بعضهم لحسم الخصومات ، فلما قلد عليا على قضاء اليمن قال له (إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الاخر كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى ان يتبين لك القضاء) (٢) كما علم اصحابه اساليب التظلم والشكوى بقوله : (البينة على من ادعى واليمين على من انكر) (٣) .

وكان حكم الرسول مقترناً بالتنفيذ الذي لاحاجة معه إلى استئناف كما جاء في قوله تعالى :

(فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً) (٤) .

وقد نبغ في عصر الرسول ستة قضاة من كبار الصحابة هم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر.

القضاء في عصر الراشدين :

وفي خلافة أبي بكر اسند امور القضاء إلى عمر بن الخطاب ولكنه لم يلقبه بـ (القاضي) .

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ١ ص ٣٤١
(٢) صبحي الصالح : النظم ص ٣١٩
(٣) المصدر السابق ص ٣٢٠
(٤) سورة النساء اية ٧٥

ولما تولى عمر الخلافة وتوسعت الدولة الاسلامية في عهده ، واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة ازدادت القضايا في هذه الامصار وتعذر على الخليفة النظر فيها ، وكذلك الولاة ففصل عمر بين القضاء والولاية وشرع في تعيين القضاة في البلاد المفتوحة ، فولى أبا الدرداء قضاء المدينة وشريحاً الكندي قضاء الكوفة وعثمان بن أبي العاص قضاء مصر ، وابا موسى الأشعرى قضاء البصرة (١).

ويعتبر الكتاب الذي بعثه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري مصدراً من مصادر الأحكام يرجع اليه القضاة ، ويستقي منه الفقهاء أحكامهم ، ويعد دستوراً في سياسة القضاء هذا نصه : (بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا ادلي اليك فإنه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لايطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت فيه اليوم عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم أعرف الأمثال والاشباه وقس الامور بنظائرها ، واجعل لمن ادعى حقاً أو بينة أمراً ينتهي اليه ، فإن أحضر ببينة أخذت له بحقه والا استحالت القضية عليه فإن ذلك أنفى للشك واجلى للعماء .. واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فإن استقرار الحق في مواطن الحكم يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر) (٢) .

ويتبين مبلغ اهتمام الخلفاء الراشدين بالقضاة مما جاء في كتاب علي بن أبي طالب الى مالك الاشتر عندما ولاه مصر وجاء فيه (واختر بين افضل

---

(١) الطبري : تاريخ جـ٤ ص ٢٦٣

(٢) الماوردي : الاحكام ص ٧١ ، ابن القيم : اعلام الموقعين ، ابن خلدون : المقدمة

رعيتك في نفسك ممن لاتضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ، ولايتمادى في الزلة ... واصرمهم عند اتضاح الحكم .. ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح له من البذل مايزيل علته (١) . .

القضاء في العصر الاموي والعباسي :

وفي العصر الأموي لم يتدخل خلفاء بني أمية في أحكامه كما لم يتأثر القضاة بالسياسة ، فكان القاضي يحكم بما يملي عليه علمه بكتاب الله وسنة رسوله وأحكام الخلفاء الراشدين وما يوحيه اليه اجتهاده .

وفي العصر العباسي المتأخر حدث تطور في نظام القضاء بظهور المذاهب الاسلامية فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب فكان القضاة في العراق يحكمون وفق مذهب أبي حنيفة، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفي مصر وفق مذهب الشافعي . وهناك مذاهب أُخرى كمذهب الزيدية في اليمن ومذهب الامامية في العراق وفارس ، وهم يقولون: بضرورة توافر الاجتهاد في الأئمة .

وقد ظلت مذاهب السنة الأربعة مصدر التشريع ، ولم يتقلد القضاء إلا السنيون فكان إذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلدان أناب عنه قاضياً يحكم بمذهب المتخاصمين (٢) .

لقد تطرق الفساد الى القضاء لتأثره بالسياسة ، واصبح الخلفاء العباسيون يتدخلون في حمل القضاة في كثير من الاحيان على السير وفق رغباتهم لذلك كثيراً مااعتذر المرشحون لمنصب القضاء عن قبوله خشية تدخل الخلفاء في احكامهم القضائية فذكر السيوطي : ان الخليفة المطيع قلد القضاء لابي الحسن محمد بن الحسن الشيباني الهاشمي بعد تمنع شديد وشرط لنفسه شروطاً منها: الا يرتزق على القضاء ولا يخلع عليه،ولا يشفع اليهفيما يخالف الشرع.

(١) ابن ابي الحديد : نهج البلاغة

(٢) اسماعيل فرج : القضاء الاسلامي ص ٢٦

ومما زاد في فساد القضاء ان دخل في الالتزام فصار القضاة يضمنون دخل القضاء بما يؤدونه الى الخليفة او السلطان ، واول من ضمن القضاء عبدالله بن الحسن بن ابي الشوارب سنة ٣٥٠ هـ في ايام معز الدولة البويهي فقد سمي قاضي قضاة بغداد والتزم القضاء على ان يؤدي ٢٠٠ الف درهم كل سنة (١) .

قاضي اهل الذمة : — لقد شهدت العصور الاسلامية التسامح والامن والرخاء الذي نعم به اهل الذمة وذلك بما وضع الاسلام من قواعد وتشريعات لتنظيم العلاقة بينهم وبين المسلمين وما وضع الرسول من السنن التي اعتبرت اسسا سار عليها ممن جاء بعده من الخلفاء كما وضع القرآن نظاما لتحديد العلاقة بينهم وبين المسلمين لكي لاتحدث الفرقة والنزاع (٢) فقال تعالى (ولاتجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) (٣) .

فقد سمح الخلفاء لاهل الذمة باختيار رؤسائهم الروحانيين والاحتكام اليهم في امورهم الدينية والدنيوية هذه السياسة حملت الكثير من اهل الذمة إلى الاحتكام إلى القضاة المسلمين ، وقد اجاز الفقهاء تقليد الذمي القضاء لاهل ملته . ولدينا تقاليد لقضاة اهل الذمة اوردها القلقشندي : مما يدل على ان سلطتهم كانت باذن من الخليفة (٤) وفي الاندلس — لكثرة مافيها من اهل الذمة — فقد خصص المسلمون لهم قاضيا منهم يعرف باسم قاضي النصارى او قاضي العجم (٥) واذا حدث نزاع بين مسلم وذمي فان قضاة

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٣٥٢
(٢) انظر اليوزبكي : تاريخ اهل الذمة في العراق ص ٩٤ رسالة دكتوراه غير منشورة .
(٣) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج١١ ص ٤٠٢ وما بعده ج ١٢ ص ٢٢٤ وما بعدها .
(٥) حسين مونس : فجر الاندلس ص ٤٤٩ ، ص ٤٦٢ القاهرة ١٩٥٩ .

المسلمين هم الذين يحكمون بينهم (١) وكان القضاة يقبلون شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود (٢) وقبول شهادة الذمي على المسلم بعد استحلافه في محل عبادته وبيته وكتابه المقدس (٣) .

صفات القاضي :

يراد في اختيار القاضي غزارة العلم والتقوى والورع والعدل فقد اشار الماوردي(٤) : الى الصفات الواجب توفرها في القاضي بقوله : ان يكون رجلا حراً بالغاً ، صحيح التمييز ، جيد الفطنة ، بعيداً عن السهو والغفلة ، ويشترط فيه الاسلام لقوله تعالى (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) بل يجوز ، تقليده القضاء بين اهل دينه كما يشترط فيه العدالة ، وان يكون صادق اللهجة ظاهر الامانة ، عفيفاً عن المحارم ، بعيداً عن الريب ، مأموناً في الرضا والغضب .

ومن الشروط المعتبرة فيه سلامة السمع والبصر ليصح بهما اثبات الحقوق وليفرق بين الطالب والمطلوب ، ويميز الحق من المنكر ، ومن الشروط الاخرى المعتبرة في القاضي ان يكون عالماً بالاحكام الشرعية اصولها وفروعها ، بكتاب الله ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، وعموماً وخصوصاً ، ومجملا ومفسراً ، وكذلك العلم بسنة رسول الله من اقواله وافعاله ، علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه ، واختلفوا فيه يتبع الاجماع ويجتهد برأيه في الاختلاف ، ثم العلم بالقياس الموجب لرد الفروع الى الاصول المتطرف بها والمجتمع عليها حتى يجد طريقاً الى العلم باحكام النوازل وتمييز الحق

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة في مصر ص ٣٥١ .
(٢) ترتون : اهل الذمة في الاسلام ص ٢٠٨ ترجمة حسن حبش القاهرة ١٩٥٩ .
(٣) سحنون : المدونه جـ٤ ص ١٠٤ ، ابن أبي اصيبعة عيون الانباء جـ٢ ص ٢١٨ .
(٤) الماوردي : الاحكام ص ٦٥–٦٦

من الباطل، فاذا احاط علمه بهذه الاصول صار من اهل الاجتهاد في الدين وجاز له ان يفتي ويقضي.

فمن هنا يتبين لنا ان مصادر التشريع الاسلامي لدى القضاة تستند على:

١.القرآن

٢.السنة النبوية.

٣.الاجماع

٤.القياس (عند اهل السنة) او الاجتهاد (عند الامامية).

فالقرآن هو المصدر الاول للشريعة الاسلامية ، وان قسماً كبيراً من آياته تتعلق بالاحكام، اما السنة: فيقصد بها كل ماجاء منقولا عن النبي وما اتبعه صحابة الرسول لكونهم اتباعاً لسنة ثبتت عندهم، وعلى هذا تشمل السنة اربعة اوجه (قول الرسول وفعله واقراره وما جاء عن الصحابة) (١)

اما الاجماع: فمعناه الاتفاق وهو اصل من اصول التشريع عند المسلمين وهو ماالتفق عليه جمهور الصحابة والفقهاء.

واما القياس: فهو أحد مصادر التشريع ايضاً يرجع اليه المجتهدون عندما يلتمسون نصاً لحل حادثة فلا يجدونه في الكتاب او السنة او الاجماع (٢).

سلطة القاضي

كان الخليفة في عصر الراشدين وبني امية هو الذي يعين القاضي او يفوض امر تعيينه إلى أحد الولاة إلى زمن الرشيد فعين قاضي القضاة، وصار يعين القضاة، كما أطلق الخلفاء لولاتهم امر اختيارهم وتعيينهم (٣). وكانت صلاحيات القاضي لاتقتصر على النظر في الامور الدينية والخصومات التي لها علاقة بالقضاء، وانما تعداه إلى الامور العامة كأقامة الصلاة والخطبة،

---

(١) عبدالحميد كبة : التنظيمات القضائية والحركة التشريعية في العراق ص ٩

(٢) المصدر السابق والصحيفة .

(٣) اسماعيل مرج : القضاء الاسلامي ص ٢٧

والاشراف على الاماكن الدينية، وعلى اموال الغائبين والمفقودين، والقيام في الذهب والفضة والمكاييل، وولاية الحج واخذ البيعة للخليفة ومصاحبة الجيش في الحروب (١). وينظر القاضي في الامور الجنائية والسرقة وشاربي الخمر ، وفي قضايا الاحوال الشخصية من زنا ومواريث ، ومداينات ، ووصايا، ومناكحات وطلاق وغيرها. كما فوضت إلى القضاة احياناً الشرطة علاوة على توليهم امر القضاء، وكذلك الحسبة فذكر الماوردي أن الحسبة كانت أحياناً تضاف إلى القاضي مع مابين القضاء والحسبة من التباين لأن عمل القاضي مبني على التحقيق والاناة في الحكم، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل.

القضاء

ويفرق الماوردي بين نوعين من القضاء احدهما ذو سلطات عامة ومطلقة والاخر ذو سلطات خاصة ومحدودة فالاول : هو الفصل في المنازعات وقطع التشاجر والخصومات واستيفاء الحقوق ممن مطل بها وايصالها الى مستحقيها ، والحجر على من يرى الحجر عليه ، وتنفيذ الوصاية على الوصي فيما اباحه الشرع ، وتزويج الايامي ، واقامة الحدود على مستحقيها والنظر في مصالح الناس بالكف عن التعدى في الطرقات والتسوية بالحكم بين القوي والضعيف ، والعدل في القضاء بين الشروق والشريف ولا يتبع هواه في تقصير الحق او ممايلة مبطل (٢) واما الثاني : ان يكون القاضي عام النظر خاص العمل فيقلد النظر في جميع الاحكام

---

(١) عبدالمنعم ماجد : الحضارة الاسلامية ص ٤٦ — ٤٧

(٢) انظر : الاحكام السلطانية ص ٧٠ — ٧١ .

في احد جانبي البلد او في محله منه فينفذ جميع احكامه في الجانب الذي قلده والمحلة التي عينت له وينظر فيه بين ساكنيه (١) .

وذكر الماوردي انه كانت وظيفة (قاضي الثغر) كما ورد ذكر قاضي العسكر لاول مرة في خلافة عمر بن الخطاب ، ولم يكن يقتصر عمل(قاضي العسكر) على الفصل في قضايا الجند بل كان يفصل ايضاً في قسمه غنائم البحر والبحر.

دار القضاء:

كان القضاة منذ أيام الراشدين أشبه بالمُستَفتين فإذا حكم القاضي بشيء بين المتخاصمين اقتنعوا به غالباً ولم يزل القضاة كذلك في الدولة الأموية حتى حدث ما دعا القاضي ايام معاوية إلى تسجيل أحكام القضاة بسجل خاص فذكر الكندي في تاريخ قضاة مصر: أن جماعة اختصموا إلى قاضي مصر في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند فكان أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه (٢)

وكان القضاة منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين يجلسون في المسجد لقضاء الخصومات بين الناس، ولما استحدث منصب القضاء أخذ القاضي يزاول النظر في خصومات الناس في المسجد، ثم وجدوا أن هذا لايتفق وحرمة بيوت الله لئلا ترتفع الاصوات ،وتحدث الخصومة في المسجد ولابأس من أن يجلس القاضي في بيته ويأذن للناس، ولايمنع أحداً من الدخول عليه (٣) وكان صاحب الشرطة يتولى تنفيذ أحكام القضاة عند الضرورة (٤).

---

(١) الماوردي : الاحكام ص ٧٢

(٢) الماوردي: الاحكام ص٧٣.

(٣) اسماعيل فرج : القضاء الاسلامي ص ١٥

(٤) المصدر السابق ص ٣٧

وقد أشار الفقهاء إلى الأحوال التي لايقضي فيها القاضي إذا كان عطشاناً أو جائعاً أو خائفاً أو مريضاً، ولا في حر أو برد أو غير ذلك من العوائق التي تعوقه عن الفهم (١).

امتيازات القضاة:

من الامور التي كان يمتاز بها القاضي اللباس فقد كانت البسة القضاة مثل سائر الناس واول من غير لباس القضاة والعلماء أبو يوسف القاضي في عصر الرشيد وجعله بهيئة خاصة (٢) ويؤيد ذلك ماذكره الكندي (٣): أن القاضي كان يرتدي السواد (شعار العباسيين) ويعمم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة وكانت القلنسوة السوداء في القرن الثاني الهجرى خاصة هي التي تميز القضاة وتلبس مع الطيلسان (٤) ومن الامتيازات الاخرى الرواتب فقد فرض عمر بن الخطاب للقضاة مرتبات فجعل للقاضي سليمان بن ربيعة خمسمائة درهم في كل شهر وجعل لشريح مائة درهم ومؤونته من الحنطة وارتفعت رواتب القضاة في العصر الاموي ، فقد كان قاضي مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان يتقاضى مائتي دينار في الشهر (٥). وازدادت هذه المرتبات في العصر العباسي وذلك لمنع اخذ الهدايا لضمان سير العدالة ..

١ ـ الحسبة :ـ

لقد جاءت لفظة الحسبة من تحسب الاخبار اي تجسسها او تحسسها وبطلبها تحسباً (٦). وهي من الناحية الفقهية الامر بالمعروف اذا اظهر تركة

(١) عبدالمنعم ماجد : الحضارة الاسلامية ص ٤٨.
(٢) اسماعيل فرج : القضاء الاسلامي ص ٩٧.
(٣) الكندي : الولاة والقضاة في مصر ص ٣٧٨.
(٤) ادم متز : الحضارة الاسلامية ج١ ص ٣٧٣.
(٥) علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٥٢٥.
(٦) ابن منظور : لسان العرب ج١ ص ٣١٦.
Encyclopaedia of Islam (Art Aisba) T. 2 P. 337

ونهي عن المنكر اذا اظهر فعله (١). لقوله تعالى (ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٢) .

والمشرف عليها يسمى (المحتسب) (٣) ويجب ان يكون رجلا عفيفاً خيراً ورعاً عالماً غنياً عارفاً بالامور محنكاً فطنا لايميل ولايرتشي فتسقط هيبته، ويستخف به ولا يعبأ به (٤). ويضيف الماوردى (٥): إلى صفاته ان يكون حرا عدلا ذا رأي وصراحة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة ؛

وقد اسند منصب القضاء والحسبة احياناً إلى رجل واحد مع مابين الوظفتين من الاختلاف فعمل القاضي مبني على التحقيق والاناة في الحكم اما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل (٦) :

والحسبة واسطة بين احكام القضاء واحكام المظالم لان النظر في المظالم موضوع لما عجز عنه القضاة والنظر في الحسبة موضوع لما رفه عنه القضاة (٧).

وكان المحتسب يستعين بالخبراء الذين يختارون من بين أرباب الصناعة والتجارة وهم الذين سموا بالعرفاء (٨) لمنع الغش في الصناعات والمعاملات والموازين والمكاييل (٩).

نشأة الحسبة : —

ترد بعض الاشارات التأريخية إلى أن الحسبة نشأت منذ عهد الرسول

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٤٠ ، ابن تيمية : الحسبة في الاسلام
(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤
(٣) The Ency of Islam (Art Muhtasib T3. P. 751)
(٤) عبدالرزاق الحصان : الحسبة ص ٣٠
(٥) الماوردي : الاحكام ص ٢٤١
(٦) المصدر السابق ص ٢٤٢
(٧) الماوردي الاحكام ص ٢٤١
(٨) المقريزي : اغاثة الامة في كشف الغمة ص ١٩ ط ٢
(٩) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق الباز القاهرة ص ١٩٤٦

فقد مارسها بنفسه ، وفوضها أحياناً لغيره وتبعه من بعده الخلفاء الراشدون، ثم صارت ولاية من الولايات الدينية .

ويرى بعض من المؤرخين (١) أنها نشأت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ووضع أسسها واختصاصاتها وكان يقوم بها بنفسه أول الأمر ، ثم أوكلها إلى رجل اطلق عليه (المحتسب) .

واجبات المحتسب واختصاصاته :

من الامور التي ينظر فيها المحتسب مراعاة أحكام الشرع ، واقامة الشعائر الدينية والمحافظة عليها ، والنظر في أرباب البهائم ومراقبة من يتصدى لتفسير القرآن ، والنظر في الآداب العامة ، وفي البيوع الفاسدة في السوق والموازين والمكاييل ، ومراقبة النقود التي يتعامل بها الناس (٢). وقد أضاف ابن خلدون إلى ماذكر من واجبات المحتسب : أنه يحول دون مضايقة الناس في الطرقات ويمنع الحمالين واهل السفن من المبالغة في الحمل أو شحن السفن، ويحكم بهدم المباني المتداعية للسقوط حتى لايقع على المارة ، ويمنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصبيان ، ويحكم في الدعاوى المتعلقة بالغش والتدليس ويحمل على المماطلين على أداء ماعليهم من الديون (٣).

وقد ظهرت صلاحيات جديدة خلال العصر العباسي . فأصبح ينظر بالاضافة . إلى ما ذكرنا في حقوق الاماء وفي منع اخصاء العبيد ، وفي مراقبة القضاة والوعاظ وائمة المساجد والاطباء ، والمعلمين ، والصناع ، كما ينظر في امور الزنا والغش ، وفي محاسبة أصحاب السحر والشعوذة (٤) . وينظر أيضاً في مساعدة الفقراء ، وانشاء الملاجىء للضعفاء

(١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٩٨

(٢) عبدالرزاق الحصان : الحسبة ص ٢٦ – ٢٧ ، ص ١١٦

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ١٩٦

(٤) عبدالرزاق الحصان : الحسبة ص ٢٧ – ٢٨

والمحتاجين ومنع المنكر كتعاطي المسكرات والتجسس ، والغيبة ، والنميمة ، والكذب ، وترك الصلاة ، والفطر في شهر رمضان) (١) .

وقد حدد الفقهاء أعمال المحتسب بأمرين : أحدهما : أمر بالمعروف ، والثاني : نهي عن المنكر ، فالأمر بالمعروف يشمل ما يتعلق بحقوق الله وحقوق الادميين ، وما يكون مشتركاً بينهما كأخذ الأولياء بنكاح الايامى والزام النساء أحكام العدد إذا فورقن ، ويأخذ السادة بحقوق العبيد والاماء ، وان لايكلفونهم من الأعمال مالا يطيقون ، وكذلك أرباب البهائم يأخذونهم إذا قصروا في علوفتها وان لايستعملوها فيما لاتطيق ، ويأخذ بمن قصر كفالة اللقيط (٢)

واما النهي عن المنكر فمنها ما يتعلق بحقوق الله ، وحقوق الادميين وما يكون مشتركاً بينهما .

فاما النهي عنها في حقوق الله ما يتعلق بالعبادات والمحظورات والمعاملات ففيما يتعلق بالعبادات كالمخالف للمشروع والمسنون من التعاليم الاسلامية وما يتعلق بالمخطورات : هو أن يمنع الناس من مواقف الريب ومظان التهمة قال النبي (دع مايريبك إلى مالا يريبك) (٣) ويمنع مامنعه الشرع من الامور المنكرة كالزنا والبيوع الفاسدة والغش والتطفيف والبخس في المكاييل والموازين (٤)

واما ما ينكر من حقوق الادميين كالاعتداء على الجار ، وللمحتسب الاشراف على اهل الصنائع في الاسواق ليراقب التقصير في الصناعة من حيث الامانة أو الخيانة أو الجودة والرداءة ، وكذلك أصحاب الحرف والمهن كالأطباء والمعلمين (٥)

واما ما ينكره المحتسب من الحقوق المشتركة كمنع الاشراف على منازل الناس ، ومنع أئمة المساجد والجوامع من اطالة الصلاة حتى يعجز عنها الضعفاء (٦)

(١) ابراهيم دسوقي : الحسبة في الاسلام ص ٩
(٢) الماوردي : الاحكام (٩) ٢٤٧
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٩
(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٣
(٥) المصدر نفسه ٢٥٢
(٦) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٥٦

ويمنع القضاة من حجب الخصوم إذا قصدوه ،ويمتنع من النظر بينهم إذاتحاكموا، ويمنع أرباب المواشي من يستعملها فيما لاتطيق،ويلزم السادةفي الانفاق على عبيدهم في حالة امتناعهم ، وله أن يمنع أرباب السفن من حمل سفنهم مالا تسعه ويخاف من غرقها (١) . وينظر والي الحسبة في مقاعد الاسواق ويمنع ما استضر به المارة ويمنع من خصاء العبيد والبهائم ... كما يمنع من التكسب بالكهانة (٢) .

ومن عمل المحتسب إذا كان في القضاة من يحتجب عن الخصوم إذا قصدوه ويمنع النظر بينهم إذا تحاكموا اليه حتى تقف الاحكام وتتصرخ الخصوم أن ينكر عليه مع ارتفاع الأعذار ولا يمنعه علو مرتبته من أن ينكر عليه فعله (٣) .

وينبغي على المحتسب أن يقصد مجالس الامراء والولاة ويأمرهم بالشفقة على الرعية والاحسان اليهم ويذكر لهم ما ورد في (٤) ذلك من الأحاديث ، وليكن في وعظه وقوله في ردعهم عن الظلم .

علاقة الحسبة بالقضاء والمظالم .

الحسبة قاصرة عن أحكام القضاء في الدعاوي الخارجة عن ظواهر المنكرات، وتشبه الحسبة ولاية المظالم في استقرار موضوعهما على الرهبة والقوة والصراحة وفي تطلع كل منهما الى انكار البغي والعدوان (٥).

وأذاجاز لوالي المظالم أن يحكم فأن والي الحسبة يأمر وينهي من غيرأن يحكم وانما الحسبة على هذا كله أمر بالمعروف ونهي عن المنكر (٦) .

ديوان النظر في المظالم : —

كان منصب المظالم من المناصب القضائية الهامة في الدولة الاسلامية ويتولى صاحبها النظر في قضايا الظلم والتعدي والفساد التي يرتكبها كبار رجال الدولة وفي احكام القضاء التي لايتفق فيها المتخاصمان وعرفها ابن خلدون بأنها : (وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبه

---

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٥٧

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٥٨

(٣) الحصان : الحسبة ص ١٧٣

(٤) المصدر السابق ص ١٨٣

(٥) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٢٩

(٦) ابو يعلى : الاحكام السلطانية ص ٢٦٨ — ٢٧١

تقمع المظالم من الخصمين وتزجر المعتدي... وكان الخلفاء الاولون يباشرونها بأنفسهم إلى المهتدي من بني العباس) (١).

فكان الغرض الاساس من انشاء ديوان المظالم هو التصدي لتعدى اصحاب النفوذ والجاه ولهذا كان يتولى رئاسة هذا الديوان الخليفة او الوزير او الوالي وقد تطورت وتوسعت اعمال هذا الديوان مع توسع الدولة العربية وتطور حياتها الاقتصادية والاجتماعية فأصبح يعرف بـ (ديوان المظالم) ويسمى رئيسه (صاحب المظالم) (٢).

وترد الاشارة إلى وجود هذا النظام (المظالم) في عصر ماقبل الاسلام فقد اجتمعت بطون قريش فتحالفوا على رد المظالم بمكة وان لايظلم احد الا منعوه واخذوا للمظلوم حقه وكان الرسول يومئذ معهم قبل النبوة وهو ابن خمس وعشرين سنة فعقدوا حلف الفضول (٣). لانصاف المظلوم من الظالم والحكم بين المتخاصمين.

ففي عصر صدر الاسلام كان النبي يسمع شكاوى الرعية ويحكم بينهم، وتولى علي بن ابي طالب النظر في المظالم في عصر الراشدين، ولم يفرد لسماع الظلامات يوماً معيناً بل كان ينظر في شكاوي من يأتيه من المتظلمين (٤) ولم يظهر نظام المظالم كمؤسسة رسمية في الخلافة الاسلامية الا في عهد الامويين فكان عبد الملك بن مروان اول من افرد له يوماً واستمر الخلفاء الامويون ينظرون بأنفسهم إلى مظالم الناس حتى العصر العباسي حيث مارسه الخلفاء وانتدبوا تارة ممن ينوب عنهم من الوزراء كما فعل الرشيد عندما اوكل لوزيره يحيى البرمكي النظر في المظالم (٥).

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٦ القاهرة ١٣٢٢ هـ .

(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٣١١ .

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٧٩ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٣١١ .

(٥) انظر اليوزبكي : الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص ٦٥ وما بعدها ط٢ مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٦ .

واشترط الفقهاء في الناظر في المظالم ، ان يكون جليل القدر ، نافذ الامر عظيم الهيبة ظاهر العفة قليل الطمع ، كثير الورع لانه يحتاج في نظره الى سطوة الحماة وثبت القضاة (١) في كف الخصوم عن التجاهد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب (٢) كالخلفاء وولاة العهود وامراء الاقاليم والوزراء .

ويتكون مجلس المظالم : من خمسة اصناف لايستغنى عنهم ولا ينتظم نظره الا بهم : احدهم الحماة والاعوان لجذب القوى وتقديم المجرى والثاني ، القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ومعرفة ما يجرى في مجالسهم بين الخصوم ، والثالث الفقهاء : ليرجع اليهم فيما اشكل ويسألهم عما اشتبه . والرابع : الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما توجه لهم او عليهم من الحقوق .

والخامس : الشهود ليشهدهم على ما اوجبه من حق وامضاه من حكم (٣).

اختصاصات ديوان المظالم :ـ

يختص ديوان المظالم بالنظر في تعدي الولاة على الرعية واخذهم بالعسف وفي جور العمال فيما يجبونه من الاموال ، ويأخذ العمال بها وينظر فيما استزاده فان رفعوه الى بيت المال امر برده ، وان أخذوه لانفسهم استرجعه لاربابه ، وينظر في اعمال كتاب الدواوين والتثبيت فيما يستوفونه من الاموال ، وفي تظلم المرتزقة من نقص ارزاقهم او تأخرها عنهم . والنظر ايضاً في اغتصاب الاموال السلطانية من الولاة كالاملاك او تغلب الاقوياء وتصرفهم باملاك الرعية بالقهر والغلبة وفي اموال الوقوف الخاصة والعامة ، وفي تنفيذ ما وقف القضاة من احكامها لضعفهم عن انقاذها وعجزهم عن المحكوم عليه لعلو قدره

---

(١) الماوردي : الاحكام ص ٧٧ .

(٢) ابو يعلى : الاحكام ص ٦٣ .

(٣) الماوردي : الاحكام ص ٨٠ ابو يعلى : الاحكام ص ٦٠ .

وعظم خطره وقوته فيكون ناظر المظالم اقوى يدا وانفذ امراً كما ينظر فيما عجز عنه المناظرون من الحسبة في المصالح العامة كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه . والتعدي في امر عجز عن منعه ، وفي مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والاعياد والحج والجهاد من تقصير فيها واخلال بشروطها ، واخيرا النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين (١) من كبار رجال الدولة .

وقد بين الماوردي الفروق بين صلاحيات صاحب المظالم وبين صلاحيات القاضي ومن اهم هذه الفروق (ان لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة في كف الخصوم ومنع الظلمة من التقالب والتجاذب وانه يستعمل من الارهاب ومعرفة الامارات والشواهد ما يصل به الى معرفة المحق من المبطل وانه يستطيع من تأديب الظالم ويأخذ من عدوانه بالتقويم والتهذيب ، وان له رد الخصوم أذا عضلوا (أذا اشتعصى التوفيق بينهم)وساطه الامناء ليفصلوا التنازع بينهسم صلحاً عن تراضي ، وانه يجوز له احلاف الشهود عند ارتيابه فيهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك (٢) .

وهكذا كان ديوان النظر في المظالم بمثابة المحكمة العليا او محكمة الاستئناف في عصرنا الحاضر لمحاكمة كبار رجال الدولة في القضايا التي ترفعها الدولة عليهم او التي يرفعها الرعية لاعادة الحقوق الى اصحابها .

---

(١) الماوردي : الاحكام ص ٨٠ – ٨١ ، ابو يعلى : الاحكام ص ٦١ – ٦٤ .

(٢) الماوردي : الاحكام ص ٨٣–٨٤

الفصل التاسع

النظم الاجتماعية

المجتمع الاسلامي

١ ــ العرب . المرأة العربية

٢ ــ الموالي

٣ ــ أهل الذمة

٤ ــ الرقيق (العبيد)

النظم الاجتماعية

المجتمع الاسلامي :

ويتكون من

١ ـ العرب : ـ يتألف العرب في الجزيرة العربية من مجموعتين : البدو أوالرعاة . وأهل المدن أو الحضر . وهم جميعاً يتكونون من قبائل متعددة يختلف حجمها بعدد أبنائها ، وتربط بين أفرادها صلة الدم والنسب ، وهي اهم الروابط الاجتماعية والسياسية فيما بينهم ، هذه الصلة أدت إلى تماسك أفراد القبيلة وبالتالي إلى الدفاع عنها ضد الاخطار الخارجية ، ونتج عن ذلك ظهور العصبية القبلية : وهي اعتزاز العربي بقبيلته والفخر بانتسابه اليها ، وقد أشار إلى ذلك المستشرق بروكلمان بقوله (البدوي كائن فردي النزعة ، ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن اطار القبيلة في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية القبلية (١) .

كان تنظيم القبيلة السياسي فطرياً فكان رئيسها المنتخب او شيخها ليس بمقدوره ان يفرض واجباً او ينزل عقوبة بل كان عمل الشيخ التحكيم لا الامر فلم يكن في يده سلطات اجبارية ، وكان يسدى للشيخ المشورة نخبة من الشيوخ تعرف بالمجلس ويتكون من رؤوس الاسر وممثلي بطون القبيلة (٢) ولم يكن لشيخ القبيلة قوانين يسير عليها كما لم يكن في القبيلة سلطة تشريعية وانما كان رئيس القبيلة يفصل في المسائل التي تعرض عليه، مستندا بذلك إلى عرف القبيلة، ومع هذا لم تكن احكامه تنفذ بصورة قسرية وانما بصورة ادبية .

لقد كانت القبائل البدوية كثيرة ومنتشرة في اطراف الجزيرة العربية الخصبة . وتقيم بمضارب وخيام ، وتنتقل من مكان إلى آخر عند الضرورة تبعاً لتوفر العشب والمياه .

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤ (الطبعة الانكليزية)

(٢) برنارد لويس : العرب في التاريخ ص ٣٦

والبدو او (الاعراب) كما يقول عنهم هيردر : (ذوو فتوة خالدة يقدرون بها على القيام بجليل الاعمال عندما يؤمنون بمبدأ جديد ، وهم أحرار كرام شم الانوف غضاب مقاديم ، وهم متماثلون في أمور العز والشرف لتماثل أحوالهم ومشاعرهم ، ويقوم فخرهم على السيف والقرى ، والبلاغة ، فبحد السيف يصونون حقوقهم ، وبالقرى يتجلى كرم أخلاقهم ، وبالبلاغة يحسمون مالا يقدر عليه السلاح من الخصام (١) . والكرم افضل فضائل العرب ، ونضيف إلى ماتقدم أن البدو (الاعراب) يحبون الحرية وهي أغلى شيء عندهم ، وقد حافظوا عليها بتوالي الأجيال ، ولم يقدر جميع الفاتحين أن يستعبدوهم (٢). كما لم يقدر أي زعيم أن يستبد بهم .

وقد عبر العديد من الشعراء عن أنفتهم واعتزازهم بحريتهم وشخصيتهم فقال أحد الشعراء :

إذا الملك الجبار صعر خده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

وقال آخر :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً   أبينا أن نقر الذل فينا

والبدوي عصبي المزاج ، مرهف الحس ، سريع التهيج ، يتميز بالنظرة الواقعية ودقة النظر وقوة الذاكرة . وماالبراعة التي اشتهر بها البدوي في القيافة إلا مظهر من مظاهر دقة الملاحظة (٣) .

أما أهل الحضر (المدن) من عرب الجزيرة فيختلفون عن الاعراب (البدو) في البادية ويقول عنهم بلفرين : إن أهل الحضر من العرب من أنبل شعوب الارض وأكرمهم ، وهم جديرون بهذا المديح ، إذ كانت لهم آداب ناضجة ولغة راقية ، كانوا ذوى صلات تجارية بأرقى أمم العالم القديم فاستطاعوا في أقل من مائة سنة ، أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ ، والتي لاتتم إلا بتوالي الوراثة وبثقافة سابقة مستمرة وبالعرب لابغيرهم (٤).

---

(١) غوستان وبون : حضارة العرب ص ٧٣
(٢) المصدر السابق ص ٧٧
(٣) صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص ١١٥ ط٢
(٤) لوبون : حضارة العرب ص ٨٨

ولم يكن العرب في جزيرتهم معزولين عن العالم المتحضر ، فقد كانت تقع على أطرافها الثقافة الفارسية والبيزنطية، وكانت التجارة واسطة لالتقاء هذه الثقافات (١) وكانت اليهودية والنصرانية منتشرة في أجزاء الجزيرة العربية ، وكان لها شأن في الفكر الديني عند أهل الحضر .

كما ازدهرت الثقافة العربية في اليمن لصلاتها التجارية بالبلاد الأخرى ويرى لوبون (٢) أنه من الصعب أن نعثر في التاريخ على أمة ذات شأن كبير في التجارة من غير ان تكون متمدنة ، وبما أن علاقات العرب التجارية العالمية استمرت ألفي سنة ، وقد ورد ذكرها في التوراة فاننا نقول : ان العرب ضربوا بسهم وافر في ميدان الحضارة وان ماروله هيرودتس واسترابون عن حضارة العرب قبل الاسلام في مدنهم العظيمة وقصورهم ذات السقوف المزخرفة بالذهب والعاج والحجارة الثمينة، وذات الأثاث الفاخرة والآنية المنقوشة ، وما تركوه في اليمن من العمران والسدود لدليل على عظم ومكانة الحضارة العربية ، ولم يسطع نجم حضارة العرب قبل الاسلام في اليمن وحدها وانما في الحيرة والغساسنة، وقد كان عرب الحيرة وغسان متصلين بالفرس وبالرومان، وكان تأثير هؤلاء في حضارة اولئك كبيراً تشهد آثارهما المكتشفة وبقايا قنوات الغساسنة على ماكان عند سكانها من الاستعداد الكبير للقيام بالاعمام العظيمة (٣) . فلما جاء الاسلام صار العرب أمة واحدة لها خصائصها من لغة ودين وعادات وان أحد أسباب انتشار الاسلام وضوح مبادئه التي تؤكد على العدل والمساواة والاحسان و تهذيب النفوس والتسامح، وترأس هذه الامة حكومة اوبلجاركية تجمع بيدها السلطة السياسية والدينية ، ومع هذا لم تستطع السلطة الجديدة أن تمحو الروح القبلية فبقيت نزعة

(١) برنارد لويس : العرب في التاريخ ص ٣٩

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٩٥

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٩٤ ، ٩٦

العربي لقبيلته ونزعته للدم العربي ، وسارت النزعتان جنباً إلى جنب في صدر الاسلام (١) وبلغت قوة نشاطها في العصر الاموي .

واستطاع العرب خلال أقل من قرن أن يكونوا امبراطورية مترامية الاطراف ممتدة بين الهند والمحيط الاطلسي شرقاً وغرباً وبين القفقاس وشمال اسبانيا والخليج العربي شمالا وجنوباً . وقد احتوت هذه الامبراطورية شعوباً كثيرة وديانات متعددة انضوت تحت راية الاسلام وفق مبادىء الاسلام الانسانية (إنما المؤمنون اخوة) ولقول النبي (لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).

وأصبح النظام السياسي في صدر الاسلام ديمقراطياً ، يسوده مبدأ العدالة والمساواة التامة بين الشعوب وبين الافراد مهما كان مركزه ومكانته . فان ماشارت اليه كتب التاريخ حول حكم عمر بن الخطاب لاعرابي لطم من قبل ملك الغساسنة فأمر عمر بلطم العربي له وقال عمر لذلك الملك (ان الاسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة) (٢) .

وظهرت في أواخر عصر الخلفاء الراشدين تحولات في نظرة العرب إلى شعوب البلاد المفتوحة كنتيجة للانتصارات العظيمة التي احرزها العرب في الفتوحات في العراق وفارس والشام ومصر ، وتغيرت نظرة العرب إلى الموالي ولاسيما بعد مصرع الخليفة عمر بن الخطاب وتملكهم شعور السيادة فنظروا إلى هذه الامم نظرة السيد إلى المسود والتي اطلق عليها المؤرخون بالعصبية العربية وأدت بهم هذه النظرة إلى احتقار حتى المولدين فسموا ابن العربي من الامة بـ (الهجين) (٣) يقول ابن منظور في لسان العرب (الهجنة من الكلام مايعيبك والهجين العربي ابن الامة لانه معيب) .

وأنف العرب في العصر الاموي من امتهان الحرف والمهن والزراعة وإنما تركوها لغيرهم من أهل البلاد المفتوحة وانصرفوا إلى القيادة والامارة وامتلاك

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام جا ص ١٩
(٢) المصدر السابق جا ص ٢٠
(٣) انظر احمد امين : ضحى الاسلام جا ص ٢٢ ، ص ٢٥

الاراضي . لقد أدت بهم هذه النظرة والسياسة التي انتهجتها الخلافة الاموية بالاعتماد على العنصر العربي أن نقم الموالي وأخذوا يقاومون السياسة الاموية بمساندة كل حركة ثورية ترمي إلى القضاء على الخلافة الاموية ليصبحوا عمادها وأصحاب النفوذ الحقيقي فيها . فلما ظهرت الدعوة العباسية في خراسان التي كانت مركزاً للعناصر الفارسية المتطرفة في عدائها للعرب عامة ولبني أمية خاصة لانهم لم يساووهم بالعرب ، ولكونهم حرموهم من السيطرة على المناصب الخطيرة في الامبراطورية العربية الاموية (١) .

ولاريب أن مساهمة الفرس في الدعوة العباسية كان له الاثر الكبير في استخدامهم في مناصب الدولة الخطيرة ، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى زيادة نفوذهم في بلاط الخلافة العباسية ومحاولتهم اضعاف العرب تدريجياً وابعادهم عن المراكز السياسية والعسكرية والادارية البارزة وقد عبر الجاحظ عن ذلك بقوله : (إن دولة بني أمية عربية ودولة بني العباس أعجمية) (٢) .

واستمر مركز العرب في العصر العباسي بالتضعضع والضعف وانهار في خلافة المعتصم فاسقط العرب من الديوان ، وأحل محلهم الاتراك والديلم (٣) ومما زاد في اضعاف سلطان العرب وابعادهم عن مراكز الدولة المهمة تدخل النساء في سياسة الدولة إذ كانت أغلب أمهات الخلفاء العباسيين من أمهات الاولاد الفارسيات مما أدى إلى وصول الفرس إلى مراكز الادارة والقيادة والسياسة في الدولة (٤) .

---

(١) انظر اليوزبكي : الوزارة نشاتها وتطورها في الدولة العباسية ص ٢٧١ ، ٢٧٢

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٦٤

(٣) القرماني : اخبار الدول وآثار الاول ص ١٤٦

(٤) اليوزبكي : الوزارة ص ٣٢ ، ص ٣٣

المرأة العربية

كانت المرأة العربية في الجاهلية تتمتع بمركز مرموق في المجتمع العربي فكانت العرب يخاطبونها بربة البيت وينادونها بكنيتها ويعزون بنسبهم إلى أمهاتهم كما يعزون بنسبهم إلى آبائهم . وقد حصلت المرأة على هذا المركز من جراء الخدمات التي تقوم بها في البيت وفي المجتمع القبلي ، إذ كانت تقوم بادارة البيت وانجاب الاولاد الذين يزيدون من قوة القبيلة في السلم والحرب كما كان لها دور في الحروب من تضميد للجرحى وتزويد المقاتلين بالماء والزاد ، هذا الى أن المرأة قد تكون مصدر ربح لوليها الذي يأخذ عند زواجها صداقاً (١) وقد احتلت المرأة مكانة مهمة في التاريخ والشعر والقصص ، فكانت توحي للشعراء بالخيال ، وللرجال بالطموح وقد تدخل في البيت بهجة وحياة روحية جميلة (٢) كما ساهمت في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فظهرت منهن الكاهنات والعرافات والمتنبئات والشاعرات (٣) والملكات حتى أن بعض آلهة العرب كن اناثاً كاللات والعزى ومناة وأساف ونائلـــــة .

فكانت المرأة العربية تتمتع بقسط كبير من الحرية في اختيار أزواجهن فكن يخيرن في أمر زواجهن . كما كانت عادة تعدد الزوجات معروفة في المجتمع العربي وغرضها الاكثار من انجاب الاولاد لزيادة أفراد القبيلة وتقوية عصبيتها وقد عرف العرب في الجاهلية أنواعاً متعددة من الزواج فمنها زواج المبادلة ، ويحدث عادة بين الأقارب من نفس القبيلة أو بين الاباعد إذا تساوت الأسرتان في الحسب والنسب فيسقط المهر لان الرجل يزوج ابنته أو أخته لرجل آخر يتزوج هو أخته أو إبنته (٤) وهناك نوع آخر من الزواج

---

(١) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص ١٣٦

(٢) الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ١٥٧

(٣) ابن هشام : سيرة الرسول ص ١٣٢ — ص ٧٩٧

(٤) علي عبدالواحد : وافي الاسرة والمجتمع ص ٣٥

الشائع بين العرب هو زواج الاسر ، وتعتبر المرأة الاسيرة ملكاً لسيدها إن شاء تزوجها أو زوجها أو باعها بيع العبيد . أما الزواج الاكثر شيوعاً بين العرب هو زواج المهر فكانت المرأة تعطى لمن يدفع ثمناً عالياً وعرف هذا الزواج باسم (زواج الشراء) وظل هذا النوع من الزواج عند عرب الجاهلية حتى ظهور الاسلام فسمي بالصداق وهو الهبة التي تعطى للمرأة نفسها بخلاف المهر فكان يعطى لوالد المرأة وأهلها لقاء زواجها (١) . أما النوع الآخر من الزواج ويعرف ب(زواج الميراث) فكان يحدث أن الرجل يرث أرملة أخيه بعد موته أو يرثها أقرب الرجال إلى زوجها المتوفي (٢) وكان العامل في ذلك هو الاحتفاظ بالثروة داخل الاسرة تخلصاً من دفع المهر (٣) وشاع بين العرب أيضاً (زواج المتعة) وهو أن يتزوج الرجل المرأة إلى أجل مسمى ، لاترثه ويرثهامقابل مبلغ من المال تتفق عليه فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل وقد ألغى الاسلام هذا النوع من الزواج (٤) .

ومن العادات السيئة التي انتشرت بين بعض قبائل عرب الجاهلية عادة وأد البنات حيث عرف في قبائل ربيعة وكندة وبطون واطئة من تميم وأسد (٥) ويبدو أن أسبابها الاعباء الثقيلة التي يحملها الرجل في سبيل المحافظة على شرفها من اعتداء الآخرين أو من العار الذي يلحق بأهلها في حالة أسرها أو من الفقر وقد أوضح القرآن جميع مصادر الاغتياظ من ولادتها فقال تعالى (وإذ بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء مايفعلون) (٦) وجاء الاسلام

(١) علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ص ٤٩٩

(٢) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن جـ٥ ص ٩٤

(٣) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ص ٦ وما بعدها .

(٤) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن جـ٥ ص ١٣٢

(٥) الالوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب جـ٣ ص ٤٢

(٦) سورة النحل آية ٥٨ - ٥٩

يحرم هذه الجريمة ويؤنبهم عليها فقال تعالى (وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت) (١) . وأشار القرآن أيضاً إلى أن الدافع للوأد هو الفقر فقال تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً) (٢) . وقال تعالى أيضاً (ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) (٣) ويرى بعض المؤرخين أن مصدر هذه العادة ترجع إلى المجاعات الكثيرة التي كانت تصيب الجزيرة العربية وإلى مخافة موهومة على الشرف إذ كانوا يخشون أن يجلبن لهم العار إذا سبين في الحرب (٤) .

ويرى بعض من المؤرخين : ان الوأد لايمكن أن يكون دليلا على احتقار العرب للمرأة ، فكان لها الحق في أن تمتلك املاكاً خاصة ، كما أنها كانت لاتزوج إلا بعد أخذ موافقتها ، ولها الحق في رفض من لاتريده ممن يطلب يدها (٥) . وكانت بعضهن يشترطن أن يكون حق الطلاق بايديهن (٦) .

فجاء الاسلام نابذاً لهذه العادة كما أشار إلى ذلك القرآن وأكدها الرسول في وصاياه للمؤمنات عند اسلامهن (على ألا يقتلن أولادهن) (٧) ويوصي الآباء خيراً بالبنات فقال : (من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة) (٨) ولم يكتف الاسلام بهذا بل رفع من منزلة المرأة العربية ، وأوصى بحسن معاملتها قال تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) (٩)

---

(١) سورة التكرير آية ٨ - ٩
(٢) سورة الاسراء آية ٣١
(٣) سورة الانعام آية ١٥٠
(٤) Nicholson. Literary History of the Arab .p.9
علي عبدالواحد وافي : وأد البنات عند العرب في الجاهلية (مجلة الرسالة العدد ٤٠٠ لسنة ١٩٤١)
(٥) ابن سعد : الطبقات ج١قسم١ ص٤١/سيرة ابن هشام ج١ص١٤٨
(٦) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص١٣٩
(٧) الطبري : تاريخ ج٢ص٣٢٨
(٨) ابن الربيع : تيسير الاصول ج١ص٤٩
(٩) سورة البقرة، آية ٢٢٨

وقوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) (١) وقوله تعالى أيضاً (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) (٢) .

وظلت المرأة العربية تتمتع بحرية وتقدير واحترام طيلة عهد الرسول والراشدين والامويين وشطرا من العصر العباسي حتى غلب الموالي على الخلافة العباسية وادخلوا كثيراً من التقاليد الاجتماعية الفارسية في المجتمع الاسلامي وانتشرت عادة التسري ، وأقبل الخلفاء العباسيون على الزواج بالاماء الفارسيات والتركيات والروميات ، وأصبح منهن أم ولد فانحطت منزلة المرأة بصورة عامة وأساء الرجل الثقة والظن بها ، وهذا يفسر سبب انتشار عادة الحجاب التي لم تكن موجودة لدى العرب قبلا (٣) .

٢ — **الموالي :**

المولى (٤) لغة : تأتي بمعنى الرب أو المالك كما في قوله تعالى (... ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) (٥) وتأتي بمعنى القربى والعصبة كما في قوله تعالى (وإني خفت الموالي من ورائي) (٦) وتأتي أيضاً بمعنى المؤيد والمناصر كما في قوله تعالى (ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لامولى لهم) (٧) كما يطلق على الحليف والجار والشريك والسيد ..

جاءت تسمية الموالي عند العرب في الجاهلية من عتق العبد ويسمى (مولى العتاقة) حيث ينسب العبد المعتوق إلى سيده الذي أعتقه ، ويسمى هذا (ولاء

---

(١) سورة النساء اية ١٩

(٢) سورة الروم آية ٢١

(٣) ناجي معروف : الحضارة العربية ص٣١٦

(٤) انظر ابن منظور : لسان العرب ، المنجد القاموس المحيط مادة (ولى) المطرزي ابو الفتح ناصر بن عبد السيد : المغرب في ترتيب المعرب ص٢٦٢ .

(٥) سورة الانعام آية ٦٢

(٦) سورة مريم آية ٥

(٧) سورة محمد اية ١١

العتاقة) أو (ولاء النعمة) .كما تأتي كلمة المولى أيضاً من الموالاة أو المحالفة ويسمى (مولى الموالاة) في حالة انتمائه إلى قبيلة من القبائل فينسب اليها ويصبح حليفها (١) .وقد أقر الاسلام الولاء استناداً إلى ماروي عن النبي (مولى القوم منهم وخليفهم منهم) (٢) .

ويذكر أحمد أمين (٣) : ان تسمية الموالي من (الولاء) والذي نتج عن وجود صلة بين المعتق والمعتَق وهي صلة النسب : فيقولون : زيد بن حارثة مولى رسول الله أي عتيقه ، وان كانت أنثى فهي مولاته ، وإذا كان المعتق من قبيلة فينتسب اليها . فيقولون : مولى بني هاشم أو مولى ثقيف ، ويظهر أثر الولاء واضحاً فيما إذا مات المعتق من غير وارث فان المعتق يرثه .

ولا ريب أن الموالي التي أشارت اليهم كتب التاريخ إما ان يكون أصابهم أسرى حرب استرقوا ثم اعتقوا فصاروا موالي ، وإما ان يكونوا من أهل البلاد المفتوحة وعندما أسلموا تحالفوا مع المسلمين لكي يعتزوا بقوتهم وبذلك يصبحوه موالي بالحلف والموالاة (٤) .

واصبحت كلمة الموالي من وجهة نظر المؤرخين تطلق على كل من دخل في الاسلام من غير العرب سواء استرق او لم يسترق فيذكر الزيلعي في التسيير (وسمي العجم موالياً لان بلادهم فتحت عنوة بايدي العرب وكان للعرب استرقاقهم . فاذا تركوهم احراراً فكأنهم اعتقوهم والموالي هم المعتقون) .

ويبدو ان اصطلاح الموالي الذي استعمل من الوجهة التأريخية يختلف عما عند العرب في الجاهلية حيث كان يطلق على حلفائه وورثته من بني عمه واخوته وسائر عصبته فجاء في تفسير الطبري : قال ابن زايد : في قوله تعالى (ولكل جعلنا موالي) قال : الموالي في الجاهلية العصبة ، فلما دخلت العجم على العرب

(١) المطرزى : المغرب في ترتيب المعرب ص٢٦٢
(٢) محمد طيب النجار : الموالي في العصر الاموى ص١٤
(٣) احمد امين : فجر الاسلام ص١١٠ ، ص١١١
(٤) المطرزى : المغرب ص٢٦٢

لم يجدوا لهم اسماً قال تعالى (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم) فسموا الموالي . قال : والموالي اليوم موليان : مولى يرث ويورث فهؤلاء ذوو الارحام ، ومولى يورث ولا يرث فهؤلاء مولى العتاقة فظاهر من قوله ان اطلاق الموالي على الاعاجم معنى مستحدث في الأسلام (١) .

لقد أوجد الفتح الاسلامي طبقة كبيرة من المجتمع الاسلامي ينتمون إلى أصول غير عربية اطلق عليهم المؤرخون (المسلمون من غير العرب) حيث دخلت أعداد كبيرة من أهل الذمة في الاسلام ودخولهم هذا كان بدوافع عديدة (٢) ، أما رغبة في الاسلام وتحقيقاً للمساواة بالعرب كما جاء في قوله تعالى (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم) (٣) وكما نادى به الرسول في حجة الوداع (ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لادم وآدم من تراب ليس لعربي على أعجمي فضل الا بالتقوى) (٤) او ان دخولهم في الاسلام كان طمعاً في منصب أو كسب مادي ومعنوي .

كان اكثر الموالي من الفرس ، وهؤلاء بعد اسلامهم والوا القبائل العربية للاحتماء بها والانتفاع من مكانتها وجاهها وشرفها ، وقد الحقهم الخلفاء الراشدون بهذه القبائل في توزيع العطاء . فقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى امراء الاجناد في البلاد المفتوحة (ومن اعتقتم من الحمراء فاسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وان احبوا ان يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلهم اسوة في العطاء) (٥) .

لقد نعم الموالي بالمساواة طيلة حكم الخلفاء الراشدين ، فعندما تولى ابو بكر الخلافة اعلن على الناس سياسته فقال (ان اقواكم عندي الضعيف حتى

---

(١) أحمد امين : فجر الاسلام ص١١١ .

(٢) انظر محمد طيب النجار : الموالي في العصر الاموى ص١٤ وما بعدها

(٣) سورة الحجرات اية ١٣

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج٢ص١٦ ، ابن عبدربه : العقد الفريد ج٢ص١١١

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص٤٦٣ ، ابو عبيد : الاموال ص٢٣٥

آخذ الحق له واضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه) (١) وساوى بين المسلمين في العطاء والواجبات وقد سار عمر بن الخطاب سيرة ابي بكر في تحقيق المساواة بين المسلمين وجعل التمايز بين الناس في العطاء بحسب اسبقيته إلى الاسلام والخدمة له لا فرق بين العربي والمولى . كما نعم الموالي أيضاً بالمساواة الاجتماعية فمن الاقوال المأثورة عن عمر انه قال : والله لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجئتنا بغير عمل فهم اولى بمحمد منا يوم القيامة، فأن من قصر به عمله لايسرع به نسبه (٢) كما انه قدم صهيباً الرومي على المهاجرين والانصار فصلي بالناس (٣) .

ومع ذلك العدل والمساواة الذي طبقه عمر بين العرب والموالي فان عوامل الحقد والكراهية لدى بعضهم ظهرت خلال فترة الفتوحات بعد فتح العراق وفارس فنقموا عليه لانه قضى على امبراطوريتهم ودينهم المجوسي ، فدبروا له مكيدة نفذها أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فاغتاله . فقد وضحت تلك المؤامرة الفارسية وظهرت اصابع الاعاجم ملطخة بدماء عمر ، واذ ذاك تبين للعرب أن الحقد الدفين قد تنبه في قلوب هؤلاء الناس فاصبح العرب ينظرون اليهم على حذر ، وابتدأت العصبية العربية منذ ذلك الحين ، واعتبر مقتل عمر بن الخطاب نهاية فصل مجيد في حياة الموالي (٤) .

ولم تكن حالة الموالي في عهد عثمان كحالتهم قبل ذلك كما ان الترف الذي نعم به العرب بعد الفتوحات كان ذا أثر كبير في نفوسهم فشعروا بزهو وكبرياء ونظروا إلى الموالي نظرة الغالب للمغلوب ، ومع هذا فان عثمان وعلياً تمسكا بمبدأ التسوية في العطاء بين العرب والموالي ، وكانا يعبران عن

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج٢ص٢٣٢ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٢ص١٣٠
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٢ص٦١
(٣) المصدر السابق والصحيفة .
(٤) النجار : الموالي في العصر الاموي ص٢٥

ايمانهم بالعدالة والمساواة ولكن الفريق الآخر من العرب كان يحتقر الموالي ولا ينظر اليهم نظرة المساواة (١) .

ولما قامت الدولة الاموية سارت بالاعتماد على العنصر العربي وأولت ثقتها بالموالين اليهم من العرب لتولي المناصب المهمة في الدولة ولم تمنح الموالي المساواة في العطاء أو النظرة الاجتماعية اليهم فعلى الرغم من أن الموالي حاربوا إلى جانب العرب في الفتوح الاسلامية الا انهم حاربوا مشاة ولم يسمح لهم الامويون بركوب الخيول وكانت رواتبهم وانصبتهم من الغنائم دون مايأخذه الخيالة العربي (٢) . فقد كان هذا التفريق في الناحية الاقتصادية والاجتماعية أحد الاسباب الرئيسة في نقمة الموالي على الحكم الاموي .

لقد تأثر الموالي بالعصبية العربية ، فقد كان العرب — وخاصة في الدولة الاموية — ينظرون اليهم نظرة احتقار وازدراء مما ادى إلى كراهية الموالي للامويين وللعرب ، وأدت إلى ظهور العصبية الفارسية التي اطلق عليها في التاريخ بالشعوبية ، وقد عبر معاوية بن ابي سفيان عن عصبيتهم بقوله : اني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي من الفرس) قد كثرت ... وكأني انظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت ان اقتل شطرا وادع شطرا لاقامة السوق وعمارة الطريق ... ثم عدل عن ذلك (٣) .

وظهرت بوادر السياسة التي انتهجها الامويون ضد الموالي منذ ولاية الحجاج ابن يوسف الثقفي على العراق ، فقد فرض الجزية والخراج على من اسلم من اهل الذمة ، ويبرر الطبري (٤) اجراءات الحجاج هذه بقوله : ان الحجاج حينما رأى اقبال اهل الذمة على الاسلام هاله نقص الاموال في خزانة الدولة ففرض الجزية على المسلمين الجدد والزمهم بالعودة إلى قراهم ، واعاد وضع

(١) المصدر السابق ص٢٧

(٢) برنادر لويس : العرب في التاريخ ص٩٧ ، ٩٨

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٢ص٩٠

(٤) الطبري : تاريخ ج٨ص٣٥

الخراج على الارض التي اسلم اصحابها كما كان قبل اسلامهم وقال لهم : حينما امر باعادتهم إلى قراهم : انتم عاوج عجم وقراكم اولى بكم ، كما نقش على يد كل رجل منهم اسم البلد التي وجهه اليها (١).

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز حاول التخفيف عن الموالي ومعالجة اوضاعهم الاقتصادية فكتب إلى عماله يأمرهم بمساواة الموالي العرب في العطاء واسقاط الجزية عنهم فقال : ان الله بعث محمدا داعيا إلى الاسلام ولم يبعثه جابياً فمن أسلم من أهل المال فعليه في ماله الصدقة ولاجزية عليه (٢) . وبعد وفاته عادت أوضاع الموالي السيئة كما كانت عليه قبل خلافته ، مما ترك في نفوسهم ردود فعل شديدة ضد الخلافة الاموية ، وأخذوا يدعمون أية حركة سياسية ترمي للقضاء على الدولة الاموية لابدافع العصبية العربية التي حركتهم فقط وانما أيضاً بدافع الشعور القومي والعصبية الدينية المتأصلة في نفوس هؤلاء الموالي فانضموا إلى ثورة عبدالله بن الزبير وأيدوه في مطالبته بالخلافة وساهموا في ثورة المختار بن عبيد الثقفي سنة ٦٦ هـ ، وقد انضم اليه منهم نحو عشرون ألفاً (٣) واشتركوا في حركات الخوارج ، كما وجدوا في ثورة عبد عبد الرحمن بن الاشعث ماتحقق ميولهم في عدائهم للعرب والكيد للدولة الاموية وقد بلغ عددهم في معركة دير الجماجم نحو المائة الف (٤) كما انضموا إلى ثورة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، ووقفوا بجانب العلويين وكذلك في الدعوة العباسية(٥) التي استطاعت أن تؤثر فيهم باسم الدعوة إلى قيام خليفة شرعي من نسل الرسول ، ومعناه الرجوع إلى مبدىء الاسلام الاولى من عدالة ومساواة بين المسلمين جميعاً مما عجز الامويون عن تحقيقه (٦) .

(١) المبرد : الكامل جـ٢ص٨١

(٢) ابو يوسف : الخراج ص١٣١

(٣) الدينوري : الاخبار الطوال ص٢٨٦ .

(٤) الطبري : تاريخ جـ٨ص١٥ ، ابن كثير : الهداية جـ٩ص٤١

(٥) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٣٢٦

(٦) برنارد لويس : العرب في التاريخ ص٩٩

ويرى بعض المؤرخين (١) انهم كانوا يرون ان ليس في الامكان تحول الامر (الخلافة) من العرب إلى الفرس فعملوا على نقل الخلافة من يد الامويين إلى يد الهاشمين وان نجحوا في هذا التدبير فيكون ظاهر الحكم للهاشميين وباطنه للموالي ، فيتولون المناصب العالية ويديرون شؤون الدولة .

وقد وجد الموالي من سياسة اللين والتسامح التي استخدمها عمر بن عبد العزيز سبيلا إلى التحرك بحرية تامة في مناهضة السيادة العربية تحت شعار الدعوة لآل البيت النبوي التي ابتدأت منذ سنة ١٠٠ هـ كما تذكرها اوثق المصادر (٢) في الكوفة ثم انتقلت إلى خراسان لقوة الموالي فيها ولبعدها عن مركز الخلافة الاموية ولغلبة العنصر الاعجمي فيها على العنصر العربي (٣) .

ويتضح دور الموالي (الفرس) في قيام الدولة العباسية بالخطبة التي القاها محمد بن علي العباسي لدعاته (... عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدورا سليمة وقلوبا مجتمعة لم تتقسمها الأهواء ، وليس فيهم العرب ولافيهم تحارب كتحارب الاتباع مع السادات ولا تحالف كتحالف القبائل ومازالوا ينالون ويمتهنون ويكظمون وينتظرون الفرج ويؤملون دولة) (٤) .

وقد اعترف العباسيون بفضلهم في قيام الدولة العباسية وقد عبر داود بن علي عن جهودهم في خطبته باهل الكوفة يوم البيعة لابي العباس بالخلافة فقال : (ياأهل الكوفة انا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى اتاح الله لنا شيعتنا من اهل خراسان فاحيا بهم حقنا وابلج حجتنا واظهر بهم دولتنا (٥) وخاطب الخليفة العباسي المنصور الموالي من اهل خراسان قائلا لهم (ياأهل

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ج١ص٣١

(٢) الطبري : ج٥ص١٣٥ وفي المصادر الاخرى في حوادث سنة ١٠٠هـ

(٣) فلهاوزن : الدولة العربية ص٤٩٩

(٤) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج٣ص٤٨٩ ، الهمداني : كتاب البلدان ص٣١٥ طبع ليدن انظر اليوزبكي : الوزارة ص٢٧ط٢

(٥) الطبري : تاريخ ج٩ص١٢٧ ، ابن الاثير : الكامل ج٥ص١٩٧ : الوزارة ص٢٧

خراسان انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا (١) . وكان الخراسانيون ، يقولون نحن اهل هذه الدولة واصحاب هذه الدعوة والانصار انصارنا (٢) .

لذا لم يكن عجبا ان تأثر خلفاء بني العباس بعد مشاركة الفرس لهم في الحكم بانظمة الاكاسرة فقد استحدث في بلاط الخلفاء مراسيم اكاسرة الفرس ، وظهر الطابع الفارسي في مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، وتضاءلت التقاليد في الادارة والسياسة ، وحلت محلها الانظمة الفارسية ، كما اقتبس العباسيون كثيرا من الافكار الساسانية والنظم الاجتماعية والازياء الفارسية (٣) .

ومما لاشك فيه ان الاحوال الاجتماعية والسياسية للموالي قد ارتفعت بشكل رجحت كفتهم وارتفعت منزلتهم على العرب ، فتولوا ارقى المناصب في الدولة من وزارة وقيادة وامارة وغيرها (٤).

ووجد الموالي وخاصة الفرس بعد قيام الدولة العباسية املا في استعادة مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ولكن لم تمض سنوات قليلة على قيام الدولة العباسية حتى ظهرت حركات مناوئة للحكم القائم بسبب ان فريقاً من الموالي وجد ان الحكم العباسي الذي قاتلوا من اجله لايزال عربيا في نظرهم كما وجد فريق اخر انهم ينالوا حرياتهم الدينية التي كانوا يطمحون اليها ، ذلك ان اتباع الاصول الدينية الفارسية (الزرادشتية والمانوية والمزدكية) وهم الطبقة الارستقراطية الايرانية التي كانت اول الامر قد اتحدت مع الدولة العباسية ثم لم تلبث ان انحسرت عنها ودعت إلى افكار مزدك تمثلت في دعوى بها فريد والمقنع وبابك الخرمي (٥) .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٢ص٢٤١
(٢) عبدالله الفياض : تاريخ البرامكة ص٢١
(٣) اليوزبكي : الوزارة ص٣٠ ط٢
(٤) النجار : الموالي في العصر الاموي ص١٣٢
(٥) برنارد لويس : العرب في التاريخ ص١٤١

٣ ـ اهل الذمة :

الذمة في اللغة العهد والامان والضمان ، واهل الذمة هم (المعاهدون) من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الاسلام (١) ومعناها ايضا المعاهد الخاضع لاحكام المسلمين القائم باداء الجزية المرتبة عليه من قبل الامام سواء كان يهودياً او نصرانياً او مجوسياً او وثنياً غير عربي (٢).

والذمة في الفقه الاسلامي العهد والامان الذي يعطى للقوم الذين لم يدخلوا في الاسلام عند فتح المسلمين لبلادهم ، ولايسترقون ، ويؤمنون على حياتهم وحريتهم واموالهم وعاداتهم (٣) . ويعرف المستشرق Caham (٤) الذمة بانها مصطلح لتمييز نوع من العقد يمنحه المسلمون لضيافة وحماية اعضاء الديانات الاخرى المعترف بها بشرط انها تعترف بسيادة المسلمين عليها ، وقيل : في تفسير معنى عقد الذمة بانه اقرار من الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام احكام الذمة (٥) . وقيل ايضا : والحكمة في عقد الذمة معهم احتمال دخولهم في الاسلام عن طريق مخالطتهم للمسلمين واطلاعهم على شرائع الاسلام وليس المقصود من عقد الذمة تحصيل المال (٦) .

ويسمى اهل الذمة من غير الموالين في دار الاسلام بـ (المستأمنين) وهم الذين الذين طلبوا الامان (٧) والمستأمن(بـ(بكسر الميم) هو الطالب للامان ويصح (بفتح الميم) بمعنى صار آمنا (٨) . وقد ورد هذا اللفظ في القرآن (وان احداً

---

(١) الفيروز ابادى : القاموس المحيط ج٤ص١١٥ ، معلوف : المنجد ص٢٣٧، السرخسي الحنفي : شرح السير الكبير ج١ص١٦٨

(٢) الفخرى: جلاء الظلمة عن حقوق اهل الذمة (مخطوط) ورقة ١٨ـ

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (ذمة) ج٩ص٣٩٠، ٣٩١

(٤) Encyclopaedia of Islam (Art Dhimma) P.227

(٥) ادريس الحنبلي : كشاف القناع ج١ص٧٠٤

(٦) السرخسي : المبسوط ج١٠ص٧٧

(٧) معلوف : المنجد ص١٦

(٨) ابن عابدين: رد المحتار ج٣ص٣٤١

من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه»(١) .
والمستأمنون ليسوا من دار الاسلام ولكنهم حصلوا على الامان من المسلمين ليعيشوا معهم في سلم وامان .

كما سمي اهل الذمة بـ(اهل الكتاب وهم الذين لهم كتب منزلة كاليهود والنصارى وممن لهم شبه كتاب مثل الصائبة والمجوس وممن لهم حدود واحكام دون كتاب مثل الفلاسفة الأول والدهرية وعبدة الكواكب والأوثان والبراهمة (٢) وبعد الفتح الاسلامي خضعوا للمسلمين وأصبحوا في ذمة الاسلام فاطلق عليهم أهل الذمة . وقيل : سمي اليهود والنصارى بأهل الكتاب تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان وذلك لان لهم كتباً منزلة هي التوراة والانجيل والزبور وان اعترافهم بها يجعل لهم مكاناً ممتازاً بالنسبة لعبدة الاوثان وغيرهم(٣). وقد ورد ذكر اهل الكتاب في القرآن في آيات كثيرة (٤) منها قوله تعالى (قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد الاالله ولا نشرك به شيئاً) (٥). وأهل الكتاب عند الحنفية اصحاب الكتب السماوية كالتوراة والانجيل وصحف ابراهيم ، وشيث ، وزبور داود (٦) وعند الشافعية والحنبلية : هم النصارى واليهود دون غيرهم مستندين إلى قوله تعالى (ان تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) (٧) .

---

(١) سورة التوبة : آية ٦
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل جـ١ ص٣٧
(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة (أهل الكتاب) جـ٣ص١٠٧
(٤) انظر سورة البقرة ١٠٥،١٠٩، آل عمران ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥، ٩٨، ٩٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٩، النساء ١٢٣ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٧١ ، البينة ١، ٦ المائدة ١٥، ٤ العنكبوت ٤٦ ، الحديد ٢٩، الحشر ٢، ١١
(٥) سورة آل عمران آية ٦٤
(٦) الحصكفي : الدر المختار جـ٢ص٣٧ (المنزل على ابراهيم عشر صحائف وعلى شيت ٥٠ صحيفة (ابن الاثير : الكامل جـ١ص٢٩ ، ٧٠ اما الزبور فقد أنزل على داود ويتضمن قصائد واناشيد من تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له) عبدالوهاب النجار : قصص الانبياء ص٣٠٧)
(٧) سورة الانعام آية ١٥٦

وتسمية أهل الكتاب التي وردت في القرآن تشمل اليهود والنصارى ثم توسعت هذه التسمية لتشمل الصابئة والمجوس (١) .

وقد وردت في القرآن آيات تطلق على أهل الذمة أسم (أهل الذكر) وهم أصحاب الاسفار القديمة والمزامير (٢) .

ويرد في كتب الفقه والتاريخ على الطوائف الدينية من غير المسلمين أسم (المعاهدين) وهم الذين كتبوا العهود مع المسلمين على ترك القتال ، والموادعة والامان (٣) على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وعقائدهم لانهم أصحاب عهد يلتزم المسلمون بالمحافظة عليه فان كان هؤلاء في دار الاسلام اعتبروا أهل الذمة وتطبق عليهم أحكام الذمة ، اما اذا كان المعاهدون من أهل دار الحرب فان دخلوا دار الاسلام لم يتعرض لهم احد بسوء لانه آمن بتلك المعاهدة) .

ويسمى أهل الذمة احياناً ب(الجوالي) (٤) وهم الذين اجلاهم عمر بن الخطاب من جزيرة العرب ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التي اخذت منهم ، واستعملت في كل جزية تؤخذ وان لم يكن صاحبها جلا عن وطنه (٥) .

ومهما يكن من تعدد التسميات فان التسمية الشائعة عند الفقهاء والمؤرخين أسم (أهل الذمة) وهم لليهود والنصارى والصابئة والمجوس والسامرية (٦) .

فالمذاهب الاسلامية اتفقت في أخذ الجزية من المجوس استناداً إلى قول الرسول إفيهم (سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي

---

(١) اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة في العراق ص٣٨ ، (رسالة دكتوراه غير منشورة)

(٢) انظر : The Ency of Islam Vol· p·294 —266.

(٣) اليوزبكي : تاريخ اهل الذمة ص٣٩

(٤) الجوالي : جمع (جالية) أصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر ، كما أنها تستعمل أحياناً محل لفظة (جزية) (رسائل الصابيء ص١٤٠ ، ١٢ ، ٥١٢ ، الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص١٩٦)

(٥) أبو يوسف : الخراج ص٣ حاشية (١) سيدة كاشف : الوليد عبدالملك ص٩٧ .

(٦) ابو يوسف : الخراج ص٢٣ ، الماوردي : الاحكام ص١٢٨ ، ترتون : أهل الذمة في الاسلام ص٩

ذبائحهم) (١) ولنكهم اختلفوا في اعتبارهم من أهل الكتاب وهل يحل للمسلم مناكحتهم وأكل ذبائحهم فقال الامام مالك (٢) في المجوس مابلغه عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) فالامر كله في هذا بمنزلة المجوس عندي) وروي أبو يوسف (٣) (ت١٨٢هـ/٧٩٨م) ان رسول الله اخذ من مجوس أهل هجر الجزية . وروي أيضاً عن علي بن أبي طالب ان رسول الله وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس وقال علي انا اعلم الناس بهم كانوا اهل كتاب يقرأونه وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم) (٤) ويعلق الخربوطلي على اجراءات المسلمين في المجوس فيقول : (ان الدولة الاسلامية كانت في سياستها تخطط لاعوام كثيرة عديدة ، وهي وان تركت المجوس بعد الفتوحات الاسلامية على دينهم فقد كانت تعلم ان الجيل الثاني أو الثالث من المجوس سيقبل على اعتناق الاسلام وقد حدث هذا فعلا فقد تناقص عدد المجوس على مر السنين تناقصا ملحوظاً واعتنقت الغالبية منهم العقيدة الاسلامية) (٥) .

والخلاصة : ان ماجاء في الحديث المحفوظ عن النبي واعتبارهم أهل كتاب بقوله (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) وما رواه علي بن ابي طالب عنهم (انهم كانوا امة لهم كتاب يدرسونه ونبي يتبعونه) فكتابهم الافستا وهم يعتقدون بنبوة زرادشت وما اشار اليه القرآن بقوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) (٦) فقد عدهم من أهل الكتاب . وذهبت الظاهرية إلى جواز زواج

(١) البوزبكي : أهل الذمة في العراق ص٤٠
(٢) سحنون المدونة الكرى ج٣ص٤٦
(٣) ابو يوسف : الخراج ص١٢٩
(٤) أبو يوسف : الخراج ص٧٤
(٥) الخربوطلي : الاسلام اهل الذمة ص٧٨
(٦) سورة الحج آية ١٧

للمسلم بالمجوسية بحججة انها من اهل الكتاب(١) ولانه روى ان حذيفة ابن اليمان تزوج مجوسية ، لان المجوس يقرون بالجزية ، فاشبهوا اليهود والنصارى (٢) على اعتبار ان القرآن نظر اليهم نظرة المساواة في اكثر من آية مما يحملنا على الاعتقاد انهم جزء من أهل الكتاب .

وما ورد حول اكل ذبائحهم ونكاح نسائهم بقوله تعالى (اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم) (٣) ولان أهل الكتاب يقرون على دينهم ببذل المال فتحل ذبائحهم ونساؤهم (٤) فكيف لايجوز الفقهاء ذبائح المجوس ونكاح نسائهم ويحلون وطأ سباياهم فقد اجاز الرسول استرقاق سباياهم ، ويجوز لساداتهم وطأهن بعد انقضاء عدتهن كما في حديث ابي سعيد الخدري انه قال : لاتوطأ حامل حتى تضع ولا حائض حتى تتبرأ بحيضة فيجوز وطأهن بعد الاستبراء ولم يشترط الاسلام (٥) .

كما أن العهود الصلح التي كتبت لهم في خلافة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي كانت مستوحاة مما جاء به القرآن وما اقره الرسول ، وكيف لايصح اكل ذبائحهم والعهود تنص عليهم بوجوب ضيافة ابن السبيل من المسلمين ثلاثة أيام ويطعموهم من وسط مايأكلون (٦) ويبدو ان الفقهاء قد تطرف بعضهم وبالغ في تفسير معاملة المجوس وحملوا النصوص الفقهية والتاريخية اكثر من طاقتها فان غالبية سكان العراق وبلاد فارس عند الفتح الاسلامي كانوا من المجوس وان وجود النص (ضيافتهم للمسلمين) في جميع عهودهم لدليل واقعي على جواز طعامهم وهذا يتناقض مع ماأشار اليه الفقهاء . كما أن

---

(١) ابن حزم المحلي ج٩ص٤٤٥

(٢) زيدان : احكام الذميين ص٣٤٥

(٣) سورة المائدة : آية ٤

(٤) ابن القيم الجوزية : احكام اهل الذمة ص٨٧

(٥) المصدر السابق ص١٦ (تعليق المحقق)

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص٣٩٠، ابن القيم : احكام ص٧٧٩

اجراءات الرسول والخلفاء في معاملة المجوس العرب داخل الجزيرة العربية كانت مبنية على عزلهم وعدم التسامح معهم لاجبارهم على الدخول في الاسلام مستندين إلى حديث الرسول (لايجتمع دينان في بلاد العرب) (١) وقد أورد ابن القيم (٢) في معرض حديثه عن احكام أهل الذمة ، واعتراف الاسلام بعقود النكاح المعقودة قبل الاسلام بدليل أن الرسول لم يأمر أحداً من المسلمين (وحتى أبي العاص زوج ابنته زينب بتجديد عقده على امرأته بعد سلامه ، فلو كانت انكحة الكفار باطلة لامرهم بتجديدها) وهذا الرأي يحملنا على القول بجواز الزواج من الكفار بعقد اسلامي يكون في هذه الحالة أثبت شرعاً من العقود السابقة (٣) أما الصابئة فقد اختلف الفقهاء والمفسرون في أصل عقيدتهم وأغلب الفقهاء اعتبروهم من أهل الكتاب وان لم يشهد لهم القرآن بكتاب (٤) لان اسمهم ورد في القرآن مع اسم اليهود والنصارى والمجوس ، وقيل عن الحسن البصري : انه كان يقول في الصابئة هم بمنزلة المجوس . فقال مالك الصابئة كالمجوس لان القرآن لايصدقهم بكتاب (٥) .

ولما كان الفقهاء يعترفون بالصابئة بانهم بمنزلة المجوس وورد اسمهم في القرآن مع المجوس ، ولما صح عند بعضهم اعتبار المجوس بمنزلة أهل الكتاب فعلى القياس يصح اعتبار الصابئة من ضمن أهل الكتاب أيضاً (٦) .

فقد أورد ابن القفطي (٧) (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م) رواية مفادها أن أبا حنيفة وصاحبيه أبا يوسف ومحمداً اختلفوا في نكاح الصابئة وأكل ذبائحهم فحرمها أبو حنيفة وأحلهما صاحباه فقال أصحابهم أنه ليس بخلاف على الحقيقة

(١) انظر اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة في العراق ص٤٦ ومابعدها
(٢) ابن القيم : احكام ص٣٠٩
(٣) اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة ص٤٨
(٤) ابو عبيدة : الاموال ص٧٢٥
(٥) المصدر السابق ص٢٦ ن٧
(٦) اليوزبكي : أهل الذمة ص٤٨
(٧) ابن القفطي : تاريخ الحكماء ص٣١١

وإنما هو خلاف في الفتوى ، لان أبا حنيفة عني بالصابئين الحرانيين وهم معروفون بعبادة الكواكب فاجراهم مجرى عبادة الاوثان في تحريم المناكحة والذبائح وصاحباه سئلا عن الصابئين الذين يسكنون البطيحة في العراق وهم فرقة يؤمنون بالمسيح وبعض الرسل ، فاجابا بجواز ذبائحهم ومناكحتهم ولو سئل أبو حنيفة عن هؤلاء لافتى بفتوى صاحبيه ولو سئل صاحباه عن الفرقة التي عنى لافتيا بمثل قوله) .

ولما كان بحثنا يتناول صابئة العراق (المندائيين) فأن أحكام ابي يوسف ومحمد تنطبق عليهم فيجوز في هذه الحالة أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم ..

والحقيقة أن صابئة العراق يعتقدون بالله ويؤمنون بالآخرة ، ويدعون أنهم يتبعون تعاليم آدم وان نبيهم يحيي جاء لينقي دين آدم مما علق به من أساطير وخرافات وإن كتابهم المقدس (الكنزيرا) أي صحف آدم وصلاتهم تقتصر على الوقوف والركوع والجلوس على الارض دون السجود ، ويؤدونها في اليوم ثلاث مرات قبل طلوع الشمس وعند زوالها ، وقبيل غروبها ويتوجهون في صلاتهم إلى النجم القطبي (١) ولو رجعنا إلى عهد الفتوحات الاسلامية نرى أن الاسرى كان أغلبهم من المجوس والصابئة وقد وطيء المسلمون نساءهم واولدوهن فكانت أكثر أمهات خلفاء بني العباس مجوسيات ووثنيات وليس لدينا مايؤكد أن الخلفاء العباسيين أجبروهم على الاسلام قبل وطئهن (٢) .

موقف الرسول والخلفاء من اهل الذمة :

لقد شهدت العصور الاسلامية التسامح والأمان الذي ينعم به أهل الذمة وذلك بما وضع الاسلام من قواعد وتشريعات لتنظيم العلاقة بينهم وبين المسلمين وما وضع الرسول من السنن التي اعتبرت أسساً سار عليها من جاء بعده من الخلفاء فقد أوصى القرآن بالاحسان إلى أهل الذمة وبرهم فقال تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا

(١) الحسني : الصابئة في حاضرهم وماضيهم ص٤٣ وما بعدها .
(٢) اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة ص٤٩

اليهم) (١) . كما وضع القرآن نظاماً لتحديد العلاقة بينهم وبين المسلمين لكي لاتحدث الفرقة والنزاع فقال تعالى (ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وانزال اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) (٢) . وقد حث القرآن على الالفة والمودة فاباح الاختلاط والزواج بهم قال تعالى (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم) (٣) كما حث القرآن على الوفاء لهم وعدم ايذائهم قال تعالى (واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها) (٤) كما أكد القرآن على ضرورة العفو عن بعض سيئاتهم بقوله تعالى (فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) (٥) وقد نهى القرآن عن اكراههم على الاسلام بقوله تعالى (لاأكراه في الدين) (٦) وقد عامل الرسول أهل الذمة بغاية التسامح مستنيراً بما جاء في القرآن فقد كتب لاهل نجران في عقد الصلح معهم (ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وارضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير لايغير أسقفاً من أسقفيته ولاراهباً من رهبانيته ولا كاهنا من كهانته، وليس عليهم ديه ، ولا دم جاهليه ، ولايحشرون ، ولايعشرون ، ولايطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم جزيتهم فسهمهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى مافي هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بامره مانصحوا وا صلحوا ..)(٧)

(١) سورة الممتحنة آية ٨
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦
(٣) سورة المائدة آية ٤
(٤) سورة النحل آية ٩١
(٥) سورة آل عمران آية ١٣٤
(٦) سورة البقرة آية ٢٥٦
(٧) الالوسي : بلوغ الارب ج٢ص٢٤٣ – ٢٤٤، ابن الاثير : الكامل ج٢ص٢٠٠، انظر حميدالله : مجموعة الوثائق السياسية ص١١٤، البلاذري : فتوح البلدان ص٧٧ – ٧٨

وقد أوصى الرسول الخلفاء بحماية حقوق أهل الذمة بعد قبولهم عقد الذمة فقال فاذا قبلوا عقد الذمة فاعلمهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين)(١) كما أوصى الرسول بضرورة رعايتهم وعدم تكليفهم فوق طاقتهم واتباع الحق والعدل معهم ماداموا في عهد مع المسلمين فقال (من ظلم معاهداً أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فانا حجيجه يوم القيامة (٢) . وقد حث الرسول اهل الذمة على الاختلاط بالمسلمين حتى أنه اجاز لهم الغزو معهم فروى الزهري : ان قوماً من اليهود قاتلوا مع الرسول فاسهمهم (٣) كما كان الرسول يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازاتهم ، ويزورهم ، ويكرمهم كما كان يقترض منهم ، ويرهن عندهم امتعته حتى أنه توفي ودرعه مرهونة عند يهودي (٤) .

وقد سار الخلفاء الراشدون على هدى القرآن وسيرة الرسول في معاملة اهل الذمة ما داموا يلتزمون بعهود المسلمين فهذا كتاب ابي بكر الصديق لاهل نجران يؤكد بعهد الرسول اليهم (٥) . وقال ابو بكر يوصي قواد جيشه اثناء الفتوح باهل الذمة (لاتقتلن احدا من اهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته) (٦) كما، كتب يوصيهم باهل البلاد المفتوحة ورجال دينهم فقال : (اوصيكم بعشر فاحفظوها عني الا تخونوا ولاتغلوا ولا تغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا طفلا صغيرا ولاشيخاً كبيرا ولا إمرأة وتعقروا نخلا ولا تحرقوا ولاتقطعوا شجرة مثمرة ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيراً الا لأكلة وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له ...) (٧) .

(١) الكاساني : بدائع الصنائع ج٧ص١٠٠
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٢ص١٢٧، الغزي الحنفي : جلاء الظلمة ورقة ٣٨ و.ظ.
(٣) شرح المالكي : صحيح الترمذي ج٧ص٤٨
(٤) احمد شلبي : المجتمع الاسلامي ص١٥٠
(٥) انظر حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ص١٢٩
(٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٢ص١٢٧
(٧) دائرة المعارف البريطانية ج١١ص١٨٤، الطبري ج٣ص٢١٣ ديوارنت قصة الحضارة ج٢م٤ ص٧٣

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن ابي وقاص حين افتتح العراق يوصيه بالمسلمين وا هل الذمة (وعهدي اليك ... ولاعشور على مسلم ولا على صاحب ذمة اذا ادى المسلم زكاة ماله وادى صاحب الذمة جزيته التي صالح عليها) (١) وكان عمر يوصي المسلمين بحسن معاملة اهل الذمة ولايكلفهم فوق طاقتهم فقال للخليفة من بعده (واوصيك باهل الذمة خيرا تقاتل من ورائهم . ولا تكلفهم فوق طاقتهم اذا ادوا ماعليهم طوعاً ... واوصيك ان لاترخص نفسك ولالغيرك في اهل الذمة .. ولاتغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم . هذه وصيتي اليك واشهد الله عليك) (٢) .

واما في عهدي عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب فقد تمتع اهل الذمة بالحرية والتسامح كما كانوا يتمتعون بها في عهد عمر . فكتب عثمان إلى عماله يوصيهم بهم خيرا فقال (... الوفاء الوفاء لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم) (٣) .

وفي عهد علي بن ابي طالب فقد بسط العدل والتسامح لاهل الذمة ويتجلى هذا في وصيته لعامله في اهل الذمة (انظر اذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيف ولا رزقا بالكوفة ، ولادابة يعملون عليها ، ولاتضربن احدا منهم سوطاً واحدا في درهم ولاتقمه على رجله في طلب درهم ، ولاتبع لاحد منهم عرضاً من الخراج فانا امرنا ان نأخذ منهم العفو) (٤)

ان تسامح الخلفاء الراشدين مع اهل الذمة في ممارسة شعائرهم الدينية والرجوع إلى رؤسائهم الروحانيين في امورهم القضائية وتسامحهم لهم ببناء الاديرة والبيع والكنائس واختيار رؤسائهم الروحانيين كان لهذه السياسة اثر كبير في حمل الكثير من اهل الذمة في عهد الخلفاء الراشدين على الدخول في الاسلام لما لمسوا

(١) ابن آدم : الخراج ص٤٩ ، ١٢١ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٩

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج٢ص٤٦ـ ٤٨

(٣) الطبرى : ج٥ص٤٤

(٤) ابو يوسف : الخراج ص١٥ ـ ١٦ المطبعة السلفية ١٣٥٢هـ

فيه من العدالة والحرية ، وكان اسرع الناس لقبول الاسلام الطبقة العامة من اصحاب الحرف والصناع والفلاحين الذين اعتنقوه بحماسه (١) .

ان ماكتبه الكثيرون من المستشرقين ليعطي الدليل الناصع على تسامح الاسلام وعلى حسن معاملة الحكام المسلمين لاهل الذمة يقول المستشرق الفرنسي لوبون (والحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين مسالمين مثل العرب ولادينا سمحاً مثل دينهم) (٢) . ويقول المستشرق ارنولد عن الاسلام : (انه هو الدين الوحيد الذي لم يفرض بالقوة بل اقبل الناس على اعتناقه بارادتهم واختيارهم(٣). ويوضح المستشرق دوزي مواقف الحكام المسلمين من اهل الذمة فيقول : (ان تسامح ومعاملة المسلمين لاهل الذمة ادى إلى إقبالهم على الاسلام وانهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة (٤) .

اما بالنسبة للضرائب التي فرضها المسلمون على اهل الذمة فقد قال المستشرق فان فلوتن : (ان الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومات العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الامن وما إلى ذلك من ضروب الاصلاح ، والحقيقة ان الجزية لم تكن عقاباً لاهل الذمة ، فهي نظير اعفائهم من الجندية ، ومقابل حماية المسلمين لهم ، وقد فرض الاسلام على المسلم الزكاة حتى يتكافأ الذمي والمسلم في الواجبات ، وكان نظام الجزية عادلا بحسب مقدرة الفرد المالية ففرق بين الغني والفقير والمتوسط الحال كما اعفى النساء والصبيان وذوي العاهات والرهبان وكان لاهل الذمة نصيب من العطاء)(٥) .

أما في العهد الاموي فقد اتبع خلفاء بني امية التسامح مع اهل الذمة واستخدموهم في مهام الدولة فقد اسند معاوية بن ابي سفيان الادارة المالية في الدولة لاسرة

---

(١) انظر : ارنولد الدعوه إلى الاسلام ص٢

(٢) انظر : لوبون حضارة العرب ص٧٢

(٣) انظر : ارنولد الدعوة إلى الاسلام ص١٨٢

٤) انظر دوزى نظرات في تاريخ الاسلام: ص٤١١ – ٤١٢ .

(٥) فان فلوتن : السيادة العربية ص٢٠

مسيحية توارث ابناؤها الوظيفة لمدة قرن من الزمان ومن افرادها القديس والمؤرخ يوحنا الدمشقي المعاصر لمعاوية ولولده يزيد كما اسند معاوية إلى طبيبة ابن اثال جباية خراج حمص وهي وظيفة مالية لم يسبق لنصراني قبله ان وصل اليها)(١) وكان سرجون كاتباً مسيحياً لمعاوية ولمن جاء بعده فلما نقلت الدواوين إلى العربية قال سرجون لابناء جلدته (اطلبوا المعيشة من غير هذه الصنعة فقد قطعها الله عنكم) (٢) .

وقد اباح خلفاء بني اميه لاهل الذمة ممارسة الاحتفالات باعيادهم والاحتفاظ بمعابدهم (٣) .

واتصف عهد عمر بن عبد العزيز بالعدل والاحسان لاهل الذمة يقول المستشرق دوزي (٤) (والحقيقة ان اهل الذمة تمتعوا بالكثير من عدل عمر ورحمته فقد امر عماله بالا يهدموا كنيسة او بيعة او بيت نار صولح اهل الذمة عليه). فهو قد طبق العدل بالحفاظ على مقدسات اهل الذمة وفي الوقت نفسه راعى مصالح الاسلام بان منع اهل الذمة من بنـــاء البيع والكنائس تطبيقاً للعهود السابقة بينهم وبين المسلمين ، في الوقت الذي لم يعمل اي خليفة على تطبيقها قبلا) .

واعاد عمر بن عبد العزيز اراضي كثيرة إلى اصحابها من اهل الذمة بعد ان ضمت إلى املاك الامويين . واعيد الكثير من الكنائس والديارات (٥) . فاعتبره الرهبان المسيحيون صديقاً لهم (٦) وحاول عمر بن عبد العزيز معالجة

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ج٢ص٢٥٩ طبعة ١٩٥٣

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص١٩٣ ، ترتون : أهل الذمة في الاسلام ص١٦٩

(٣) ريسلر : الحضارة الاسلامية ص٧٨ترجمة غنيم

(٤) دوزي : نظرات في تاريخ الاسلام ص٤٠٢

(٥) سعد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج٢ ص٤٤

(٦) عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج٢ص٢٦٠

مستوى المعيشة لجماهير البلاد الاسلامية وبالاخص الفلاحين ، فكتب إلى عامله على الكوفة ان يعطي اهل الذمة مابقي من خراج يسددوا ديونهم ويساعدوهم ان ارادوا الزواج منهم وختم رسالته بقوله : قوّ أهل الذمة فاننا لانريدهم لسنة ولا لسنتين (١) .

كما كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على البصرة عدي بن ارطاة يوصيه بالانفاق من بيت مال المسلمين على من عجز منهم عن العمل واصابته فاقة فقال (اما بعد ... وانظر من قبلك من اهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين مايصلحه) (٢) .

وبلغ من ازدياد التسامح ان الخلفاء الامويين اعطوا امتيازات لرؤساء أهل الذمة في جباية الضرائب من أبناء ملتهم اضافة إلى أن الحكم الاموي ترك معظم وظائف الدولة في أيدي الذميين (٣) . ويقول المستشرق ولها وزن (٤) في ذلك (أن الوليد الثاني جعل الجماعات الدينية من أهل الذمة تقوم بجباية الخراج ، فرأس الجالوت يجمع الضريبة من اليهود ، والمطران من النصارى ، والمزربان من المجوس) .

أما في العصر العباسي فقد سار خلفاء بني العباس على سياسة الراشدين والامويين في معاملتهم لاهل الذمة ، واعتمدوا عليهم وعلى الموالي في تنظيم الحكومة وادارتها وترتيب دواوينها لما كانت لهم من خبرة بالكتابة والخراج والدواوين وفي بعض فنون العلم ، فاغدقوا عليهم الاموال والهبات فعاشوا برفاه وتقاطروا على بغداد يخدمون الدولة العباسية بعقولهم واقلامهم بعدأن لمسوا من العباسيين من تسامح ديني ، وحرية في العقيدة ، فولوهم أمر الدواوين ، والخزائن

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبدالعزيز ص٦٧

(٢) ابو عبيدة : الاموال ص٤٥

(٣) سيدة كاشف : الوليد بن عبدالملك ص٩٦

(٤) ولهاوزن : الدولة العربية ص ٣٧٨

وقد تولى بعضهم المناصب العالية في الدولة ففي القرن الثالث ولي في بعض الاحيان ديوان الجيش نصراني (١) .

وساعدهم سيطرتهم على الدواوين على ممارسة حرياتهم الدينية وشعائرهم بصورة واسعة وعلى اقبالهم على بناء البيع والكنائس والاديرة واظهار أعيادهم الدينية بحرية تامة أمام المسلمين يذكر الشابشتي ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨م (في الديارات العدد الكبير من الاديرة التي بنيت خلال العصور العباسية وكيف ان هذه الديارات لم تكن فقط ملجأ للرهبان والمتدينين من النصارى وإنما أصبحت منتزهات يقصدها المسلمون في أعياد النصارى للمتعة والانس وقول الشعر وحتى شرب الخمور ، وكان بعض الخلفاء العباسيين يقصدونها في بعض المناسبات فقد نزل الرشيد يوماً بدير مارزكي الواقع على ضفة البليخ فاستطابه الخليفة وبر أهله من الرهبان (٢).

أما اليهود فعلى الرغم من قلة عددهم فقد تمتعوا هم أيضاً بالحرية الدينية والتسامح المطلق في ممارسة شعائرهم وكانوا كالنصارى يرجعون إلى رئيسهم الروحاني (رأس الجالوت) الذي كان يقوم بادارة شؤون طائفته وفقاً للعادات الدينية عندهم (٣) .

أما الصابئة فلم يكونوا اقل مساحة من غيرهم من أهل الذمة في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة يقول ابن النديم (ت ٣٨٣هـ / ٩٩٣م) ظل وثنيو حران « الصابئة» يلبسون القباء ويرسلون شعورهم (٤) وقد شغل الصابئة مناصب مهمة في الدولة ولاسيما الاشراف على الدواوين والكتابة للخلفاء فمنهم ابو اسحق الصابيء وغيره ، كما برزوا في العلوم ولاسيما علم النجوم ، وامتهنوا الحرف والمهن المختلفة (٥) .

---

(١) الصابيء : تاريخ الوزراء ص٩٥

(٢) افرام بوصوم : اللؤلؤ المنثور ص٥١٠

(٣) ديموجين : النظم الاسلامية ص١٦٦

(٤) ابن النديم : الفهرست ص٣٢٠

(٥) انظر اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة ص١٣٢

وأما المجوس فلم يكونوا كذلك أقل مسامحة في ممارسة شعائرهم الدينية من النصارى واليهود والصابئة ، فقد تعجب المقدسي ، عندما زار مدينة شيراز فلم ير فيها على المجوس رداء يميزهم عن غيرهم كما وجد الاسواق تزين في أعياد المجوس (١).

ويبدو أن المسلمين لم يكونوا قد فرضوا على أهل الذمة لبس زي معين لانهم كانوا يلبسون زيهم الخاص بهم قبل الفتح الاسلامي فكان لليهود زي وللنصاري زي وللصابئة زي وللمجوس زي ولازالت الازياء لكل طائفة دينية موجودة في العراق حتى الوقت الحاضر (٢) . وكان للمجوس كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم في قصر الخلافة (٣) يلقب بـ (الملك (٤) وقد عاملهم الخلفاء العباسيون بالعطف والتسامح ليأمنوا جانبهم من مساندة الحركات المناهضة للدولة العباسية (٥) .

وقد حدث في بعض الاحيان من بعض الخلفاء في العصر العباسي ان اشتد في معاملة أهل الذمة وخاصة النصارى ، وهذا يعود إلى علاقة الدولة الاسلامية بالبيزنطيين فقد روى الطبري (٣١٠هـ ٩٢٢) (٦) في حوادث سنة ١٩١هـ ان الروم أغاروا على ثغر مرعش وأصابوا من المسلمين ، فامر الرشيد بهدم الكنائس في الثغور وكتب إلى السندي بن شاهنك يأمره بأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة في لباسهم وركوبهم . ويرى أحمد أمين (٧) ان هذا الاجراء وامثاله كان أثراً من آثار سوء العلاقة السياسية بين الدولة الاسلامية والمملكة البيزنطية وليس أثراً للتعاليم الدينية . ويعلل ابن قيم الجوزية (٨) هذا الاجراء بسبب ما رآه الرشيد من معونة نصارى الثغور للروم البيزنطيين (وكاجراء

---

(١) انظر الخربوطلي : المجوس والمجوسية ص١٨٣

(٢) اليوزبكي : تاريخ اهل الذمة ص ١٢٥

(٣) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص٣٤٠

(٤) ابن النديم : الفهرست ص٣٩٣

(٥) مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في العصر العباسي ص٤٥

(٦) الطبري : تاريخ ج٨ص٣٥٤

(٧) احمد امين : ضحى الاسلام ج١ص٣٦٢

(٨) ابن قيم الجوزية : احكام اهل الذمة ص٤٨

سياسي يتطلبه الموقف آنذاك فقد أمر بهدم الكنائس بالثغور كاجراء مقابل لما قام به البيزنطيون بالثغور الاسلامية (١) .. وان هذه الاجراءات لم تكن ثابتة ولادائمة وانما يعود ذلك إلى الظروف الاجتماعية في الداخل وإلى السياسة الخارجية مع الدولة البيزنطية كما تعتمد أيضاً على مواقف أهل الذمة وخاصة النصارى عند حادث الحروب والاخطار والازمات التي تهدد الدولة الاسلامية .

وقدوصف المستشرق ترتون (٢) حـــالة أهل الذمة في ظل الاسلام فقال : (كان النصـــارى في بعض الاحـــايين يؤثرون العيش في ظل الحـــكم الاسـلامي على العيش في ظـــل اخوانهم المسيحيين ؛ ومع هـــذا التســـامح العظيم الذي شهده تـــاريخ أهل الذمة في عصر الراشدين والامويين والعباسيين فقد تعرضوا لأزمات ومضايقات في عهد الخليفة المتوكل العباسي ، فقد كان أشد الخلفاء وطأة على أهل الذمة) فقد أمر سنة ٢٣٥هـ بأخذ النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وبشد الزنار ، وركوب السروج الخشبية ، ونهى أن يستعان بهم في أعمال الدولة ، وأمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الاسلام ، ومنعهم من اشهار الصلبان في الشعانين وأمر بأن يجعل على أبوابهم صور الشياطين من الخشب ، أن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ولون كل واحدة تخالف الاخرى ومن خرجت من نسائهم تلبس ازازا عسلياً ، ومنعوا من لبس المناطق ، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين ولايعلمهم مسلم ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض (٣) . ويعزو سعيد بن بطريق (٤) هذا الاجراء إلى سخط المتوكل على بختيشوع المتطبب فكتب إلى جميع البلدان بأخذ النصارى في ذلك ،

ويروي ابن كثير (٥) (ت٧٧٤هـ ١٣٧٢م) حادثتين كان لهما اثرهما على

---

(١) اليوزبكي : تاريخ اهل الذمة في العراق ص١٣٦

(٢) ترتون : اهل الذمة في الاسلام ترجمه حسن حبشي ص١٦٥

(٣) الطبري : تاريخ ج٩ص١٧١ – ١٧٤ ، ابن الاثير : الكامل ج٧ص٥٢ ، ابن خلدون : تاريخ ج٣ ص٢٧٥ ، ابن زبر القاضي : الشروط العمرية على اهل الذمة (مخطوط) ورقة (٥ – ٦)وظ ابن النقاش المذمة في استعمال اهل الذمة (مخطوط) ورقة ٤ظ ، ابن كثير : (البداية والنهاية ج١٠ ص ٣١٧ ،ديورانت قصة الحضارة ج١٣ ص ٢٠٢

(٤) سعيد بن بطريق التاريخ المجموع على التصديق والتحقيق ص ٦٣

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٠ ص ٣٢٤ ،ابن الاثير : الكامل ج٧ ص ٧٦-٧٧

مايبدو في اجراءات المتوكل : فقد عرضت ام الملك البيزنطي على الاسرى المسلمين التنصر ، وكانوا نحوا من عشرين الفا ، فمن اجابها إلى النصرانية سلم والا قتلته فقتلت اثني عشر الفا ،وتنصر منهم ،وبقي منهم في سنة ٢٤١هـ سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ، ومائة وخمسة وعشرين امرأة عندما جرى الفداء بين الروم والمسلمين ، أما الحادثة الثانية : والتي يبدو انها كانت من العوامل الاخرى في استياء المتوكل من النصارى وثوب أهل حمص على عاملهم ومساعدة النصارى لهم عليه فكتب إلى الخليفة المتوكل يعلمه بذلك فكتب اليه يأمره بمناهضتهم كما كتب إلى والي دمشق ان يمده بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص ، وكتب اليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر بالسياط حتى يموتوا ثم يصلبهم على أبواب البلد .. وان يخرج كل نصراني بها ويهدم كنيستها العظمى ويضيفها إلى المسجد الجامع (ويبدو أن اجراء المتوكل اجراءاً وقائياً من عوامل الثورة في الداخل وبسبب من التعصب الديني ، كما انه كان شديداً على مخالفيه في المذهب فهو لم يسلك سياسة الشدة مع أهل الذمة فقط بل شمل بسياسته بعض فرق المسلمين ولا سيما الشيعة والمعتزلة ، فأمر سنة ٢٣٦هـ بهدم قبر الحسين بن علي ، وهدم ماحوله من المنازل والدور ، وان يحرث ويبذر ويسقي موضع القبر ، وأن يمنع الناس من اتيانه وأمر صاحب الشرطة ان ينادي في الناس من وجده عند قبره جيء به إلى المطبق ، فهرب الناس وامتنعوا من المصير اليه وكان كثير النقمة ايضاً على علي بن ابي طالب وشيعته حتى انه كان يجالس من اشتهر ببغضه للعلويين (١) .

ورغم سياسة الشدة التي اتبعها المتوكل في معاملة اهل الذمة ، الا انه لم يستغن عنهم وخاصة النصارى في أعمال الدولة ودواوينها فكان مالك بن الوليد النصراني صاحب ديوان النصر وقد اسند المتوكل ديوان الخاصة وبيت

---

(١) الطبرى ج٩ص١٨٥ ، ابن الأثير ج٧ص٥٥ ، ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج٢ص٤٠
جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ج٣ص٨٣

المال إلى نصرانيين هما ابي الغنائي وأخوه وكان بنان – وهو نصراني أيضاً كاتباً لصاحب الديوان (١) وكان من أتباعه حنين بن أسحق . فكان مكرماً لديه ، قد غمره بالاحسان واقطعه الاقطاعات (٢) لقد امتلك اهل الذمة الاموال الطائلة نتيجة مزاولتهم المهن كالهندسة والصيدلة والطب ، واشتغلوا بالتجارة والزراعة وساهموا في ادارة الدولة ودواوينها فبنوا القصور الشاهقة بالاثاث النفيس (٣) .

واخيراً : فان المجتمع الاسلامي كان قد استساغ مخالطة أهل الذمة والتعاون معهم بفعل المعاملات المختلفة من بيع وشراء وعلاقات أجتماعية من زواج وغيره وبفعل التسامح الذي يحمله المسلمون تجاههم ويؤيد ذلك ماروواه المستشرق متز بقوله (.... وقضت الضرورة ان يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين فاعان ذلك على خلق جو من التسامح لاتعرفه اوربا في القرون الوسطى ، وقد اباح الاسلام الزواج بأهل الذمة وخاصة اليهود والنصارى (٤) وقد كان له أثره في الترابط بين أبناء المجتمع الواحد ، فساعد ذلك على نشر الاسلام والطمأنينة والمحبة بينهم .

٤ . الرقيق (العبيد) .

الرق : هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكا للغير (٥) . ومصادر الرقيق عديدة منها مايؤخذ نهبا وسلبا من عرض الطريق كما كان يفعل النخاسون اليهود حيث يسرقون الاولاد ، ومما يؤسر في حرب مشروعة وغير مشروعة او بسبب الدين فقد كان المدين الذي لم يتيسر له الوفاء بما عليه من دين يصبح رقيقاً للدائن (٦)

---

(١) ترتون : اهل الذمة ص٢٠ عريب صلة تاريخ الطبري ص٢٥

(٢) كامل حفني : جلاء الظالمة عن حقوق اهل الذمة (مخطوط) ورقة ٧ر٠

(٣) ترتون : اهل الذمة ص١٧٠

(٤) متز : نهضة الاسلام نقلا عن ضحى الاسلام ج١ص٣٢٢ حاشية (١)

(٥) احمد شفيق : الرق في الاسلام ص٧

(٦) المصدر السابق ص ١٩

وكانت الفاقه عند بعض الامم سببا في عبوديتهم ، فكان الفقريؤدي بصاحبه إلى ان يرمي بنفسه في احضان الغير فيبيع نفسه واولاده اليه ، هذا فضلا عن الحروب التي كانت تشنها الامم على من تطمع فيهم ظلما وعدوانا فتصبح البلاد التي تكون لهم الغلبة عليها جزء من بلادهم واهلها عبيداً لهم (١) وقد وجد نظام الرق منذ وجود البشرية ، واختلفت احواله والنظرة اليه . باختلاف العصور ، وقد اباحته الحكومات المختلفة واقرته الشعوب المتعددة من يونان وروما وفرس ويهود فالفلاسفة اليونان ومنهم ارسطو جعل الرق نظاماً ضرورياً ورأى ان الغرض الذي ترمي اليه الدولة انما هو مساعدة الجماعة لتحيا حياة سعيدة ، وانه من الضروري اتخاذ الرقيق للقيام باعمال الدولة التي تستدعي مجهودا جسمانيا (٢)

والرومان على اعتقادهم ان الناس خلقوا احرارا الا أنهم لم يمنعوا الرق ولكنهم حرموا استرقاق الروماني للروماني ، واباح اليهود استرقاق غير اليهودي كما ان المسيحية هي الاخرى لم تمنع الرق او تعمم على الغائه او التقليل منه (٣) فكان الفرس والروم يعتبرون سكان العراق والشام ومصر قبل الفتح الاسلامي عبيداً لهم واتخذوا كثيرا منهم ارقاء وكان منهم الاقنان وهم عبيد الارض يباعون ويشترون مع الارض .

وكان العرب في الجاهلية يغزو بعضهم بعضاً ويأسرون الرجال والنساء ويسترقونهم ومع ذلك فقد اوجد العرب في الجاهلية سبلا لتحرير الرقيق فكان يعتق العبد لجهود عظيمة يقوم بها لسيده او لشجاعته في القتال او لاخلاصه(٤):

وكان هؤلاء الرقيق في الجاهلية وعلى عهد الرسول عرباً ومنهم من غير العرب وبعض الصحابة كانوا رقيقاً كبلال حبشياً وسلمان فارسياً وصهيب رومياً(٥)

(١) النجار : الموالي في العصر الاموي ص١٥٢
(٢) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٣١٧
(٣) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلاميه ص٣١٧
(٤) المصدر السابق ص٣١٨
(٥) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٠٩

اما مصدر الرقيق في الاسلام فمبعثه واحد من ثلاثة : اما ما يملك باليمين او من كان في نصيبه بعد قسمة الغنائم في الحروب المشروعة او ما يصل الى يده بشراء او هبة او بطريق الميراث عمن يملكه ، والانثى من الرقيق (الامة) توطأ بملك اليمين من غير عقد نكاح وتباع وتوهب وتستولد (١) .

فالاسلام لم يلغ الرق فقد اصاب الرسول في غزوة بني المصطلق — وهم عرب من خزاعة — سبياً كثيراً فقسمه في المسلمين ، ولما توسع انتشار الاسلام لم يعد يقبل من العرب الا الاسلام او القتل فالغي استرقاق العربي (٢) . كما حرم استرقاق المسلم للمسلم ولم يبح الا استرقاق اسرى حرب شرعية لم تقم الا على اعلاء كلمة الله (٣) ولم يقر الاسلام استرقاق اهل الكتاب (اليهود والنصارى) وساواهم بالمسلمين ماداموا في سلم معهم (٤) .

كان اغلب الرقيق الموجود في الجزيرة العربية من الرقيق الاسود ، ويرى البعض ان عدم الغاء الرق يعود إلى ان تحريرهم مرة واحدة سيخلف مشكلة اجتماعية واقتصادية فيما يخص ولاءهم وارتباطهم لانهم عاشوا في مجتمع قبلي ، واندمجوا فيه ، واصبحوا جزء منه ، كما انه من الناحية الاقتصادية يتعذر ايجاد سبل العيش لهذا العدد الغفير منهم في بلد فقير مجذب كالجزيرة العربية (٥)

ولما كان الرقيق قد ارتبط واندمج بالمجتمع العربي في الجاهلية وصدر الاسلام فلماذا تعذر تحريرهم جميعاً واقتصرت اجراءات المسلمين في تحريرهم بصورة فردية لمعالجة بعض الخطايا والذنوب التي يمارسها الاحرار في الوقت الذي

---

(١) النجار : الموالي ص١٣

(٢) احمد امين : فجر الاسلام ص١٠٩

(٣) الشيخ عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة ص٧٩

(٤) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٣١٨

(٥) النجار : الموالي ص١٥٦

نظر الاسلام في تقييم الانسان لا على اساس العرق والجنس وانما على اساس التقوى قال تعالى (ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) (١) وطبقه الرسول حيث امر بلال بن رباح الحبشي الاسود بالآذان على ظهر الكعبة فاستنكر سادة قريش وقالوا : اعبد حبشي يعلو ظهر الكعبة بحضورنا (٢)

وقد نهى الرسول عن تحقير العبد والاستهانة به واباح زواج المولى من من العربية فروى عن عبدالله بن عباس ان احد الموالي خطب إلى جماعة من بني بياضة ، واشار عليهم بتزويجه فقالوا له : يارسول الله تزوج بناتنا موالينا (٣) . فنزل قوله تعالى (ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) .

واباح الاسلام نكاح الاماء فقال تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات من ماملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات)(٤) وقال تعالى ايضاً (وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم واماتكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) (٥)

كما أوصى الرسول بهم خيراً فجاء في وصيته للمسلمين (اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولاتكلفوهم من الاعمال مالايطيقون، فان كلفتموهم فاعينوهم، ولايقولن أحدكم عبدي ولاأمتي ولكن ليقل فتاى وفتاتي (٦)

ولما توسعت الفتوحات زاد عدد الرقيق من الرجال والنساء حتى يروي المسعودى ان الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف امة . وقد اقبل العرب على الزواج بالاماء فاذا ولدت الامة من سيدها فـــالولد ابنه وتسمى هي (ام الولد) وتبقى ملكاً له بعد ولادتها يستمتع بها ولايجوز له أن يبيعها او

(١) سورة الحجرات : آية ١٣
(٢) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٤٦٨
(٣) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص٣١٩
(٤) سورة النسا آية ٢٥
(٥) سورة النور آية ٣٢
(٦) سيرة ابن هشام بهامش الروض الانف للسهيلي ص٧٨، الغزالي: اخبار علوم الدين ج٤ص٥٠

يهبها واذا مات فهي حرة(١) والقاعدة الشرعية في ذلك هي ان الولد يتبع أمه في الرق والحرية والامة اذا تزوجت حراً فان اولادها يتبعونها في الرق (٢) .

والحقيقة أن الاسلام لم يلغ الرق نهائياً فقد أجاز استرقاق الاسير ، ويبدو أنه كان على سبيل المعاملة بالمثل ، فان قانون الحرب السائدة بين الأمم آنذاك يفرض على المسلمين هذا النوع من المعاملة ، ومع هذا فقد اوجد الاسلام سبلا في تحريرهم فجعل جزء من أموال الزكاة في تحرير الرقاب(٣). واوصى بحسن معاملتهم وجعل عتقهم كفارة للذنوب ، فقد أوصى بهم القرآن بقوله تعالى (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربي والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لايحب من كان مختالا فخورا) (٤) واوصى القرآن أيضاً المسلمين بوجوب مساعدة الارقاء في استرداد حريتهم قال تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن عملتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي أتاكم) (٥) كما رغب المسلمين في عتقهم ابتغاء مرضاة الله قال تعالى (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة او إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة) (٦) .

وخير الاسلام الامام بين اطلاق الاسرى وبين الفداء بالمال — كما فعل الرسول في بعض اسرى بدر — او الابقاء على الرق قال تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما مناً بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها) (٧) ومما لاشك فيه ان تعاليم الاسلام كانت احدى مصادره الاساسية فقد كانت تقضي بدعوة الناس إلى

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ١١٠

(٢) النجار : الموالي ص١٥٧

(٣) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص٤٧٠

(٤) سورة النساء : ٤ : ٣٦

(٥) سورة النور : ٢٤:٣٣

(٦) سورة البلد : ٩٠ : ٨ — ١٦

(٧) سورة محمد ٤٧ : ٤

الدخول في الاسلام قال تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون بدين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (١) ومما روي عن الرسول انه قال : (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله ، فاذا قالوا عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله) (٢)
وان لم يسلموا يخيرون بدفع الجزية وان قبلوا بالجزية كانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ، ومن اجل هذا يسمون (اهل الذمة) وان لم يقبلوا بالاسلام ولا الدخول في ذمة المسلمين ودفع الجزية كانت الحرب عليهم ، ومن يقع منهم في الاسر يسترق : ويوزعون كغنائم للمسلمين بموجب اية الغنائم (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) والاربعة الاخماس الباقية توزع على المحاربين وله ان يحتفظ به او يبيعه او يهبه لانه ملك يديه .

وقد جاء في وصية الرسول لقواد جيشه (وأذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى خصال ثلاث فايتهن اجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الاسلام فان هم ابوا فاسألهم الجزية .فان اجابوك فاقبل منهم . وان هم ابو فاستعن عليهم بالله وقاتلهم (٣)

لقد نتج عن اتخاذ الرقيق دخول عناصر جديدة في المجتمع العربي من اصول فارسية رومية وتركية وبربرية وغيرها وادى ذلك إلى اختلاطهم بالعرب وتأثرهم بالتقاليد والعادات العربية كما نتج ايضاً عن اتخاذ الجواري والاماء والزواج بهن ظهور عنصر جديد يحمل الدم العربي والدم الاجنبي هذا العنصر الجديد (الهجيني) لعب دوراً كبيراً في الحياة العقلية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الاسلامي ظهر اثره واضحاً في العصر العباسي (٤).

(١) سورة التوبة اية ٢٩
(٢) احمد امين : فجر الاسلام ص١٠٧
(٣) صحيح مسلم ج٧ص٣١٠، مسند ابن ماجه ج٢ص١٩٩، سنن ابي داؤد ج٣ص٤١٦ . سنن الترمذي : ج٧ص١١٩، مسند ابن حنبل ج١٤ص٤٦
(٤) احمد امين : فجر الاسلام ص١١٢

الفهارس

مصادر ومراجع الكتاب

١ ــ المخطوطات

أبن زير : ــ ابي محمد عبدالله بن أحمد .

١ ــ (شروط النصارى) أو (الشروط العمرية على أهل الذمة) دار الكتب المصرية / المكتبة التيمورية برقم ٢٢٥٢تاريخ. ومصور بمعهد المخطوطات في الجامعات العربية . كتب سنة ٨٥٩هـ .

ابن النقاش : ــ شمس الدين ابي امامة محمد بن علي بن عبدالواحد المغربي العربي

٢ ــ (المذمة في استعمال أهل الذمة)
بدار الكتب المصرية برقم ١٦٩٣ فقه شافعي
ومصور بمعهد المخطوطات في الجامعة العربية برقم٤٦٥

تاريخ .

ابن المقفع : ــ ابي عبدالله محمد

٣ ــ (التبر المسبوك فيما يحتاج اليه الملوك)
مكتبة السليماني برقم ١١٣ اسطنبول.

الابوصيري : ــ علي بن علي

٤ . (آداب الوزارة)
مكتبة أيا صوفيا اسطنبول برقم ٢٨٤٥

الجيلي : ــ أحمد محمود

٥ ــ (منهاج الوزراء في النصيحة)
مكتبة أيا صوفيا اسطنبول برقم ٢٩٠٧ .

الحموي : ــ أحمد الحنفي .

٦ ــ (مجموعة رسائل) (رسالة في الوزارة)
مكتبة أيا صوفيا اسطنبول برقم ٢٨٩٣ .

الدمنهوري : — سيدي أحمد

٧ — (نفح العزيز في صلاح السلطان والوزير)

مكتبة السليماني اسطنبول برقم ١٩١٤

الرازي : — الشيخ ابي حاتم احمد بن حمدان (ت ٣٢٢هـ=٩٣٣م)

٨ — (كتاب الزينة في الكلمات الاسلامية العربية)

تحقيق الدكتور عبدالله سلوم ١٩٧٠/ مكتبة كلية الاداب/ جامعة عين شمس .

السهروردي : — أبو حسن محمد البغدادي

٩ — (تحرير الاحكام في تدبير أهل الاسلام) .

مكتبة بايزيد اسطنبول برقم ١٩٠٦٨

السلماني : — ابن الخطيب .

١٠ — (الاشارة إلى آداب السياسة في الوزارة)

خزانة الكتب والوثائق المغربية الرباط برقم ٢٤١١.

الشامي : — الشيخ علي بن مجد الدين .

١١ — (تحفة الوزراء في المواعظ) .

مكتبة بايزيد اسطنبول .

الغـزي : — كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الحنفي

١٢ — (جلاء الظلمة عن حقوق اهل الذمة) .

بدار الكتب المصرية / المكتبة التيمورية برقم ٣٢٤ عقائد الفه سنة ١٣١٥ هـ باسم السلطان عبدالحميد .

الفناري : — محمد بن علي .

١٣ — (رسالة في الوزارة واشتقاقها).

مكتبة الاوقاف بغداد .

المصادر الاولية

ابن الاثير: — ابي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد المعروف بأبن الاثير الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ ١٢٣٢م)

١٤ — (الكامل في التاريخ) مطبعة البابي الحلبي ١٣١٠هـ.

ابن انس: — الامام مالك.

١٥ — (المدونة الكبرى) برواية سحنون. مطبعة السعادة مصر ١٣٢٣هـ

ابن آدم: — يحيى القرشي (ت٢٠٣هـ / ٨١٨م).

١٦ — (الخراج) المطبعة السلفية / القاهرة ١٣٤٧هـ

ابن ادريس: — منصور الحنبلي (ت١٠٥١هـ / ١٦٤١م).

١٧ — (كشاف القناع عن متن الاقناع) مطبعة الترقية مصر ١٣١٩ هـ.

ابن ابي اصيبعة: — موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم الخزرجي (٦٦٨هـ / ١٢٧٠م)

١٨ — (عيون الانباء في طبقات الاطباء) بيروت دار الفكر ١٩٥٦).

ابن بطريق: — البطريق افتيشيوع المكنى بسعيد بن بطريق (ت ٣٢٨هـ ٩٣٩م)

١٩ — (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق). مطبعة الاباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٩م.

ابن تيمية: — تقي الدين الحراني.

٢٠ — (الحسبة في الاسلام) القاهرة ١٣١٨هـ.

ابن الجوزي: — سبط.

٢١ — (المنتظم في التاريخ) حيدر اباد الدكن ١٣٥٧هـ.

ابن الجوزي: — عبد الرحمن.

٢٢ — (تلبيس ابليس) القاهرة ١٩٢٨ .

ابن حزم: — ابي محمد علي الاندلسي.
٢٣ — (المحلى) المطبعة المنيرية القاهرة ١٣٥٠هـ.
ابن خلدون :— عبدالرحمن بن محمد بن جابر (ت٨٠٨هـ—١٤٠٥م)
ابن خرداذبه: — ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت٣٠٠هـ)
(المسالك والممالك) طبعة بريل ١٨٨٩م.
٢٤ — (العبر وديوان المبتدا والخبر) بيروت ١٩٦١م .
٢٥ — (المقدمة) طبع بيروت ١٩٠٠م
ابن خلكان : — شمس الدين ابي العباس أحمد (ت ٦٨١هـ =١٢٨٢م).
٢٦ — (وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان) المطبعة الميمنية القاهرة ١٣١٠ هـ.
ابن الديبع : — الامام عبدالرحمن بن علي الشيباني الزبيدي الشافعي (ت ٩٤٤هـ = ١٥٣٧م)
٢٧ — (تيسير الوصول إلى جامع الاصول من حديث الرسول). المطبعة السلفية مصر ١٣٤٦ هـ .
ابن سعد : — ٢٨ — (الطبقات الكبرى) ليدن ١٩٢٨ .
ابن سلام : — أبو عبيدة القاسم (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م)
٢٩ — (الاموال) نشر مكتبة الكليات الازهرية
ابن الطقطقي : — فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م).
٣٠ — (الفخري في الآداب السلطانية) مطبعة محمد علي صبيح القاهرة
ابن المطهر : — جمال الدين الحسن بن يوسف (ت ٧٢٦هـ)
٣١ — (منهاج الكرامة في معرفة الامامة) نشر مكتبة دار العروبة القاهرة ١٩٦٢ م
ابن عابدين : — محمد أمين (ت ٢٥٢هـ / ٨٦٦ م)
٣٢ — (رد المحتار على الدر المختار) المطبعة العثمانية ١٣٢٤هـ.

ابن عبدالحكم : — ابي محمد عبدالله (ت ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م)
٣٣ — (سيرة سيدنا عمر بن عبدالعزيز) المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٢٧ م .

ابن العبري : — غريغوريوس ابي الفرج هارون بن توما المطلي (ت٦٨٥هـ=١٢٨٦)م
٣٤ — (تاريخ مختصر الدول) المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨ م .

ابن عبد ربه : —
٣٥ — (العقد الفريد) مطبعة الاستقامة ١٩٤٠ تحقيق محمد سعيد العريان .

ابن فرأت : فرأت بن ابراهيم الكوفي .
٣٦ — (تفسير فرأت) المطبعة الحيدرية النجف.

ابن قتيبة : — ابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ ٨٨٩م)
٣٧ — (الامامة والسياسة) مطبعة النيل القاهرة ١٩٠٤م

ابن القفطي : — جمال الدين ابي المحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨ م)
٣٨ — (تاريخ الحكماء) من كتاب (اخبار العلماء باخبار الحكماء) ليبزك ١٣٢٠ هـ

ابن قيس : — أبو صادق سليم اللالي (ت ٩٠ هـ)
٣٩ — (السقيفة) المطبعة الحيدرية النجف .

ابن قدامة : — ابي محمد عبدالله بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣ م)
٤٠ — (المغني) ط ٣ طبع ادارة المختار ١٣٦٧ هـ

ابن القيم الجوزية : — شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي بكر (ت ٧٥١/ ه ١٣٥٠ م)

٤١ — (احكام أهل الذمة) مطبعة جامعة دمشق ١٩٦١ م

ابن كثير : — ابي الفداء الحافظ اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ه ١٣٧٢م)

٤٢ — (البداية والنهاية في التاريخ) طبع مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦ م

ابن النديم : — ابن النديم (ت ٣٨٣ه / ٩٩٣ م)

٤٣ — (الفهرست) سلسلة روائع التراث العربي / نشر مكتبة خياط بيروت .

ابن هشام :— أبو محمد عبد الملك

٤٤ — (السيرة النبوية) مطبعة المكتبة التجارية مصر ١٩٣٧م .

أبو سالم : — محمد بن طلحة الازير .

٤٥ — (العقد الفريد للملك السعيد) القاهرة ١٢٨٣ ه.

ابو الفدا : — الملك المؤيد اسماعيل (ت٧٣٢ه) .

٤٦ — (المختصر في اخبار البشر)

ابو يعلى : — محمد بن الحسن الفراء الحنبلي (ت٤٥٨ه/ ١٠٦٦)

٤٧ — (الاحكام السلطانية)القاهرة ١٩٣٨ .

ابو يوسف : — القاضي يعقوب بن ابراهيم الانصاري (١٨٢ه/ ٧٩٨م).

٤٨ — (الخراج) المطبعة السلفية القاهرة ١٣٨٢ه .

الاربلي : — المتوكل على الله .

٤٩ — (خلاصة الذهب المسبوك) مطبعة القديس ١٨٨٥ م

الاشعري : — ابي الحسن علي بن اسماعيل (ت٣٢٤ه) .

٥٠ ـ (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) صححه هالموث ريتر ١٩٣٨ م .

البلاذري : ـ احمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).
٥١ ـ (فتوح البلدان) طبع مكتبة النهضة المصرية .
٥٢ ـ (انساب الاشراف) تحقيق غوتيني طبع القدس ١٩٣٦ م

البغدادي : ـ ابي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)
٥٣ ـ (الفرق بين الفرق)مطبعة المعارف مصر ١٩١٠ م .

البغدادي : ـ ابي بكر احمد بن علي الخطيب (ت٤٦٣هـ /١٠٧٠م)
٥٤ ـ (تاريخ بغداد) او(مدينة السلام) مطبعة السعادة مصر ١٩٣١ م

البيروني : ـ ابي الريحان محمد بن احمد الخوارزمي ت(٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)
٥٥ ـ (الآثار الباقية عن القرون الخالية) لايبزك ١٩٢٣ م.

التوحيدي : ـ ابو حيان .
٥٦ ـ (مثالب الوزيرين) مطبعة دار الفكر بدمشق .

التنوخي : ـ القاضي ابي علي المحسن .
٥٧ ـ (الفرج بعد الشدة) .

الثعالبي : ـ ابي منصور النيسابوري .
٥٨ ـ (التمثيل والمحاضرة) مطبعة الجوائب القسطنطينية.

الجاحظ : ـ ابي عثمان عمرو بن بحر البصري (ت٢٥٥هـ / ٨٦٨م) .
٥٩ ـ (ثلاث رسائل) المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٣٣م .
٦٠ ـ (البيان والتبيين) تحقيق عبد السلام هارون نشر مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٠ م .

٦١ – (رسالة في معاوية والامويين) صححها عزة العطار – القاهرة ١٣٦٥هـ .

الجهشياري : – محمدبن عبدوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) .

٦٢ – (الوزراء والكتاب) مطبعة البابي الحلبي مصر ١٩٣٨ م .

الحصكفي : – الحصكفي (ت ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م) .

٦٣ – (الدر المختاح شرح تنوير الابصار) مطبوع على هامش رد المحتار لابن عابدين .

الدينوري : – ابي حنيفة احمد بن داود (ت ٢٨٢هـ /٨٩٥م)

٦٤ – (الاخبار الطوال) مطبعة بريل لندن ١٨٨٨م

الدميري : – كمال الدين (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

٦٥ – (حياة الحيوان الكبرى) القاهرة ١٩٥٤م

الذهبي : الحافظ شمس الدين (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

٦٦ – (العبر في خبر من غبر) طبع الكويت ١٩٦١م

السرخسي : – ابي بكر محمد (ت ٤٩٠هـ = ١٠٩٦م)

٦٧ – (المبسوط) مطبعة السعادة مصر ١٣٢٤هـ

السيوطي : – جلال الدين بن عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

٦٨ – (تاريخ الخلفاء) المطبعة الخيرية مصر

٦٩ - (حسن المحاضرة) مطبعة الموسوعات بمصر

الشافعي : – الامام محمد بن ادريس (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م)

٧٠ – (الأم) مطبعة بولاق مصر ٢١ – ١٣٢٥هـ

الشهر ستانـــــي : ـــ ابي الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر احمد (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م)

٧١ ـــ (الملل والنحل) تحقيق محمد سيد كيلاني نشر مصطفى البابي مصر ١٩٦١.

الشريف المرتضى علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ)

٧٢ - (الشافي في الامامة) طبع حجر

الشيـــــزري : ـــ عبد الرحمن بن نصر

٧٣ ـــ (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) تحقيق الباز القاهرة ١٩٤٦م

الشوكانـــــي : ـــ محمد بن علي بن محمد .

٧٤ - (نيل الاوطار شرح منتقى الأخبار) المطبعة العثمانية المصرية ١٩٥٧م .

الشيخ المفيـــــد : ـــ محمد بن محمد بن النعمان الكعبرى البغدادي(ت٤١٣هـ)

٧٥ ـــ (اوائل المقالات في المذاهب والمختارات) مطبعة رضائي تبريز ١٣٧١هـ.

٧٦ ـــ (شرح عقائد الصدوق) او (تصحيح الاعتقاد) تبريز ١٣٧١ هـ

٧٧ - (الارشاد) نشر المكتبة الحيدرية النجف ١٩٦٣م

الصابئ : ـــ ابي الحسن هلال بن محسن (ت ٤٤٨هـ /١٠٥٦م)

٧٨ - (رسوم دار الخلافة) تحقيق ميخائيل عواد / مطبعة العاني بغداد ١٩٦٤.

٧٩ ـــ (تحفة الامراء في تاريخ الوزراء) مطبعة البابي الحلبي

٨٠ — (رسائل الصابيء) مطبعة شركة التمدن مصر ١٩١٦م .

الصـــــدوق : — ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمي (ت ٣٨١هـ)

٨١ — (كمال الدين وتمام النعمة) طبع طهران ١٣٧٨هـ

الصولـــــــي : — ابي بكر محمد بن يحيي (ت ٣٣٥هـ = ٩٤٦م)

٨٢ — (ادب الكتاب) تصحيح وتعليق محمد بهجة الاثري

الطبرسي : — ابي الفضل علي (توفي في أوائل القرن السابع الهجري)

٨١ — (مشكاة الانوار في غرر الأخبار) المطبعة الحيدرية النجف ١٩٥١ م .

الطبري : — ابي جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ / ٩٢٢م)

٨٤ — (تاريخ الرسل والملوك) طبع دار المعارف ٦٠ — ١٩٦٣م والمطبعة الحسينية القاهرة ١٣٢٦ هـ

٨٥ — (اختلاف الفقهاء) طبع ليدن ١٩٣٣ م

الطوسي : — ابي جعفر محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)

٨٦ — (تلخيص الشافي)

٨٧ — (التشبيه) مطبعة لقمان النجف ١٣٨٥ هـ

عريب : — ابن سعد القرطبي

٨٨ — (صلة تاريخ الطبري) المطبعة الحسينية بمصر

الغزالي : — ابي حامد الطوسي (ت٥٠٥هـ / ١١١١م)

٨٩ — (احياء علوم الدين)

القمي : — سعد بن عبدالله بن ابي خلف الاشعري (ت٣٠١هـ)

٩٠ — (المقالات والفرق) مطبعة حيدري طهران ١٩٦٣م

القمي : — علي ابراهيم (ت٣٢٤هـ)

٩١ — (تفسير القمي) طبع حجر

القلقشندي : ـ ابي العباس أحمد بن علي بن عبدالله (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

٩٢ـ (صبح الاعشى في صناعة الانشا) المطبعة الاميرية القاهرة ١٩١٣ م

القرطبي : ـ ابي عبدالله محمد بن أحمد الانصاري (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩ م)

٩٣ـ (تفسير القرطبي) (الجامع لاحكام القرآن) مطبعة دار الكتب المصرية .

الكاساني : ـ علاء الدين ابي بكر بن مسعود الحنفي الملقب بملك العلماء (ت٥٨٧هـ/١١٩١م)

٩٤ ـ (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٨هـ

الكندي : ـ ابي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري (ت٣٥٠هـ/٩٦١م)

٩٥ ـ (الولاة والقضاء في مصر) مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨

الكليني : ـ ابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق (ت٣٥٨هـ/٩٣٩م)

٩٦ . (الاصول من الكافي) نشر مكتبة الصادق طهران ١٣٨١هـ

الماوردي : ـ ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت٤٥٠هـ)

٩٧ – (الاحكام السلطانية) مطبعة البابي الحلبي ١٩٦٠م
٩٨ – (ادب الوزير) قوانين الوزراة وسياسة الملك
(مطبعة دار العصور بمصر ١٩٢٩ م)

مجهـــول : – مؤلـف
٩٩ – (العيون والحدائق في اخبار الحقائق) طبع ليدن.

المرتضـى : – أحمد بن يحيى
١٠٠ – (كتاب طبقات المعتزلة) تحقيق سوسته ديفل
بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٦١

مسكويـه : – ابي علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت٤٢١ﻫ /١٠٣٣م)
١٠١ – (تجارب الامم)باعتناء امدروز مطبعة
التمدن مصر ١٩١٤ م

المسعودي : – ابي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦ﻫ /٩٥٧ م)
١٠٢ – (التنبيه والاشراف) ليدن –مطبعة بزيل١٩٦٧م
١٠٣ – (مروج الذهب) مطبعة دار الرجاء القاهرة
١٨٨٥م

المقدسي : – المطهر بن طاهر (ت٣٨٧ﻫ/٩٩٧م)
١٠٤ – (البدء والتاريخ) نشر كالمان هواز مكتبه المثنى
بغـــداد

المقريزي : – تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر
(ت٨٤٥ﻫ/١٤٤١م)
١٠٥ – (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)
مطبعة بولاق القاهرة

١٠٦ – (السلوك لمعرفة دول الملوك) مطبعة دار الكتب المصرية

١٠٧ – (اغاثة الامة في كشف الغمة) مطبعة النيل ١٣٢٤هـ

النعماني : – محمد بن ابراهيم بن جعفر المعروف بابن ابي زينب (من علماء القرن الثالث)

١٠٨ – (الغيبة) نشر مكتبة صابري تبريز

النوبختي : – أبو محمد الحسن (ت٣١٠هـ)

١٠٩ – (فرق الشيعة) منجج ريتر مطبعة الدولة اسطنبول ٩٣١

الهمداني : – محمد بن عبد الملك

١١٠ – (تكملة تاريخ الطبري) تحقيق البرت يوسف المطبعة الكاثوليكية بيروت

الهمذاني : – القاضي عبد الجبار بن أحمد

١١١ – (المغني في أبواب التوحيد والعقل)

ياقوت : – شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م)

١١٢ – (معجم البلدان) مطبعة السعادة مصر

١١٣ – (ارشاد الاريب)

اليعقوبي : – أحمد بن أبي يعقوب بن وهب المعروف بابن واضح الاخباري (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م)

١١٤ – (تاريخ اليعقوبي) نشر المكتبة المرتضية النجف ١٣٥٨ هـ

١١٥ – (البلدان) النجف ١٩٣٩ م

المراجع الحديثة والمترجمة

أبو زهرة : — محمد شاهين حمزة

١١٦ — (المذاهب الاسلامية) سلسلة الالف كتاب طبع باشراف الثقافة العامة بمصر

آرنولد : — توماس

١١٧ — (الخلافة) مطبعة دار التضامن بغداد ١٩٦١م

١١٨ — (الدعوة إلى الاسلام) مطبعة مكتبة النهضة القاهرة ١٩٧١م

أمين : — أحمد

١١٩ — (فجر الاسلام) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥ م

١٢٠ — (ضحى الاسلام) دار الكتاب العربي — بيروت

أمير علي : — سيد

١٢١ — (مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي) مطبعة الترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٨ م

ألباشا : — حسن

١٢٢ — (الالقاب الاسلامية) مطبوعات النهضة المصرية ١٩٥٧م

بتلر : — ترجمة فريد أبو حديد

١٢٣ — (فتح العرب لمصر) مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٣م

بخيت : — عبد الحميد

١٢٤ — (عصر الخلفاء الراشدين) دار المعارف بمصر ١٩٦٥م

برانــق : ـ محمد أحمـد
١٢٥ ـ (الوزراء العباسيون) منشورات لجنة البيان العربية المطبعة النموذجية القاهرة ١٩٤٨م

بروكلمان : ـ كـارل
١٢٦ ـ (تاريخ الشعوب الاسلامية) منشورات دار العلم للملايين بيروت .

ترتون : ـ أ . س
١٢٧ ـ (أهل الذمة في الاسلام) ترجمة حسن حبشي مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧م

جار الله : ـ زهدي حس ين
١٢٨ ـ (المعتزلة) القاهرة مطبعة مصر ١٩٦٧

ألجومرد : ـ عبد الجبار
١٢٩ ـ (هارون الرشيد) مطبعة دار الكتاب بيروت ١٩٥٦م

جوزي : ـ بندلي
١٣٠ ـ (من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام) القدس ١٩٢٨

حسن : ـ علي ابراهـيم
١٣١ ـ (التاريخ الاسلامي العام) نشر مكتبة النهضة المصرية ط ٣ ١٩٦٢م

حسن : ـ حسن ابراهيم
١٣٢ ـ (النظم الاسلامية) نشر مكتبة النهضة المصرية ط ٤ ١٩٧٠م

حتي : ـ فيليب
١٣٣ ـ (تاريخ العرب مطول) بيروت ١٩٥٣م

ألحسني : ـ عبد الرزاق

١٣٤ ـ الصابئون في حاضرهم وماضيهم) مطبعة العرفان صيدا ١٩٥٥م

حسن : ـ محمد كامل

١٣٥ ـ (طائفة الاسماعيلية نظمها وعقائدها) القاهرة مكتبة النهضة ١٩٥٩م

ألحصان : ـ عبد الرزاق

١٣٦ ـ (الحسبة) مطبعة التفيض بغداد ١٩٤٦م

ألخربوطلي : ـ علي حسني

١٣٧ ـ (الاسلام وأهل الذمة) مطابع شركة الاعلانات الشرقية ١٩٦٩م

خليل : ـ عماد الدين

١٣٨ ـ (دراسات في السيرة) دار النفائس بيروت

داؤد : ـ نبيلة عبد المنعم

١٣٩ ـ (نشأة الشيعة الامامية) مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٨ م

دراوور : ـ الليدي

١٤٠ ـ (الصابئة المندائيون) ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٩ م .

دسوقي : ـ ابراهيم

١٤١ ـ (الحسبة في الاسلام)

الدوري : ـ عبد العزيز

١٤٢ ـ (العصر العباسي الاول) مطبعة التفيض بغداد ١٩٤٢ م

١٤٣ ـ (العصور العباسية المتأخرة) مطبة العاني بغداد.
١٤٤ ـ (تاريخ العراق الاقتصادي) مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٨ م
١٤٥ ـ (النظم الاسلامية) مطبعة نجيب بغداد ١٩٥٠م
١٤٦ ـ (الجذور التاريخية للشعوبية) دار الطليعة بيروت ١٩٦٢ م

دوزي :ـ ر . ب . أ
١٤٧ ـ (نظرات في الاسلام) ترجمة كامل كيلاني مطبعة الحلبي ١٩٣٣ م

ديموبين :ـ موريس غود فروا
١٤٨ ـ (النظم الاسلامية) ترجمة صالح الشماع مطبعة الزهراء ـ بغداد ١٩٥٢ م .

ديورانت :ـ ول
١٤٩ ـ (قصة الحضارة) ترجمة محمد بدران : طبع الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

الراوي :ـ ثابت إسماعيل
١٥٠ ـ (العراق في العصر الاموي) مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٥ م

رحمة الله :ـ مليحة
١٥١ ـ (الحالة الاجتماعية في العراق) مطبعة الزهراء بغداد ١٩٧٠ م .

الريس :ـ محمد ضياء الدين
١٥٢ ـ (الخراج والنظم المالية) دار المعارف بمصر ط ٣ ١٩٦٩ م

ريسلـــــر : ـ جاك . س .
١٥٣ ـ (الحضارة العربية) ترجمة غنيم هيدون
مطبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م
زيـــــدان : ـ عبد الكريم
١٥٤ ـ (احكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام)
مطبعة البرهان بغداد ١٩٦٣م
زيـــــدان : ـ جرجـــي
١٥٥ ـ (تاريخ التمدن الاسلامي) مطبعة دار الهلال ـ القاهرة .
ســــرور : ـ محمد جمال الدين .
١٥٦ ـ (تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق) مطبعة دار الفكر العربي القاهرة .
شـــاكـــر خسولـة: (بيت المال نشأته وتطوره) مطبعة وزارة الأوقاف بغداد ١٩٧٦ .
شلبـــــي ـ احمد .
١٥٧ ـ (المجتمع الاسلامي) دار الطباعة الحديثة بمصر ط ٣ ١٩٦٣ م .
١٥٨ ـ (السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي)
١٥٩ ـ (التاريخ الاسلامي والحضارة العربية) نشر لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٠ م
الصالـــح :ـ صبحي
١٦٠ ـ (النظم الاسلامية نشأتها وتطورها) دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٦ م .
طلفــــاح : ـ خير الله
١٦١ ـ (القضاء عند العرب) مطبعة المعارف بغداد ١٩٧٣م .

عبـــد الوهاب ــ حسين
ح١٦ ــ (عيون المعجزات) المطبعة الحيدرية النجف ١٩٥٠م .
العـــدوي :ــ ابراهيم أحمد
١٦٣ (الدولتان الاسلام والروم) مطبعة الانجلو المصرية ١٩٥٨م .
ــ (الحمام الزاجل في العصور الوسطى) المجلة التاريخية العربية م٢ ج١ ١٩٤٩ .
علي :ــ جواد
١٦٤ (تأريخ العرب قبل الاسلام) شركة الرابطة للطبع والنشر بغداد ١٩٥٣م .
العلـــــي :ــ صالح احمـــد .
١٦٥ ــ (محاضرات في تاريخ العرب) ط ٢ طبع مكتبة المثنى بغداد .
عمـــار محمـــد
١٦٦ ــ (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية)
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت
عـــوف : عبد الرزاق
١٦٧ ــ (الفن الحربي في صدر الاسلام) دار المعارف بمصر ١٩٦١م .
غـــالـــب :ــ مصطفى .
١٦٨ ــ (تاريخ الدعوة الاسماعيلية)
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر/ دمشق .

فـــــرج :- اسماعيل حقي
١٦٩- (القضاء الاسلامي) مطبعة الاتحاد موصل ١٩٤٩
فلوتن : فان
١٧٠ - (السيادة العربية والشيعةو الاسرائيليات في عهد بني أميـــة)
ترجمة حسن ابراهيم حسن مطبعة السعادة مصر ١٩٣٤م .
فــــوزي : فاروق عمـــر
١٧١ - (العباسيون الاوائل)دار الفكر ودار الارشاد بيروت .
الفيـــاض : عبدالله .
١٧٢ _ (تاريخ البرامكة) مطبعة الرشيد ١٩٤٨م
كـــاشف : سيدة اسماعيل .
١٧٣ - (الوليد بن عبد الملك) سلسلة اعلام العرب العدد (١٧) المؤسسة المصرية للطباعة والنشر ١٩٦٢م
كبيسة - عبد الحميد
١٧٤ - (التنظيمات القضائية والحركة التشريعية في العراق) مطبعة دار التضامن بغداد - ١٩٧٢ م
كرد علي : - محمد
١٧٥ - (الادارة الاسلامية في عز العرب)مطبعة مصر القاهرة ١٩٣٤ م
كريستنسن : - آرثـر
١٧٦ - (ايران في عهد الساسانيين) ترجمة يحيى الخشاب مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧ م

لويس : — برنارد
١٧٧ — (العرب في التاريخ) دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٤.
١٧٨ — (اصول الاسماعيلية) دار الكتاب العربي مصر ١٩٤٧
ماجـــد : — عبد المنعم
١٧٩ — الحضارة الا سلامية في العصور الوسطى ط٣ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٣ م
نـادر : — البير نصري
١٨٠ — (أهم الفرق الاسلامية السياسية والكلامية) ط٢ بيروت / المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٦
النجـار : — محمد طيب
١٨١ — (الموالي في العصر الاموي) دار النيل للطباعة ١٩٤٩م
النقشبندي : — ناصر
١٨٢ — (الدينار العراقي) مجلة سومر م٣ ج٢ ١٩٤٧م بغداد
وات : — مونتكمري
١٨٣ — (محمد في مكة) عند تعريب شعبان بركات بيروت .
وافي : — علي عبد الواحد
١٨٤ — (وأد البنات عند العرب) مجلة الرسالة العدد (٤٠٠) ١٩٤١ م .
اليوزبكي : — توفيق سلطان
١٨٥ — (الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية) بين ١٣٢هـ — ٤٤٧هـ ط١ مطبعة الارشاد بغداد ١٩٧٠ ، ط٢ مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٥ م
١٨٦ — (تاريخ أهل الذمة في العراق) بين ١٢هـ — ٢٤٧هـ رسالة دكتوراه غير منشورة

٤ ـ المعاجم

ابن منظور : ـ (ت٧١١هـ/١٣١١م)

١٨٧ ـ (لسان العرب) باعتناء مرجليوث

مجد الدين : ـ (١٣٥٧هـ)
الفيروز ابادي

١٨٨ ـ (القاموس المحيط)

محمد فؤاد : ـ
عبد الباقي

١٨٩ ـ (المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم) مطابع الشعب القاهرة ١٣٧٨ هـ

فريد وجدي : ـ

١٩٠ ـ (دائرة المعارف)

٥ – المراجع الاجنبية

E· Brown,

191 – Aliterlary History of Persia·

(London 1909)

E· Gibbon,

192 – The Decline and fall the Roman Empire ·

(London 1911)

193 – Encyclopaedia of Islam·

(Leden 1965)

194 – Encyclopaedia of Islam·

(Oxford University 1928)

195 – Encyclopaedia Britannica·

(London 1768) ·

Hitti,

196 – Ahistory of Syria·

(London 1951)

Joseph Hell

179 – The Arab civilzation

(Cambridge London)

Lestrange,

198 – Baghdad During the Abbasid Caliphate·

(Oxford 1900)

Milne,

199 – Ahistory of Egyept under Roman Rull ·

(London 1898)

Nicholson Araynold,

200 – Literary History of the Arabs·

(London 1923)

Norman H· Baynes,

201 – The Beyzantine Empire,

(London 1935)

S· D· Geitien,

202– - Jews and Arabs·

(New York 1955)

Sourdel,

203 – Le Vizirat A bbaside

(Demas 1960)

Rosenthel ,

204 – political Thought in Medievel Islam ·

(Gambridge 1958)

Wellhousen,

205 – The Arab kingdom and its fall ·

(Calcutta 1927)

Studies In Arab Islamic Institutions

By

Dr. Tawfiq Sultan Al-Youzbaky